

# هيكل الأبارتهايد

أعمدة سرايية .. سقوف نووية

سعيد مضية

سعيد مضية

هيكل الأبارتهايد/ أعمدة سرايية .. سقوف نووية

منشورات مركز أوغاريت الثقافي

رام الله - فلسطين

حقوق الطباعة والنشر والترجمة محفوظة ©

الطبعة الأولى 2011

## شكر

الشكر للأستاذ وليد أبو بكر على قيامه بمراجعة الكتاب وتدقيقه .  
والشكر للأصدقاء وليد أبو بكر ومحمود شقير ونعيم الأشهب الذين أرشدوني إلى مصادر للبحث .  
والشكر لحملة مناهضة الجدار العنصري .

# المحتويات

7	تمهيد: تهتكت الأفعنة
11	الفصل الأول: عواء الكواسر
55	الفصل الثاني: أعمدة ودعامات – خرافات ورؤوس نووية
97	الفصل الثالث: مرافعة الصوت المكتوم
137	الفصل الرابع: أصوليتان... توأمان سياميان
167	الفصل الخامس: في خضم نهوض عربي جديد – مأسسة التضامن مع فلسطين
189	خاتمة: لا يبقى في الوادي غير حجارته
196	مراجع البحث



## تهتكت الأقنعة

بما يستحوذ عليه من غطرسة القوة، وبما توفر لديه من قناعة أن الدرب غدا سالكا نحو دولة إسرائيل الكبرى، ردّ شارون رئيس وزراء إسرائيل على مبادرة القمّة العربيّة بإرسال قطعاته العسكريّة لاستباحة أراضي السلطة بالصفّة. انطلقت القطعات المسلحة تعيد الاحتلال التام لفلسطين، ولتقترب جديداً من مسلسل المجازر البشريّة في مخيم جنين.

أسفرت دولة إسرائيل بلا تحرّج عن كامل أهداف المشروع الصهيونيّ. ظلّت تضمّر وتوارب، تتمسكن وتستغيث، تنطلق بالهجوم وتدّعي الدفاع؛ وفي الأثناء جمّعت كل وقية سوداء في تاريخ السياسة الدوليّة، وفصلت منها نماذج نمطيّة تلطّخ بها الخصوم والواقفين في الطريق، قاسمها المشترك أن «شعب إسرائيل» وحده موضوع الهدر الأزليّ. «إسرائيل تعمّق وتخلد الفلسفة الضديّة وهي أن 'كل العالم ضدنا'. إسرائيل لا تعرف كيف تبقى موجودة من دون نزاعات ومواجهات». هذا ما خلص إليه أبراهام بورغ، أحد المطلعين على دواخل النفسية الاجتماعيّة في إسرائيل والخارجين بسبب ذلك على نفسية الاستنثار بدور الضحية كي يبرّر اضطهاد الشعب الفلسطينيّ. حوّلت الأرض الفلسطينيّة بريّة، فيها حقوق الإنسان مهدورة والقواعد والقوانين الدوليّة عنها مغيّبة. قبل تأسيس دولة إسرائيل وبعده، أضمرت الصهيونيّة هدف التطهير، وأطلقت أدواتها لتقويض البنية الفلسطينيّة. ساد صمت حيال جريمة تهجير الفلسطينيّين لدى تأسيس الدولة؛ صمت التشجيع من قبل دول العالم ذات التأثير في السياسة الدوليّة، أو ما درج الأدب السياسيّ على تسميته «المجتمع الدوليّ»؛ تمّ شطب الجريمة من محاضر العدالة الدوليّة، وغيّبتها أكّداس من المجازر المتعاقبة. ومباشرة طفق الكيان الجديد القائم على جريمة التهجير يتحدّث عن توق إلى السلام والأمن الذي يفضّل به عليه الجيران العرب؛ بينما يمعن في ذات الوقت، بالتحرّشات العسكريّة مع الجيران ومدّ ذراعه العدوانية ومراكمة أسباب القوة العسكريّة والذراع الواصلة.

مسكنة واستغااثات: تمسكن بن غوريون، وهو ينفذ خطّة التطهير العرقي، وراح يستغيث من محرقة جديدة تدبر فوق «أرض الميعاد»! وتمسكن بيغن وراح يستنجد من ميونيخ جديدة يتآمر من خلالها مع الفلسطينيّين ضدّ إسرائيل، الرئيس كارتر - أجل الرئيس الأميركيّ في حينه الذي نزع مصر من الجبهة المناهضة للاحتلال الإسرائيليّ. حينئذ، فرغ بيغن، وقد تسلم الحكم لأول مرّة أواخر عقد السبعينات، من إعداد خطة جديدة للتوسّع الاستيطانيّ بالصفّة كي يستحيل بناء دولة فلسطينيّة مجاورة.

غاية المشروع الصهيونيّ كانت مفتوحة باب موارد؛ يدرّكها كل من أراد إمعان النظر وإعمال الفكر. فقد أعلنها صراحة الفكر الاستشراقيّ، حين زيّف التاريخ الفلسطينيّ، وأقحم عليه تاريخاً مختلفاً لإسرائيل قديمة. غير أن الجانب الفلسطينيّ وكذلك العرب، لم يمارسوا ولو قدراً ضئيلاً من التفكير الاستراتيجيّ والرؤية العقلانية، بل غرفوا من زيوف الفكر الاستشراقيّ ومنحوها المشروعيّة. لم يقدّروا الخطر الوافد حقّ قدره؛ ولم ينظروا إلى الأرض قدامهم، وغدّوا السير خلف السراب، تلهّوا بالرغبات والأمانى وشطحات الخيال.

تكرّرت التراجعات والانتكاسات بين وعيد وتهديد، ثم صممت مطبق حيال إسرائيل تسفر عن هدفها الاستراتيجيّ. قام شارون بمناورة سحب الجيش والمستوطنين من غزة، كي يقف العالم إجلالاً لـ «رجل السلام»؛ وانتنى للتوّ يعلن عن مشروع لإنجاز التهويد والاستيطان في كامل الضفة، وتشييد جدار العزل، زعموا أنه للحماية، وتبيّن أنه للتوسع ونهب الأرض. مزّق حكام إسرائيل ونخبها الدنيّة والعلميّة والسياسيّة كلّ الأفعنة، وبرزوا أمام العالم: لا يوقفون الاستيطان والتهويد، ولا يقبلون شريكاً لهم في «أرض الميعاد». وشهد العام الأخير من العقد الأول من القرن الحادي والعشرين سفوراً تاماً في التحدّث عن الهدف الاستراتيجيّ لدولة إسرائيل. نزعت جلود التمثيل التنكري. أعلنت إسرائيل أنها صاحبة الديار وطالبت «الغزاة» بالرحيل! وبناء عليه ركلت كل ما يسند العدالة من قوانين واتفاقات وحقوق. انبرى ليرمان الوجه الحقيقيّ لإسرائيل وأصدق ساستها، يفصح عمّا يضمّره الآخرون. في هذه السنة أسمعت النخب الإسرائيليّة حقيقتها على رؤوس الأَشهاد؛ لم يعد أحد يتحدّث عن السلام؛ وغدت «مسيرة السلام» أحد رموز السخرية من العجز الراقد بجانبهم؛ وطويت حكاية الدولة المهذّدة من الجيران. تجاوبت معها من خلف المحيط رسائل تشدّد على الأيدي وتشهر الشراكة العضويّة في الهدف الاستراتيجيّ والقيم ومنطلقات الاستراتيجيةّ. فاشيّة إسرائيل أداة استراتيجية للهيمنة الأميركيّة. افترشت الأبارتهايد، عقيدة وممارسة، الأرض الفلسطينيّة، ومن برارها المفصولة عن القوانين الدوليّة انطلق عواء الكواسر.

ليست إسرائيل دولة لذاتها وبذاتها، ولها استراتيجية خاصّة بها؛ بل شكّلت منذ ولادتها امتداداً لاستراتيجيات أوروبية ثم أميركيّة، رعت تطوّرها وميّزتها برعاية خاصة، أعفتها من عواقب انتهاك القوانين والقرارات الدوليّة. ليس الأمر، كما يشيع أتباع الإدارات الأميركيّة دوماً، تسلّط الصهيونيّة على السياسات الأميركيّة؛ فالقوّة السياسيّة داخل الولايات المتّحدة تقرّرها الاحتكارات الماليّة والصناعيّة، وهي أقوى لدى الأوساط غير اليهوديّة؛ لكن الرأسمال ليس عنصرياً ولا طائفيّاً؛ يجد لزاماً عليه، وهو يمارس نهج قطاع الطريق الدوليّين والمافيات الدوليّة الاهتمام بالمتميّزين والمبدعين في الكار. والرأسمال اليهوديّ يشكل ثقلاً وازناً داخل الولايات المتّحدة، خاصة في التجمع الصناعي-العسكريّ. ونتيجة لهذه الشراكة العضويّة، وضمن استراتيجية القرن الأميركي والنظام الدوليّ الجديد ونهج محاربة الإرهاب أدرجت إسرائيل داخل

النظام الجديد واستراتيجية الهيمنة على بقاع العالم وأخصها منطقة الشرق الأوسط . مع تهيئة الشروط الفلسطينية والعربية - حسب توهم المفتون بقوته العسكرية - لإنجاز القفزة الأخيرة نحو الاستحواذ على "ارض الميعاد" تهباً المناخ الدولي أمير كياً وعولمياً لانطلاق حركة محافظيين جدد ومسيحية أصولية على صعيد دول "المجتمع الدولي" ، وحقنهما بالمنعشات والمقويات . وكان ريتشارد بيرل ، أحد أقطاب المسيحية الصهيونية ، أول من أدرج بند رفض انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة في برنامج انتخابي لحزب الليكود . كان ذلك برنامج تنبأه في انتخابات عام 1996 . ومن قبل بيرل عمل في فلسطين منذ بدايات الانتداب عالم الآثار الأميركي أولبرايت . كان مسيحياً أصولياً كذلك ، متحمساً لدرجة التهور للمشروع الصهيوني ، كما رسمته مكائد الاستشراق الأوروبي . اختلق آثاراً تخيلها باحثو التوراة لمملكة داوود مترامية الأطراف ، وأحى معها شريعة إبادة الجنس في سفر يشوع التوراتي؛ ثم نصح عام 1967 بعدم الانسحاب من الأراضي الفلسطينية المحتلة؛ فهي أرض محررة . عاد نسل "إسرائيل القديمة" لبعث إسرائيل الحديثة . نزع عن التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي نواميسه المكتشفة في عصر التنوير والتحضر؛ واعتبر مسيراً بوعود موهومة وبقوى خفية حسب أهداف مرسومة قبل آلاف السنين . خلف دهاليز السياسة والأطماع الكامنة ازداد الخرف الديني القومي تطرفاً وقويت شوكة الأرثوذكسية المتطرقة .

وبديلاً للمنهجية العلمية تشكل مناخ عنصري من قرارات رسمية وتصريحات عنصرية تحمل صفة الفتاوى الدينية ودعم حماسي للتوجه العنصري ، مادي وروحي ، يفد من المراكز الرأسمالية المتطورة ، حيث يتعايش التطور العلمي العاصف مع الخرافات الممؤهة بالعقائد الدينية ، حين تسند تلك الأدوات المعرفية أهدافاً سياسية لكواسر الرأسمال العالمي . انفصام أثمرته عقود من استحضار عقد الإبادة وأساطير التاريخ ، ولدت عصباً جماعياً تصحبه تهيؤات وهيمية طالعة من كهوف التاريخ السوداء . وقدمت صناعة التنقيب الأثري مادة دسمة للمعتقدات التوراتية حول العرق القومي الضارب في القدم .

بان العجز عن إقامة علاقة موضوعية مع الواقع؛ ويصاب بالعصاب من ينقطع عن واقعه ، ويبنى أحكامه على آماله ومخاوفه وخيالاته الوهمية ، وليس على الحقائق الموضوعية الواضحة . هذه العلاقة الخائفة مع الواقع تجعله يرفض بعقله الباطني كل حقيقة تأتي على خلاف مخاوفه وآماله فيخنفها . امتطى الشعب الألماني خرافة التفوق العرقي للشعب الآري وحقه الطبيعي في الاستيلاء على أوروبا ، فاندفع عواء الكواسر خلف خرافات هتلر وكبد البشرية حرباً أودت بحيوات خمسين مليوناً من البشر ، ودمرت ثروات مادية نفيسة . وركب شعب إسرائيل موجة العصاب فانتخب شارون رئيساً للحكومة . اختار الإسرائيليون أسوأ رموز الحرب وأفظعها . العصاب السياسي في إسرائيل وجد الحل في سجل أصحاب أسوأ سجل في الصراع العربي - الإسرائيلي ، شارون وتنتياهو وباراك ، ثم ليرمان يعوي بمزامير الاقتلاع والتهجير .

تمزق قناع الرباء عن إسرائيل وأشباعها ومناصريها؛ وتمزق في الوقت ذاته القناع عن خرافات التوراة، وأثبت الآثاريون من ذوي الضمائر الحية والصدق العلمي أن حكايات التوراة مجرد أخيلة راودت رسل الاستعمار الأوروبي من مستشرقين ولاهوتيين ومؤرخين تداعت عبر الأجيال مشحونة بعقب الخرافة. لم تخرج الأرض الهيكل المزعوم من باطنها؛ وخابت الآمال في العثور على بقايا أو آثار تدل على وجود مملكة الملك العظيم في إسرائيل القديمة. لم يُكتشف أي شاهد على بناء عظيم؛ ولم يكن هناك أسوار ولا قصور فخمة تبرر قرار توحيد القدس في نهايات القرن العشرين. انبرى عالم الآثار الجريء، توماس تومسون، يفسد الزفة على المحتفين بـ "إعادة إحياء التوراة"، وعارض التوراتيين التقليديين. أكد أولاً أن ادعاءات المشروع الصهيونيّ مركبة من زيوف استشراقية صيغت طبقاً لبرنامج الغزو الكولنالي؛ وأثبت ثانياً في كتابه "التاريخ المبكر لشعب إسرائيل من المصادر الأركيولوجية المدونة"، أن "مجموع التاريخ الغربي لإسرائيل والإسرائيليين يستند إلى قصص من العهد القديم تستند إلى الخيال". كانت مقاومة المشروع الصهيونيّ منكبّة على وجهها فلم تفتن للمدد العظيم. لم توظفه في النشاط الثقافي المقاوم.

أما المشروع الاستيطاني فمضى يسابق الزمن، يفرض الوقائع، سيّما والوعي الاجتماعي لا يتفاعل مع كشوفات العلم وحوارات العلماء. أطلقت الكواسر الفولاذية تقوّض المباني وتدمر المزارع وتحفر الأساسات الجديدة وتبني المستوطنات وتشد الجدار يمرق من بين غرف البيت الواحد، ويفصل الأراضي الزراعية عن مزارعيها. وعلى إيقاع الكواسر الفولاذية نشطت الكواسر البشرية تهاجم العزل في أماكن السكن تفترس الحريات الليبرالية والأكاديمية. برز انقسام لم يعد يثير الريب بين إدخال العلم قوة مباشرة في الإنتاج ومصادر القوة وأدوات الاستعمال اليومي، وبين التعلل بالخرافة والهلوسات اللاهوتية في تفسير التاريخ وسياسات الحكم. دخلت العنصرية الحرم الجامعي في إسرائيل واستوطنته، لتتحسر بحضورها الحريات الأكاديمية والحريات الليبرالية الشكلية. خرجت العلوم الإنسانية عن قيم التحضر البشري وتمردت باستهتار على القوانين الدولية الإنسانية. خلعت جلد الكبش عن جلد ذئب سائب في بريّة، وبات عواء التوحش يملأ الفضاءات.



## عواء الكواسر

كان من الأجدى ، فيما يبدو لي ، بناء وطن يهودي على أرض غير مشحونة تاريخياً . لكنني أعرف أنّ فكرة عقلانية من هذا القبيل لا يمكن أن تستدرّ حماسة الجموع ولا معونة الأثرياء . وأقرّ أيضاً ، وبكلّ أسف ، أنّ تعصّب مواطنينا غير الواقعي يتحمّل نصيبه من المسؤولية في إثارة الارتياب لدى العرب . لا يمكن لي أن أبدي أيّ تعاطف ممكن مع تدين مؤول بطريقة خاطئة .

### فرويد عالم النفس

إن كسب محبة الصهاينة على المدى القصير أقل أهمية بكثير من فقدان احترام العالم على المدى البعيد . على الفلسطينيين أن يختاروا أصدقاءهم بعناية وحرص : فلا يمكن أن يكونوا ضعاف القلوب ولا يدعون أنهم صهاينة وفي نفس الوقت دعاة سلام وعدالة وحقوق الإنسان في فلسطين .

### إعلان بابه

تشير ممارسة الضغوط على غولدستون كي يتخلى عن التقرير الذي سمي باسمه إلى كذب ادعائهم وأنصارهم بالديمقراطية . الصهيونية ذات إيديولوجيا شمولية لا تقبل حتى مجرد انتقاد ممارسات إسرائيل مهما أوغلت في العنف غير المبرر ، ومهما تناقضت مع حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني والاتفاقات الدولية . ويشير التراجع القسري لرئيس لجنة التحقيق في جرائم حرب غزة إلى أن الصهاينة وحلفاءهم سوف يطرقون كل الدروب لإلغاء التقرير ، مثلما فعلوا مع قرار الجمعية العمومية بمساواة الصهيونية والعنصرية مع مواصلة إسرائيل نهج العنصرية ونظام الأبارتهايد . يحسّ الإسرائيليون تضيق الحصار السياسي ، لكنهم لا يملكون بديلاً آخر عن نهج الأبارتهايد . وقد أصاب معلق يديعوت أحررونوت عندما قال إن "العالم يريد إسرائيل مغيرة" .

ورد في مقالة المفكر زئيف شترنهيل حول اكتساب إسرائيل ، بحق ، مكانتها كـ "مفارقة تاريخية" ، أن إسرائيل الفاشية في العالم الغربي اليوم تذكر الأوربيين بالمرحلة المخجلة من تاريخهم حينما كانوا مستعمرين وعنصريين وعديمي القيم الإنسانية الحقة . وهو يرى أنه في وضع كهذا يصعب جدا على الأوروبي أن يتعاطف مع إسرائيل أو يتفهم دوافعها .

ولاحظ البروفيسور دانييل بلاتمان ، الباحث في المحرقة ورئيس مؤسسة اليهودية المعاصرة بالجامعة العبرية في القدس ، اتجاها نحو نظام أبارتهايد في إسرائيل ، وخلص إلى القول ”لا يمكن وقف مسيرة الأبارتهايد طالما الاحتلال قائم“ .

### العنف يولد العنف

اختطت إسرائيل غير مضطرة الحرب لإنجاز الدولة النقية الموسعة . لم تكن مهددة ولا شعرت بخطر اختلال توازن القوى عندما اعتمدت أسلوب القوة الهمجية في التدمير والتهجير مباشرة بعد صدور قرار التقسيم . انتهكت قوانين الحرب والهدنة وتحذت قرار التقسيم الذي منحها شرعية الوجود ، وتجاوزت القانون الدولي والقرارات والاتفاقات الدولية ، ثم طمست كل ذلك وأعلنت براءتها من الدم الفلسطيني . لقد خضع قيام إسرائيل ونهجها المتبع تجاه الشعب الفلسطيني ودول الجوار لاعتبارات السياسة ومناوراتها القائمة على حق القوة بعيدا عن قوة الحق .

أولا: قامت إسرائيل بناء على قرار سياسي لم تستشر به صيغة محكمة العدل الدولية . وأشار الخبير الفلسطيني في القانون الدولي ، الدكتور أنيس مصطفى القاسم إلى تحفظات سجلها القاضي المصري في محكمة العدل الدولية ، وزير خارجية مصر الثورة ، نبيل العربي بعد ذلك ، ثم أمين عام الجامعة العربية (أنظر تحية احترام للقاضي وزير خارجية مصر الثورة/القدس العربي ، 6.4.2011) أشار فيها إلى تجاوزات على العدالة الدولية جرت أثناء النظر في القضية الفلسطينية قبيل صدور قرار التقسيم . والمشكلة ، كما طرحها الدكتور القاسم وشخصها القاضي نبيل العربي ، و كان قاضيا لدى محكمة العدل الدولية أثناء النظر في موضوع الجدار ، هي أن «الالتزام بالشرعية قد انحرف تطبيقه ليصبح وسيلة للمفاوضات ، لا غاية يجب أن تحترم وتنفذ» ، فكانت النتائج الكارثية التي نشكو منها .

أورد الدكتور أنيس القاسم في مقالته تحفظات القاضي نبيل العربي المسجلة حين صدور فتوى المحكمة الدولية مؤكدا في نفس الوقت التزامه التام بنود القرار . أما التحفظات فكانت: أولا أن القضية الفلسطينية منذ بدايتها لم تُراعَ فيها الجوانب القانونية ، ولم يتم أي جهاز من أجهزة الأمم المتحدة يطلب رأي من محكمة العدل الدولية لتوضيح الجوانب القانونية المعقدة الداخلة في اختصاص أجهزة الأمم المتحدة المختلفة قبل اتخاذ قرارات تتعلق بالقضية . وثانيا ، أنه اتخذت بالفعل قرارات ترتبت عليها نتائج بعيدة المدى لأسباب سياسية ، من دون أي اعتبار لسلامتها من الناحية القانونية . وثالثا أنه حتى عندما كانت تتخذ القرارات ، فإن إرادة متابعة تنفيذها «سرعان ما كانت تذهب أدراج الرياح» .

ثانيا: وفي كتابه «التطهير العرقي في فلسطين» ، تناول الدكتور إيلان بايه جملة تجاوزات من جانب الجمعية العامة للأمم المتحدة ، أهمها تخلي المنظمة الدولية عن مسؤولياتها للمناورات

السياسية من قبل الدول الكبرى. «ولولا الضغط الفعّال جدا، الذي مارسه اللوبي الصهيوني على الرئيس هاري ترومان، لكان مجرى تاريخ فلسطين اتخذ وجهة أخرى. وبدلاً من ذلك تعلمت قطاعات من الجالية اليهودية الأميركية درساً مهماً فيما يتعلق بقدرتها على التأثير في السياسة الأميركية تجاه فلسطين (. . .). تجاوزُ خبراء الخارجية المختصين بالعالم العربي، وأصبحت السياسة الأميركية الشرق أوسطية في يد الكونغرس والبيت الأبيض، حيث للصهيونيين النفوذ الأكبر [بأيه:235]. كما تضمن قرار التقسيم نصاً «تتعهد بموجبه الأمم المتحدة بأن تمنح أية محاولة لأي من الطرفين لمصادرة أراضي تعود ملكيتها إلى مواطني الدولة الأخرى، أو قومية أخرى، سواء كانت الأرض مزروعة أو غير مزروعة» [بأيه:138]. ونرى أن الأمم المتحدة قد أخلت بتعهداتها، وأطلقت يد إسرائيل في أراضي الفلسطينيين.

وبموجب قرار التقسيم أيضاً، كان ينبغي للأمم المتحدة أن «تكون حاضرة على الأرض لتشرف على تنفيذ خطتها للسلام، أي جعل فلسطين بأكملها بلداً مستقلاً يشتمل على دولتين متميزتين تجمعهما وحدة اقتصادية.» ويمضي إلى القول «نجحت الأمم المتحدة في منع قوات الهاغاناه من التقدم لاحتلال هضبة الجولان، وتدمير القنيطرة. وكان قد صدر أمر الجنرال يغال يادين بذلك؛ ونفذ لاحقاً في عام 1967 [بأيه:204]. غير أن الأمم المتحدة استنكفت عن التدخل حيال احتلال إسرائيل الأراضي المخصصة للدولة الفلسطينية.» «طرده ربع مليون عربي ما بين كانون ثاني وأيار 1948، وما بين 30 آذار و15 مايو احتلت قوات الهاغاناه 200 قرية وطرده سكانها [بأيه:116].

واتبعت الهاغاناه نموذجاً لعمليات الطرد طوال الحرب. «وستظل محفورة عميقاً في الذاكرة الجماعية للفلسطينيين بعد النكبة، ملازمة لهم حتى اليوم. الشبان من سن العاشرة حتى الثلاثين كانوا ينتحون جانباً ويرسلون إلى معسكرات اعتقال (أو يعدمون في الحال). وهكذا تم فصل أربعين شخصاً من غوبير أبو شوشة عن عائلاتهم ليمضوا ثمانية عشر شهراً في العذاب، سجناء معتقلات. وكان مراقبو الأمم المتحدة كثيراً ما يزورون غوبير أبو شوشة ليتحرروا بأم أعينهم كيف كان يجري تطبيق قرار التقسيم. وكانوا شهوداً على عملية الطرد. وكان ممثلو وسائل الإعلام الغربية، بمن فيهم مراسل نيويورك تايمز، ما زالوا يرسلون قصصاً عن قرى منفردة. . . . [بأيه:121]. وفي قرى عديدة كان يتم فرز بعض الشبان بناء على سجلات عن القرى تم تدوينها في عقد الثلاثينات، وينفذ فيهم الإعدام رمياً بالرصاص. ونقل بأيه في كتابه الكثير من تلك الحالات.

وخلال الهدنة الأولى، التي بدأت في 8 حزيران 1948، قام الجيش الإسرائيلي بعمليات تدمير لعدد من القرى وطرده سكانها، منها المزار في الجنوب وفتحة قرب بتاح تكفا، وبيار عدس ومسكة وهوشة والسمرية والمنشية بالقرب من عكا. ودمرت قرى دالية الروحاء والبطمات وصبارين في يوم واحد [بأيه:177]. أتت الهدنة الثانية في 18 تموز، وكانت عمليات التطهير

على أشدها؛ احتلت قرى شمالي حيفا وجنوبها، وتسارعت عمليات التطهير، كما جرى في قرى قولة وخربة الشيخ مسر. وأضيفت اللد والرملة و68 قرية أخرى إلى القرى الـ 290 التي طهرها ودمروها [بايه:202].

ويمضي المؤرخ الشجاع في تعقب مظاهر القصور بحق الشعب الفلسطيني من أطراف عدة. من المتعذر، كما قال، "تفسير لماذا لم تبحث الأمم المتحدة قط في مسألة الوضع القانوني لإسرائيل في المناطق المخصصة للدولة العربية عندما أظهر المجتمع الدولي لفترة وجيزة اهتماما بمصير فلسطين بعد الانتداب ومصير سكانها الأصليين. وإلى أن قبلت إسرائيل عضوا بالأمم المتحدة عام 1949 تراوح وصف هذه المناطق بين "مدارة" و"محتلة". وفي أيار 1949 اختفت الفوارق جميعها، مع القرى والحقول والبيوت، وتلاشت كلها في دولة إسرائيل اليهودية" [بايه:203].

وأثناء احتلال اللد والرملة جرت الأهوال. عدد من الصحفيين راقبوا مشهد الجموع المتجهة شرقا. كيث ويلر من صحيفة شيكاغو صن تايمز شاهد ونقل "قوات الهاغاناه عمليا كل شيء في طريقها أدركه الموت. وتقع على جانبي الطريق جثث مثقوبة بالرصاص. وكتب كينيث بيلبي من صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون أنه شاهد جثث نساء ورجال وحتى جثث أطفال متناثرة هنا وهناك، في إثر هجوم متألق لا رحمة فيه. وقد ألف بيلبي كتابا عن هذه الأحداث عنوانه 'نجمة جديدة في الشرق الأدنى، نشر بعد عامين' [بايه:196]. أهملت أعداد القتلى والجرحى والأسرى والمشردين. كانت تقارير منحازة للأسف. صحيفة الإكونوميست كتبت: "اللاجئون العرب جرّودوا بشكل منظم من جميع أملاكهم قبل أن يدفخوا إلى الرحيل. واضطروا للتخلي عن كل ما في بيوتهم ودكاكينهم وملابسهم [بايه:197]. قدر راين عدد المشردين بخمسين ألفا [بايه:197]، وفيما بعد أثناء تطهير الجليل "نحت بصير مراقبي الأمم المتحدة الذين كانت دورياتهم الجوية تحوم في سماء الجليل، بدأت المرحلة النهائية من عملية التطهير العرقي في تشرين أول / أكتوبر 1948، واستمرت حتى صيف 1949. لم يكن بقدره أي امرئ أن لا يرى جموع الرجال والنساء والأطفال، وهم يتدقون يومياً نحو الشمال. وكانت النساء والأطفال المرحقون العنصر الطاغى في هذه القوافل البشرية، إذ غاب الشبان بالقتل أو الاعتقال. قلوبهم تحجرت؛ وإلا كيف نفسر القبول الصامت بمثل هذا الترحيل الجماعي القسري، الذي كان يجري تحت سمعهم وبصرهم... وظلت الأمم المتحدة تتبنى بلا إبهام لغة أبا إييان، مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة، الذي كان يتحدث عن اللاجئين كأنهم 'مشكلة إنسانية' لا يمكن اعتبار أحد مسئولا عنها أو محاسبته عليها [بايه:218].

تتبع بايه مخالفات بند أساس من القرار 181 "تتعهد بموجبه الأمم المتحدة بأن تمنع أية محاولة لأي من الطرفين لمصادرة أراضي تعود ملكيتها إلى مواطني الدولة الأخرى، أو قومية أخرى، سواء كانت الأرض مزروعة أو غير مزروعة" [138]. وسجل المؤرخ على وكالات الأمم

المتّحدة تخليها عن تعهداتها، إذ أطلقت يد إسرائيل في أراضي الفلسطينيين، بدل أن "تكون حاضرة على الأرض لتشرّف على تنفيذ خطتها للسلام، أي جعل فلسطين بأكملها بلداً مستقلاً يشتمل على دولتين متميزتين تجمعهما وحدة اقتصادية". جرت ترجمة "الإشراف على تنفيذ خطة السلام" إلى خطة توليد حروب متعاقبة موصولة الحلقات .

تطرّق المؤرّخ الباحث إلى وقائع أملتها اعتبارات منبئة الصلة بالعدالة الدوليّة شكلت جرائم بموجب القانون الدوليّ الإنسانيّ، حرفت مجرى التاريخ الفلسطينيّ الحديث باتجاه الكوارث والنكبات . كانت عصبة التحرّر الوطنيّ في فلسطين، وقبل أن تصدر الجمعيّة العامّة قرارها 181، قد انتقدت دعاية القيادة القوميّة الفلسطينيّة حول استحالة التعايش مع اليهود لأنّ ما يترتّب منطقيّاً على ذلك هو تقسيم فلسطين؛ ورفعت بالمقابل شعار الدولة الديمقراطيّة ثنائيّة القوميّة . وأشار البروفيسور بايه إلى طلب "عدد من القادة الفلسطينيين آنذاك بعرض الحل على محكمة العدل الدوليّة التي أسست عام 1946 لاختبار شرعيته، لكن ذلك لم يحدث" [44].

إذن حان الوقت لفتح جبهة القانون الدوليّ وإعادة الاعتبار له بعد مائة طويلة في فضاء المناورات السياسيّة العتيبة والعقيمة .

غرف بايه من الأراشيف وقائع تمرّد بن غوريون على قرار التقسيم تحت سمع ممثلي الأمم المتّحدة وبصرهم . "وفي الهيئة الخاصة التي كان (بن غوريون) يستشيرها في الشئون الأمنية (لجنة الدفاع)، لم يكن يعبر قرار التقسيم أي أهمية" [47]. دخل الباحث في عقل القيادة الصهيونيّة وأمسك باليّة تفكيرها استناداً لمجمل أهدافها الاستراتيجية . ما لم يغب عن أذهان القيادة الصهيونيّة هو "أن الميزان الديمغرافي المتكافئ تقريباً داخل الدولة المخصّصة لليهود كان من شأنه لو ترجمت الخريطة على أرض الواقع أن يشكل كابوساً سياسياً للقيادة الصهيونيّة، وأن يحول دون تحقيق الصهيونيّة أهدافها الرئيسة . . . وكان بن غوريون هو من قاد زملاءه إلى قبول قرار التقسيم، وفي نفس الوقت إلى تجاهله" [45]. هدية مجانية تلقفها الكيد الصهيونيّ من رفض العرب لقرار التقسيم دون امتلاك قوّة كافية تكبح دوران الأحداث مع الرياح الغالبة؛ بل يمكن القول إن قرار الأمم المتّحدة، وبوحي التأمّر، انطوى على ظلم فادح للطرف الفلسطينيّ وتحيّز لطرف لم يملك سوى ستة بالمائة من أرض فلسطين يمنحه أكثر من نصف أراضي البلاد، فاستدرج الطرف الفلسطينيّ للوقوع في مطبّ رفض القرار . تعسف لا يمكن تبرئة الأمم المتّحدة من الشطط فيه لهدف أنجزته التداعيات اللاحقة . انطوت الإيديولوجيّة الصهيونيّة على أفكار مضمرة للتعامل مع العرب الفلسطينيين، وتداول قادة الحركة في مراحل مختلفة تصوّرات لطرود العرب من فلسطين، وكانت "النهاية الوشيكة للانتداب البريطانيّ والرفض العربيّ لقرار التقسيم والإدراك الحاد لبس غوريون لما يحتاج إليه من مساحة فلسطين كي تكون الدولة اليهوديّة قابلة للحياة، كلّ ذلك ساعد في ترجمة إيديولوجيات الماضي والسيناريوهات الضبابيّة إلى خطة رئيسية محددة" [51]. ليس بمقدور إسرائيل التستر على

حقيقة التخطيط المسبق للتهجير ، والدلائل عديدة يستحيل تفنيدها ، وأوضحها بيانا الشروع في ثلاثينات القرن الماضي في إعداد ما عرف بملفات القرى . فقد عهد إلى الصندوق القومي اليهودي مهمة إعداد سجل ديموغرافي حوى معلومات مفصلة ودقيقة عن قرى فلسطين مع دراسات اجتماعية لطبيعة كل قرية . . [26] .

وبزاهة الباحث الموضوعي عن الحقيقة أكد بابه أنه كان «أشد جوانب القرار 181 لا أخلاقية يتمثل في كونه لم يتضمن آلية لحماية الفلسطينيين» [44] .

ووثائق أخرى كشف عنها المؤرخ الجسور ، إيلان بابه ، تطعن في مواقف المنظمة الدولية ، وتدينها بـ «جريمة التخلي بعد 15 أيار عن الشعب الذي قرّرت تقسيم أرضه وسلّمت أرواحه وأرزاقه إلى اليهود ، الذين كانوا منذ القرن التاسع عشر يريدون اقتلعه والحلول مكانه في البلد الذي اعتقدوا أنه ملك لهم» . أجل تخلّت الأمم المتحدة ومبعوثوها إلى المنطقة عن مهمّاتها وتركت لتعالب المناورات الصهيونية وأنصارها حراسة قنّ الدجاج .

وتواطأت دولة الانتداب أيضا . استخدمت حقّها القانوني في منع إسرائيل ، من احتلال ضاحية الشيخ جراح بالقدس وتدميرها ثم قصّرت حيال المواقع الأخرى وصمّمت عن أعمال تطهير عرقيّ جرت تحت سمع وبصر جنودها وموظفيها . . كما أعاقّت جهود الأمم المتحدة للتدخل بطريقة كان من الممكن أن تؤدّي إلى إنقاذ كثيرين من الفلسطينيين . من اللافت جدا أن البريطانيين «أعلنوا بعد أن تمّ تبنيّ الخطة دالت (التدمير والتطهير) تخلّهم عن مسئولية الأمن وحفظ النظام العام في المناطق التي كانت قوّاتهم لا تزال مرابطة فيها» [137] . وفي 6 أيار /مايو 1948 ، ولم تزل القوات بعد في المنطقة ، فشلت قوات الهاغاناه في قهر مدينة عكا . «جرى تلوّث مصدر مياهها المكشوف والواقع على بعد عشرة كيلومترات عن المدينة بجراثيم التيفويد . وقد رفع مبعوثو الصليب الأحمر الدوليّ المحليّون تقريرا إلى مركزهم الرئيسيّ؛ ولم يتركوا أدنى شكّ فيمن يشتبهون: الهاغاناه» [111] .

ثالثا: واقرّفت قوات الانتداب البريطانيّ خطايا سهلت خطوات التطهير العرقي ، و كان من الواجب الحيولة دون وقوعها . مثلاً منعت القوات البريطانية إخلاء منطقة الشيخ جراح في القدس وتدميرها؛ ولو اضطلعت بمسئوليتها إزاء تهجير سكان حيفا لمنعت حدوث الكارثة . «كان لديها السلطة القانونيّة ، ويمكن للمرء أن يضيف الأخلاقية لفرض القانون العام والنظام فيها . . لكن سلوك الجنود (البريطانيين) ، كما اعترف بذلك كثير من السياسة البريطانيين في وقت لاحق ، شكل واحداً من أكثر الفصول مدعاة إلى العار في تاريخ الإمبراطورية البريطانية» [بايه: 105] .

رابعا: وتواصل العنف . وعندما تكون القابلة عنفا فكذلك تكون الحاضنة وحليب الرضاعة . بات تجاوز القانون منهجاً سياسياً لا محيد عنه . إن التغاضي الإجماعيّ عن جرائم الحرب الإسرائيلية

تحول إلى تقليد دولي، أعفيت إسرائيل بموجبه من المساءلة عن جرائمها وتجاوزاتها. لم تكن القوى المنتفذة تصمّف كجمعية خيرية؛ إنما رأت للدولة المقحمة على الشرق الأوسط وظيفة استراتيجية. لا يراد لمناكفات إسرائيل واستفزازاتها المتواترة كلما اقتضت المصالح الغربية توتير الأجواء أن تنفضح؛ كما لا يراد فضح أسرار تهرب إسرائيل من التسوية السلمية للمشاكل العالقة، ولا يراد تعرية حقيقة تشبّت حكام إسرائيل بلعب دور مقاول صراعات لصالح مخططات اليمين الأميركي ومن خلفه الاحتكارات عابرة القارات المتطلّعة لنهب ثروات المنطقة، ولتحقيق هيمنتها الكونية.

ثابتت إسرائيل على القيام بواجب قطع الطريق بوجه إحداث تغيير جذري في المنطقة، لضمان أمن احتلالها واستجابة لدواعي المصالح الأميركية! خطط لأن تمتلك إسرائيل قوة عسكرية تتفوّق على الدول العربية مجتمعة. وتزداد موازنتها العسكرية كل عام؛ كما أن نفقات التسلّح الأميركيّة تعادل 41% من نفقات التسلّح في العالم كله. وفي البلدين يتكوّن بشكل متزايد على المسوغات اللاهوتية، ويتعاضد دور اليمين الديني في الحياة العامة والجهاز التنفيذي والقضائي. في إسرائيل تستشري الفاشية الوالغة في حقوق الناس الأولية، سواء داخل دولتها أو على الأراضي المحتلة. توخّش اليمين الإسرائيلي الحاكم مظهر لتوخّش الرأسمالية، وضرورة استراتيجية لمساعي الهيمنة الأميركية، هذا التوخّش المثابر على الحروب وتفريخ الصراعات العنيفة في أنحاء العالم ونهب جهود العمال و ثروات الشعوب.

يمكن ببساطة مقارنة الاستيطان اليهودي في الضفة باستيطان البيض في المناطق الغربية في الولايات المتحدة. كانت حكومة الولايات المتحدة تقدّم للمستوطن الأبيض الدعم المشجع، بينما أبقى السكان الأصليين محاصرين في معازل، في ظروف حياة صعبة، تقدفهم بالأمراض الفتاكة تارة وتنظّم مجازر جماعية على فترات. وفي أنحاء الضفة يحصل المستوطنون على بيوت مدعومة بأموال الحكومة تخدمها بنى تحتية ومياه وكهرباء ومغارة من الضرائب. معظم المستوطنين بالضفة يحملون جوازات سفر أميركية. ولو ألزمتهم حكومة الولايات المتحدة بالاختيار بين الضفة أو فقدان جواز السفر فإنهم سوف ينتقلون بسرعة إلى نيويورك. ولكن الحكومة الأميركية تظهر عملياً تأييدها لمواصلة الاستيطان. ربما تظهر ضيقها من ردود الفعل السلبية على موقفها، غير أنّ مصلحة التجمّع الصناعي - العسكري تقتضي الحفاظ على بؤر التوتر ملتزمة باستمرار.

ومن أوجه التماثل أيضاً بين إسرائيل وأميركا، حرمان السكان الأصليين من الحقوق السياسية التي تتمتع بها المستوطنون الأوروبيون حال إبرارهم على اليابسة. تعرّض السكان الأصليون في معازلهم لمختلف وسائل الإبادة؛ ومن تبقى منهم على قيد الحياة منح الحقوق السياسية عام 1924.

## العسكرة الشاملة

وبالنتيجة تمت عسكرة الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة في إسرائيل . جيش إسرائيل هو الأداة الرئيسيّة للاندماج القومي والانسجام الاجتماعيّ ، إنه «سجادة الهوية القوميّة»؛ فلكي يتمّ الاحتفاظ بالوضع المركزيّ للجيش في المجتمع ، وكذلك حشد الجمهور وحرف انتباهه عن الصراعات الداخلية ، فقد شحن قادة إسرائيل العقل الجماعيّ بـ «ذهنية الحصار» (المسادا) ، ونفخوا في الروح العسكريّة ، مفضلين الحروب على السلام . ووظف القادة العسكريّون الأسلوب الدمويّ للغارات العسكريّة الانتقامية ، وغدّوا روح الانضباط العسكريّ ومسرح الحرب وتدير الاغتيالات المستهدفة لتجريب نماذج الأسلحة الجديدة . اتجه صنّاع القرار الإسرائيليّ نحو الاعتماد الكلي والمنهجي على نزعة القوة .

«فقط شابّ واحد من اثنين يخدم في الجيش ، ورغم ذلك رغم التراجع الخفيّ ، ما زال الجيش يشكّل العمود الفقريّ في حياة المواطن الإسرائيليّ وهويته . ولا يزال الطيارون يعتبرون الأفضل من الجميع . ضباط كبار سابقون يحتلّون مواقع متقدّمة في الإدارة العامّة والقيادة البلديّة ، وأكثر من ربع أعضاء الكنيست من كتلة حزب العمل البرلمانيّة هم جنرالات أو كولونيلات سابقون . . . ما زالت الخدمة في الجيش تفتح أبوابا . وحدات نخويّة تشكل نقطة انطلاق نحو رئاسة هيئة الأركان العامة ، ومن هناك إلى السياسة على مستوياتها كافّة ، حتى رئاسة الحكومة . ويتمّ التعبير عن كون الجيش عمود الهوية المركزيّ أيضا من خلال الانتقال غير المحتمل والأوتوماتيكيّ تقريبا لرؤساء هيئة الأركان وضباط من رتبة لواء سابقين نحو القيادة السياسيّة لإسرائيل» [بورغ: 94] .

كيف ضمنت إسرائيل ولاء الجمهور لنهجها المغامر والعدواني؟ أجاب على السؤال الدكتور فينكلستين ، الذي فقد عمله الأكاديميّ بسبب مواقفه المنددّة بالاحتلال ، في مقال تحليلي شامل نشره على موقع كاوتر بانث . في هذا المقال بعنوان «آراء معدّة سلفا حول إسرائيل وفلسطين» ، يناقش مقالة تقلب رأسا على عقب علاقة الصراع على أرض فلسطين ، كتبها جيفري غولديريغ ، أحد البارزين في اللوبي الإسرائيليّ بالولايات المتّحدة (نشرت في نيويورك ماغازين ، من كبريات الميديا الأميركيّة ، بالطبع) . نقل فينكاستين عن المراسلين العسكريّين ، زئيف شيف وإيهود يعاري ، قولهما «الحقيقة أن شبكة واسعة من اللجان الشعبيّة تشكلت ابتداء من ربيع 1988 داخل كل قرية ومدينة ومخيم؛ فامتدت بذلك شبكة آليات الانتفاضة إلى أبعد زوايا المناطق المحتلّة . ردّت إسرائيل بحظر اللجان الشعبيّة واعتقلت المئات من أعضائها؛ ودمّرت بصورة منهجيّة التجارب العمليّة لنضال اللاعنّف والعصيان المدنيّ . مثال ذلك: أغلقت إسرائيل جميع مراكز الجمعيات الزراعيّة بهدف تحطيم الحملة المتنامية لتشجيع الاعتماد على الذات عن طريق تربية مزارع الدجاج والأرانب وزراعة الخضراوات» . وبذا أجبر المناضلون ضد الاحتلال على اللجوء إلى خيار العنف المسلح ، حيث تستحوذ إسرائيل على تفوق كاسح ، وحيث يبرز الجيش درع الأمن .



واشتمل عدد المعتقلين الإداريين في معتقل كيتزيوت، قادة فلسطينيين يدعمون علنا مباحثات السلام مع إسرائيل وإجراء حوار ينشط التفاهم الفلسطيني-الإسرائيلي (منقول عن بيتسيلم)؛ بينما مضت المحاكم العسكرية تفرض عقوبات سجن طويلة الأمد على كل من يعبر عن رأي سياسي في الأراضي المحتلة، بما في ذلك الأشكال غير العنيفة للنشاط السياسي (عن أمنستي).

ومضى فنكيلستين يحلل آليات التأثير النفسي على الأفراد والمجموعات داخل إسرائيل: «حسب تقديرات المؤرخ العسكري مارتين فان كريفيلد، احتل الجيش موقعاً فريداً داخل المجتمع الإسرائيلي. ولا يعادل هذه المكانة سوى مكانة الجيش الألماني خلال الحقبة 1871-1945. وضع مؤسسو دولة إسرائيل هدفاً لهم «خلق عرق من المستوطنين المحاربين». وفي الدولة المقامة فإن «أعظم مآثرة تعزى لشخص أنه كان 'مقاتلاً'». وأسمى ثناء يسبغ على شيء القول إنه (كمو ميفستا تسفاي)، أي «مثل عملية عسكرية». وحدثت إسرائيل بعد حرب 1967 «مختبراً عسكرياً ضخماً». أورد الباحث مثالا واحداً يوضح سطوة الجيش داخل إسرائيل: جنديان من كتيبة غولاني كانا يسيران في دورية داخل مدينة الخليل، ويستعدان لفرض منع التجول بالمدينة الساعة السادسة مساءً؛ كانت الشوارع شبه خالية من المارة؛ غير أن جندياً شاهد عربياً يحث الخطى في الزقاق؛ قعد الجندي على ركبته، صوّب بندقيته وأطلق النار فأزاح رأس الرجل عن جنته. راقب زميله المشهد بذهول: ماذا عملت؟ ثم صرخ: لم تحن السادسة بعد!» أجاب الجندي: أعرف؛ لكنني عرفت أين يعيش، ولن يصل بيته مع حلول وقت منع التجول.»

في مطلع العام 2009 صدر في إسرائيل كتاب بعنوان «بلد باللون الخاكي - الأرض والأمن في إسرائيل» من تأليف الباحثين عميرام أورن ورافي ريغف. وعرض الكتاب خارطة مفصلة لأبعاد الأمن في إسرائيل أو انتشاره جغرافياً. فعلى الرغم من شح الأرض في إسرائيل فإن ما يقارب نصف مساحة الدولة يتبع للمؤسسة الأمنية أو أنه واقع تحت تأثيرها. علق أحد المحللين العسكريين على آخر تقرير صدر عن مراقب الدولة الإسرائيلية بشأن إدارة عمل الجيش بالقول إنه يثبت أن إسرائيل هي جيش لديه دولة وليس العكس، وأن الجيش يتصرف بأموال الدولة وأملاكها العامة كما يحلو له.

وللجيش الإسرائيلي جهازه الإعلامي الذي يبتث على نطاق العالم. فالحروب لم تعد منذ زمن رصاصاً ودبابات. والبيان الدعائي لتسوية العمليات العسكرية لا يقل أهمية عن ذلك. وحيث يفوق تأثير الصورة ما تتركه ألف كلمة، فإن مقطع فيديو يساوي مليوناً. ويضعف أهمية الجهاز الإعلامي للجيش الإسرائيلي أن حروبه دوماً عدوانية، ويسعى لطرح تبريراتها. «إذا كان التصور عن الجيش الإسرائيلي في العالم هو أنه جيش محتل وعنيف فسأحاول بواسطة قواعد الإعلام الجديد أن أعرض الجيش باعتباره جسماً إنسانياً مفتوحاً». هذا ما ورد على لسان أفيثال ليفوفيتش، رئيسة شعبة الإعلام الدولي (تفال) في قسم إعلام الجيش الإسرائيلي، التي تصيف قولها: «هدفنا أن نعطي معلومات جديدة تؤثر في الرأي العام في العالم».

ويقول أحد المعلقين، "عندما تقع حادثة في المناطق (الفلسطينية) ويكون عند الجيش الإسرائيلي مادة مصورة في 'اليوتيوب' سيكون ترتيبها في المشاهدات العالمية ما بين الأول والرابع. يجري تحديث مواد الـ"تويتر" الخاص بالجيش الإسرائيلي كل بضع ساعات، ويشاهدها 15 ألف متابع، ويزداد العدد بسرعة. ويوجد للجيش الإسرائيلي أيضا "فليكر" تعرض صوراً من الميدان.

نشرت الصحافة في إسرائيل أن كتاباً يضمّ شهادات جنود إسرائيليين سابقين عن التواطؤ القائم بين الجنود والمستوطنين في الضفة الغربية المحتلة قد نشر في أواخر كانون الأول . 2010 يحتوي الكتاب على أكثر من 100 (مائة) شهادة لم يكشف عن هوية أصحابها أدلى بها جنود سابقون من بين سبعمائة شهادة جمعها الكتاب. ويحمل الكتاب عنوان (كسر الصمت)، على اسم المنظمة التي سنتشره، والتي تجمع منذ سنوات شهادات جنود إسرائيليين خدموا في الضفة الغربية وقطاع غزة. وأشارت مقدمة الكتاب، التي نشرت قبل صدور الكتاب رسمياً في 21 كانون الأول/ ديسمبر إلى أن «الكتاب يعرض الأساليب العملائية للجيش الإسرائيلي في الضفة الغربية وغزة وتأثير هذه الأساليب على الحياة اليومية لسكان المنطقتين من الفلسطينيين والمستوطنين والجنود.»

يتضمن أحد أقسام الكتاب الأربعة كيف أن الجيش يخدم مصالح المستوطنين على حساب السكان الفلسطينيين. وحقيقة الأمر أنه يسخرهم، كقوة تبدو غير عسكرية في نظر سكان المناطق المحتلة، وبالتالي غير مسئولة، لتنفيذ مهام إرهابية وتوسعية استيطانية. ويتحدث الكتاب عن مهاجمة المستوطنين للفلسطينيين من دون أي تدخل أو ملاحقة من قبل الجيش، وكذلك عن تلقي بعض الجنود أوامر من المستوطنين بشأن السياسات المتبعة مع جيرانهم الفلسطينيين. وقال جندي يحرس مستوطنة قرب الخليل إن المسئول الأمني في المستوطنة يقرر ما هو المسموح وما هو غير المسموح. إنه شيء مثير للعجب، عندما يضع مدني للجيش الحدود والقوانين. وكشف جنود قيامهم أحيانا بأعمال تعسفية ضد مدنيين بذريعة منع حصول هجمات. وقال أحد الجنود "طلبوا منا إقامة حاجز في وسط قرية، لمجرد إظهار وجودنا، لترويع السكان". وعلى حدّ تعبير محرري كتاب «لنكسر الصمت» فإنه «ليست هناك أي إمكانية متاحة أمام الجندي الفرد لتحسين الوضع، وذلك لأنه يتحوّل إلى مجرد برغي في آلة ليست إنسانية بطبيعتها».

والغريب في الأمر أن الناطق بلسان الجيش، آفي بنياهو، التقط موادّ الكتاب لكي يحوّل الدفاع إلى الهجوم الضاري على المنظمة، وناصره في هجومه الصحفيون المترمون بالسياسات الرسمية. «هذه المرة قرر (الناطق العسكري) أن يتعلّم الدرس وأن يقضي على الذباب قبل أن تصبح له أجنحة». وكانت إحدى الوسائل التي جنّدها بنياهو في هجمته على المنظمة هي ادعاؤه أنّها ليست جمعية، وإنما شركة تجارية محدودة الضمان، بالإضافة

إلى ذلك ، ادّعى أن أغلبية نشاطاتها تُمول عن طريق جهات أجنبية ، مثل وزارة الخارجية البريطانية والسفارة الهولندية في إسرائيل . كما أنّ وزارة الخارجية الإسرائيلية أخذت دوراً في «الحرب» على المنظمة .

تفجرت في إسرائيل فضيحة الهجوم على صحيفة هآرتس بسبب مقالات نشرها الصحفيّ بلاو . المقالات تضمّنت وثائق عسكرية تنطوي على مخاطر . وعت الخطر مجدّدة في الجيش الإسرائيليّ تدعى عنات كام ، خدمت في مكتب قائد المنطقة الوسطى ، واطلعت على وثائق مكنومة أذهلتها ودفعتها القلق إلى المخاطرة بحياتها وبحريّتها . سرّبت بعضها إلى الصحفيّ بلاو بجريدة هآرتس . مقالات الصحفيّ بلاو تؤكد مضمون التقرير المنسوب لغولدستون ، والذي تراجع عنه القاضي المشهور . إنّها تميّط اللثام عن انتهاك قواعد الحرب . توارى الصحفيّ عن الأنظار واثارت قصيّته ثمّ خدمت ، ولم يعرف كيف تمّت تصفية القضية (علمت من مقابلة صحفية مع إيلان بابيه أن عنات حكمت بالسجن تسع سنوات) .

كتب عكيفا الدار ، الصحفيّ في هآرتس ، يعقب على الضجة في أوج صخبها ، «في وزارات الدفاع والخارجية والجيش يجلس في هذه اللحظات مئات من الموظفين والضباط الذين لا يجروون على الاتصال بصحافي وإبلاغه بأن وزراء وقادة في الجيش يعرضون للخطر مستقبل أبنائهم . كم منهم يحتفظون لأنفسهم بالقصة الحقيقية الكامنة خلف الكذبة الكبيرة لإيهود باراك ، شاؤول موفاز وموشيه يعلون: «عرفات خطط للانتفاضة» ، وهي الكذبة التي اشتقوا منها كارثة «لا وجود لشريك» . إن القصة الحقيقية مكتوبة في وثائق مصنّفة «سرّي جداً» . والجميع سيرى عنات كام وسيرتدعون ، لأنّه ليس ثمة من يريد أن يقبع في السجن مدى الحياة بتهمة التجسس لمصلحة العدو .»

أما جيف هالبر ، رئيس جمعية مناهضة هدم البيوت الإسرائيلية ، فقد شكك فيما إذا كان المقصود استعادة الوثائق من أيدي بلاو؛ بل حمل بلاو على كشف شبكة مخبريه . أصدر الجيش لصحيفة هآرتس أمراً بإتلاف نسخ من إحدى الطبقات تضمّنت تحرّيات بلاو بعد أن أجازها المراقب العسكريّ . ولم تظهر المادة ، وقدمت عضو الكنيست حنين الزعبي استجواباً لوزير الحرب الإسرائيليّ بهدد موضوع المنع .

أُلفت مواد معدة للنشر ، وحجبت عن الرأي العام بأوامر صدرت إلى الصحيفة؛ بينما يزعم غولدستون أنه استند في تراجعه عما ورد في التقرير المسمّى باسمه إلى أن الجيش الإسرائيليّ أجرى أربعمائة تحقيق في تجاوزات الجنود ، ولم تجر حماس أي تحقيق . ليس ينسجم مع تراجع غولدستون الالتفات إلى تعقيب منظمة بيتسيلم ، بلسان الناطقة باسمها ، ساريت ميتشيل ، على التحقيقات المزعومة ، التي «فشلت في إجراء تحقيقات شفافة مستقلة ودقيقة ( . . . ) لم تتمكن من الحصول على المواد التي اعتمدت عليها تحقيقات الجيش الإسرائيليّ ، ونحن بذلك

لسنا مؤهلين للحكم على نوعية التحقيقات أو مصداقية ما تم التوصل إليه». ولم يزل قائما ويحتفظ بالمصداقية اتهام التقرير بأن إسرائيل قد اقترفت جرائم حرب وأنها استعملت أسلحة محرمة دولياً على نطاق واسع وقامت باستخدام الدروع البشرية.

و ادعى غولدستون أيضاً ثبوت عدم تعمد العسكريين إلحاق الضرر بالمدنيين. اعترف غولدستون (ويالها من شجاعة ينطوي عليها الاعتراف) بأنه أخطأ إذ استخلص أن إسرائيل تعمّدت استهداف المدنيين «كسياسة منهجية»، وقدم حادثة الضربة التي أجهزت على عائلة فلسطينية وقتل أكثر من عشرين فردا بسبب «سوء فهم رسالة استخبارية!». إن السبب المقدم لا يسقط التهمة؛ بل يسقط غولدستون في شرك التضليل والكلام السوقيّ المبتذل - حسب تعبير البروفيسور بابيه في تعليقه على ردّة غولدستون. ذلك أن أصل التهمة «اتباع سياسة توجيه هجمات اعتباطية يحتمل أن تلحق إصابات بين المدنيين»، وليس تعمد إصدار أمر عسكريّ باغتيال المدنيين. ومن الشهادات، كما نقل الصحفيّ الإسرائيليّ جوناثان كوك في مقال نشره موقع (كاونتر بانث 2011/4/4) أن إحدى الشهادات تضمّنت استعمال جنديين طفلا في التاسعة درعا بشريا، الأمر الذي أسفر عن إدانتهم والحكم عليهما بالحبس ثلاثة أشهر مع وقف التنفيذ! يضاف لهذا منشورات ورّعها الحاخامون العسكريون على الجنود - وواضح أنها ورّعت بمعرفة قيادة الجيش - وفيها يحرضون الجنود في غزّة على عدم إبداء الرأفة بالفلسطينيين وحماية أرواحهم مهما كلف الثمن.

إسرائيل لم تنتهك القوانين الدوليّة فقط، إنما كسرت قوانين إسرائيل وقرارات المحكمة العليا الإسرائيليّة كذلك، وذلك رغم أن المحكمة العليا تأخذ كمسلمات قرارات الجيش بمصادرة الأراضي والبناء الاستيطاني؛ كما تسلّم بتقاريرها السريّة والعلنيّة في حالات الاعتقال والمحاكمة. من جملة الوثائق المسرّبة التي كشفها الصحفيّ بجريدة هآرتس، محضر لقاء على مستوى رفيع اتفق خلاله على تجاهل قرارات المحكمة العليا ومواصلة تنفيذ أحكام الإعدام ضد قادة فلسطينيين في الأراضي المحتلة. وتتضمّن الوثائق المنشورة ما مفاده أن بناء مستوطنات إسرائيلية قد تم انتهاكا ليس للقانون الدوليّ إنما للقانون الإسرائيليّ. ازدراء القانون الإسرائيليّ هو ما فضحته الوثائق المسرّبة. ويتساءل أحد الصحفيين في إسرائيل: كيف نحكم على قرارات أصدرها قضاة بناء على شهادات مكتوبة من جانب أجهزة التحقيق بحجّة أنّ إفشاءها يلحق الخطر بأمن إسرائيل؟! فلا غرابة أن يجمل أبراهام بورغ العوامل السلبية في المجتمع الإسرائيليّ، والتي دفعته باتجاه التطرف اليميني. «إن مركزية الجيش في حياتنا، ومكانة اللغة في تطهير الآثام والشروع، وتغلغل الخطاب اليميني إلى لبّ النقاش العام، ولا مبالاة الأغلبية السلبية، إن ذلك كلّ هو اللاعب الأساسي الذي يبيح لجرائم التطرف العنصريّ من نطاق المختبر ونقل العدوى إلى الجميع». [بورغ: 109].

## تراجيديا غولدستون

العسكرة ولدت الفاشية واحتضنتها. مدت الفاشية أذرعها وجرحت مخالبيها من هم خارج الولاية القانونية لدولة إسرائيل. وجاءت تراجيديا غولدستون ثمرة جروح متقيحة. نشرت مقالة غولدستون في الواشنطن بوست رائحة عفنة في العالم؛ ورغم التقليل من جدواها داخل إسرائيل إلا أنها تنطوي على دلالات خطيرة، وتنبئ بتكرار جرائم الحرب. وهذا ما حذر منه كثيرون ممن علقوا على المقالة.

تحييء ردة غولدستون بعد عام ونصف العام من حملة لم تهدأ أو تتوقف من الترويع واغتيال الشخصية ضد القاضي، حملة لم يجد المؤرخ البروفيسور إيلان بايه شبيهاً لها سوى تلك التي شنت ضد السيناتور الأمريكي ولیم فولبرايت، فانهار سياسياً على أثرها بسبب محاولته الشجاعة فضح العلاقة المناقضة للقانون بين إيباك ودولة إسرائيل. كشف المؤرخ النقب في مقالة علق بها على المقالة "البازارية" فقال إن القاضي قد صرح للقناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي بأن حماس اقترفت جرائم حرب بينما إسرائيل لم تقترفها. اتضح أن مساومة طويلة جرت مع رئيس لجنة التحقيق في جرائم الحرب الإسرائيلية وصاحب التقرير المسمى باسمه؛ كان التصريح غير مقبول فاقضى الأمر بنشر المقال. إن هذا يدل على أن إسرائيل تتخطى حدود الدول؛ فتخلط بصورة تعسفية بين اليهودية والصهيونية، بممارسات إرهابية أفضت إلى صهيونية إجبارية للمجتمعات اليهودية، فارضة عصبية قسرية تذيب الفرد في جميع المجتمعات خارج إسرائيل وتجرده من إنسانيته، وتحرمه من حماية النظام السياسي الذي يستظل به. شككت صهيونية اليهود قوة قمع القاهرة تمنع الليبراليين اليهود من مواجهة إسرائيل وجرائمها. إذ يتطلب التصدي لسياسات إسرائيل قدراً كبيراً من الشجاعة ونقاء الوجدان. يعتبر بايه أن توجيه تهمة "يهودي كاره لنفسه" بكل ما يترتب عليها من مواجهات عدائية بمثابة السيف المصلت على الرقاب. يجوز انتقاد بعض ممارسات حكومة إسرائيل؛ غير أن ربط الممارسات بالأيديولوجية الصهيونية خط أحمر؛ ولهذا استماتت إسرائيل وأنصارها لشطب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بمساواة الصهيونية بالعنصرية. "أنا صهيوني" تعني الولاء المطلق لإطار ذهني لا يستوعب تقرير غولدستون، كما لا يستوعب نقاء الوجدان والتمسك بحس العدالة فيما يتعلق بإسرائيل. ولهذا ينصح البروفيسور بايه الفلسطينيين أن لا يصدقوا صهيونياً يدعي العمل من أجل السلام ويتضامن مع قضيتهم. "أما أن تكون صهيونياً أو أن تتهم إسرائيل بجرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية، أما أن تجمع الاثنين فستنهار عاجلاً وليس آجلاً؛ فلاسرائيل الحق المطلق في تجاوز القوانين والأعراف باسم الدفاع عن أمنها. غولدستون اندفع لكتابة مقالته تحدوه "الرغبة في العودة إلى حظيرة الصهيونية المريحة؛ ولن يسمح لغولدستون أن يستنكف عن تقديم كل خدمة ممكنة لإسرائيل". حقاً بانتظار غولدستون مهمات أخرى يتوجب عليه أداؤها لكي "يتطهر" من إثم الاستجابة للضمير.

## أذرع الأخطبوط

يدور النقاش في إسرائيل حول أول مستشار للأمن القومي في إسرائيل يعتمر القبعة الدينيّة، هو اللواء يعقوب عاميدور، ثم أول رئيس شاباك يعتمر القبعة وهو يورام كوهين. وكان نائب رئيس الأركان يائير نافيه، وهو يعتمر القبعة الدينيّة أيضاً، على وشك تولي المنصب الأخطر في إسرائيل. ولا يقل أهمية عن ذلك أنّ قسماً من هؤلاء تولوا مناصبهم بتحريض كبار الحاخامات أو قادة الأحزاب الدينيّة وتشجيعهم.

والقوانين الأخيرة التي شرع الكنيست بسنّها، (قانون النكبة وقانون الولاء وقانون التجمعات السكّنية)، دليل على الوجهة التي تتخذها إسرائيل، فلا هدف لهذه القوانين سوى التمييز ضد المواطن العربي في الدولة العبريّة وحرمانه بشكل متزايد من حقوقه.

ترسم حنة أردنت، الكاتبة الألمانية المناهضة للنازية والصهيونيّة في كتابها "مصادر النظام الشمولي" وجه إسرائيل عندما كتبت عن أبارتهايد جنوب إفريقيا؛ فقد تبعت سيرورة مجتمع العزل العنصري في جنوب إفريقيا، منذ أن ابتدأ الاستيطان الاستعماري للبوير الهولنديين، وفي الخاطر إسرائيل. كتبت تقول: إنّ تغذية مشاعر التفوق - وإخضاع جمهور السود - كان الطريقة الوحيدة التي استطاع بها البيض تسليك الحياة هناك. ونضيف لذلك التفوق الثقافي وتبرير الاستغلال الاقتصادي. إن تحطيم إنسانيّة السود، حيث اعتبروا مجرد حيوانات عمل مطوّرة، كان القاعدة التي نشأ عليها النظام العنصري في جنوب إفريقيا.

وتنبأ البروفيسور يشعياهو ليفوفيتش العام 1967 بأن يفسد الاحتلال المجتمع ويجعل إسرائيل «دولة مخابرات». وتنبأ أوري أفيري اواثل السبعينات، في دراسة نقدية لإحدى قصص الأطفال التي تنشرها غيولا كوهين، أن يسفر الشحن العنصري للأطفال من خلال كتبهم عن جلوس أغليّة فاشيّة عنصريّة على مقاعد الكنيست. تبددت كقطرات الندى ذات يوم قائل، خرافة «الاحتلال المنتور»، وتبيّنت استحالة حكم شعب أجنبي طوال 43 عاماً من دون ملء السجون والمعتقلات، ومن دون إعدام أناس بلا محاكمة، ومن دون ترويع حياة نساء وأطفال. و«بغية إدارة الاحتلال ينبغي تنشئة ضباط وجنود مطيعين. من النوع الذي يجلس مرتاحاً في المداولات ويعرض أفكاراً حول سبل الالتفاف على قضاة المحكمة العليا اليساريين»، وسبل إبعاد الصحفيين المعارضين وكيفية خداع رجال مراقب الدولة. ومن دون متعاونين في المؤسسة، كان يستحيل إنشاء عشرات المستوطنات القانونيّة على «أراضي الدولة»، حسب تعبير صحيفة إسرائيليّة.

إن عنصريّة إسرائيل التي يعتبر مصادرة الأرض والاستيطان حاضنتها، قد سرت طويلاً داخل المجتمع الإسرائيلي ومنحت المشروعية عبر سلسلة من التشريعات التي أقرها الكنيست مؤخراً. وليس من شأن الموجة الكاسحة من الفاشيّة المضمنة في التشريعات الجديدة إلا أن تستذكر ما جرى في ألمانيا وفي جنوب إفريقيا. جرى إقرار العزل العنصري في جنوب إفريقيا بموجب قانون

أقر عام 1951. وفي عام 1935 أعلن هتلر إقرار قانون عزل اليهود مع الإبقاء على وجود محترم لليهود في ألمانيا ضمن المجتمع الألماني. والقانون العنصري في جنوب إفريقيا جرى تطبيقه في البداية، حيث أقر استحالة تعايش العناصر مندمجة مع بعضها ومن الأفضل تفرقتها. وكذلك القوانين العنصرية في إسرائيل جرى تبريرها بأسباب عقلانية: حق المجموعات الصغيرة في الحفاظ على خصوصياتها؛ (قانون لجنة القبول)، وقوانين الاستيلاء على أراضي العرب وتحويلها لتصرف الصندوق القومي اليهودي ملكية خالصة لليهود دون غيرهم، ثم قانون حق الدولة في منع الاستعمال المعادي للأموال المتسلمة لتمويل التعليم والثقافة (قانون النكبة)، وحقوق رفض المواطنة لأشخاص أدنوا بالتجسس أو الخيانة (قانون الجنسية). لكن لا يخفى أن غاية هذه التشريعات، شأن الأحداث التاريخية السابقة، هي التأسيس التدريجي لدولة أبارتهايد في إسرائيل.

الغيافي الفلسطينية تصطبغ بهيستيريا القوة غير مؤمنة الزناد. تشرّع قوانين عرفية تتفشي فيها سطوة عرقية غير مشكومة. تشريعات تتعسف في تعريف المفاهيم ورصد التطلعات وهي مجرد نوايا. هل هو الانفراد بالقوة يبيح للمتسلط حق صياغة التهمة وتوجيه الاتهام وتحديد العقوبات وتنفيذ الأحكام، أم أن «محارق الآخرين كانت وستظل أبداً أدنى مرتبة من العذاب اليهودي»، إنها تناسل تلك الظاهرة التي رصدها أحد همام، المنظر الصهيوني البارز، أثناء جولة قام بها عام 1891 في فلسطين، وعللها في مقالة نشرها بعد عودته إلى أوروبا: «كانوا - المستوطنون - عبيداً في أقطار مناهيم؛ وفجأة وجدوا أنفسهم في وسط برية غير محدودة الحرية، توجد في قطر مثل تركيا فقط. هذا التعبير ولد لديهم ميلاً إلى الطغيان الذي ينمو حين يصبح العبد ملكاً؛ إنهم يعاملون العرب بعداء وقسوة على أراضيهم بدون حق ويضربونهم بدون مبرر، ويتباهون بذلك». [توما: 477]؟

وشهادة ثانية، قدمها أبراهام بورغ، رئيس سابق للوكالة اليهودية وللكنيست الإسرائيلي استهل بها كتابه «لنتصمر على هتلر»؛ عنوان الكتاب ذو دلالة، فهو يؤكّد حالة العصاب المتلبسة للمجتمع الإسرائيلي، حيث يواصل استيحاء نازية هتلر. إنها تعرية لمأساة الناس في إسرائيل، حيث النفسية الاجتماعية ملوثة بمستنقع الموت، كي تقذف بمياهه الآسنة والقذرة بين كل فينة وأخرى، الشعب الفلسطيني المنكود: «لقد وصلت الأمور درجة أن دراسة تم إعدادها قبل بضع سنوات بين طلاب موضوع التربية في إحدى كليات تأهيل المعلمين المرموقة في تل أبيب، كشفت عن نتيجة مذهلة؛ أكثر من تسعين بالمائة من المشاركين في الاستطلاع الذي شملته الدراسة أفادوا بأن المحرقة بالنسبة لهم هي التجربة الأهم في تاريخ الشعب اليهودي (. .) وهؤلاء هم معلومك يا إسرائيل! أضيفوا إلى ذلك عشرات ألوف الطلاب الذين يسافرون كل عام إلى 'مسيرة الحياة' (في مخيمات الإبادة النازية)، كي تدرّكوا الاندفاع المحزن إلى طقوس عبادة الموت اليهودية، وانجذابنا الذي يكاد يكون شهوانياً على حافة الخلاعة البورنوغرافية، نحو الموت وجثته» [بورغ: 43].

بالنتيجة «حول جهاز التعليم الإسرائيليّ المحرقة إلى تجربة الحياة المبسورة المركزية في جهاز تعليم أولادنا» [بورغ:46]. بهذه التعبئة المكثفة والمتواترة للفتيان في سنتي الدراسة الثانوية الأخيرتين، قبيل الالتحاق بالخدمة العسكرية، بات «الماضي المحرقى، وهذا الماضي على عكس جميع الأزمان الماضية الأخرى ليس ماضيا يتعد فحسب، وإنما هو ماض يقترب منا طوال الوقت، حاضر أكثر، موضب أكثر، مضبوط أكثر مسموع وله تمثيل أكبر بكثير. إنه ماض أصبح جزءا لا يتجزأ من الحاضر الإشكالي لدينا جميعا.» [بورغ:48]. أريد للمأساة اليهودية أن تعلق على مآسي الآخرين مهما أنزلت بهم من كوارث وجرائم، حتى لو اقترفتها إسرائيل. «وليس لنا أي فكرة وأية رغبة سوى إعطاء القوة فرصة للحدث و'دعوا الجيش ينتصر'. وفي نهاية المطاف حدث لنا ما يحدث مع كل عنيفي العالم وزعرانه: حولنا الكتابة إلى نظرية ومفهوم، ونحن لا نفهم بأنفسنا أي شيء غير لغة القوة» [بورغ 56].

لم يعد هذا كافيا، شأن المدمنين على المخدر، ينبغي زيادة الجرعة باستمرار. جاءت حصيلة دراسة بحثية نشرت أوائل إبريل 2011 أجريت على الأحداث في إسرائيل تتراوح أعمارهم بين 15 و18 عاما أن ستين بالمائة يرون القادة «الأقوياء» أهم من حكم القانون. ويعتقد سبعون بالمائة أن أمن الدولة يجب أن يقدم على قيم الديمقراطية في حال تعارضهما. علاوة على أن 46% من المستطلعة آراؤهم يرون وجوب عدم السماح للعرب بالعمل في الكنيست، وخمسين بالمائة قالوا إنهم يعارضون سكن العرب في جوارهم. استخلص المشرفون على الاستطلاع أن الاتجاه الرئيس يبرز تنامي جاذبية القيم القومية، وتساؤل جاذبية قيم الديمقراطية. وعلق على النتائج البروفيسور غفريل سولومون، المحاضر بجامعة حيفا، والحائز على جائزة التربية، أن تقرير أولويات العملية التعليمية في هذه الأيام يجب أن تعطي «للتعليم الديمقراطي، والتعليم من أجل التعاون بين اليهود والعرب. الأمر يتطلب وضع سياسة واضحة لتدريس القضايا المدنية والديمقراطية. إن تغييب هذه الموضوعات يثير الريب؛ ومن الصعب تخيل أن ذلك مجرد صدفة». غير أن القائمين على وزارة التربية يخططون لإدخال تعديلات على قانون التربية والتعليم من شأنها تعزيز القيم اليهودية والصهيونية، وتحسين منجزات التعليم ووضع المبادئ الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف، «تعميق تعليم القيم»، وفق برنامج للمدرسة الوسطى يطلق عليه «ثقافة إسرائيل وتراثها»، إلى جانب تنظيم رحلات ميدانية وصفية تهدف إلى تشجيع الالتحاق بالجندي. التعليم من أجل الصهيونية واليهودية. «تعليم يغذي التطرف القومي» حسب تعبير الدكتور سولومون. يتفهم مدراء المدارس أنه لا حاجة لبذل جهد في مجالات لا تشملها الخطة، كما ورد على لسان مدير مدرسة عليا في تل أبيب.

يجري هذا على جبهة التعليم. وهناك جبهات عدة تقتحم فيها العنصرية والفاشية معاقل الليبرالية. نشرت كاوتر باننش الإليكترونية مقالة للصحفيّ جوناثان كوك جاء فيها: "قابلت قبل بضعة أسابيع أوزي أوران، البروفيسور ابن السادسة والثمانين من جامعة التخنيون بحيفا. وهو يحمل



بطاقة هوية تصنف جنسيته "عربي". معظم سكان إسرائيل يصنفون "يهودي" أو "عربي"، والمهاجر الذي رفض الحاخامات اعتباره يهوديًا يصنف حسب الديانة أو البلد الذي قدم منه. والجنسية الوحيدة التي لن تجدها في الهويات هي "إسرائيلي". ولهذا يكافح البروفيسور أورنان وعشرات معه من خلال المحاكم ويودون تسجيلهم في الهويات "إسرائيليين". وهي قضية كبيرة من المحتم أن يخسرها أصحابها.

يفسر الصحفي الإسرائيلي الأمر فيقول: إنها تتعلق بالأبارتهايد في إسرائيل. وقد عرفته الأمم المتحدة عام 1973 بأنه "أي إجراء تشريعي موجه لحرمان مجموعة أو مجموعات عرقية من المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والتعمد في إقرار ظروف تمنع تطور تلك المجموعات". وتحتوي المادة على الحقوق التالية: حق مغادرة البلد والعودة إليه، الحق في الجنسية، الحق في حرية التنقل والسكن، الحق في التعبير الحر عن الرأي". يطبق في إسرائيل ثلاثون قانوناً تميز بين اليهود وغير اليهود، والعرب لا يتمتعون بالمواطنة التامة. وتظهر استطلاعات الرأي العام مدى تفشي العنصرية بين اليهود. والسبب واضح لتغذية النزعة العنصرية في إسرائيل؛ فإذا جرى تصنيف سكان إسرائيل بالجنسية الإسرائيلية وكان هناك قانون واحد للجنسية يترتب على ذلك نتائج درامية. وأبرز النتائج أن قانون العودة إما أن يتوقف تطبيقه على اليهود أو يطبق بالتساوي على اليهود والفلسطينيين، فيسمح لهم بدعوة أقاربهم للعودة، شأن اليهود. وهذا يعني إعادة المهجرين من ديارهم بالقوة العاشمة، الأمر الذي تكافحه إسرائيل وتقرّ القوانين بشأنه.

وهناك عواقب أخرى متوقعة من الجنسية المتكافئة للجميع: هل بمقدور المستوطنين اليهود في الضفة الاحتفاظ بالمكانة المميزة لو كان للفلسطينيين في جنين أو الخليل أقارب داخل إسرائيل يتمتعون بنفس حقوق اليهود؟ هل يواصل جيش الاحتلال امتلاك القدرة على التصرف كجيش احتلال في دولة ديمقراطية حقاً؟ وهل بمقدور المحاكم في دولة المواطنين المتساويين أن تواصل غضّ النظر عن وحشية الاحتلال؟ التمييز العنصري في إسرائيل ضرورة تستوجبها مواصلة الاحتلال وإجراءاته الاقلامية.

وبحسب الائتلاف المناهض للعنصرية في تقرير له نشر مؤخراً، فإن الكنيست الحالي هو الأكثر عنصرية منذ إنشائه، حيث زادت القوانين العنصرية التي تنتقص من حق الأقلية الفلسطينية، عن مجموع القوانين العنصرية السابقة بنسبة 70 في المائة. وهي قوانين هدفت وتهدف لتجسيم دور الفلسطينيين في القطاع المدني. في عام 2008 قدم للكنيست أحد عشر قانوناً، وفي عام 2009 إثناً عشر قانوناً، وفي العام 2010 جرى إقرار واحد وعشرين قانوناً تحتوي جميعها على بنود تمييزية عنصرية ضد المواطنين الفلسطينيين. يقف وراء التشريعات العنصرية الفجة أعضاء من اليمين المتطرف، وتتضمن الفصل بين اليهود والمواطنين الفلسطينيين، وتصل إلى حد المناداة بطرد أصحاب الأرض الأصليين من وطنهم. بل وصلت الوقاحة ببعض

أعضاء اليمين المتطرّف، للتقدم من الكنيست بقانون أسموه "قانون طرد الغزاة"، وهو خاص بمواطني النقب من البدو الذين تواجد أجدادهم على هذه الأرض منذ آلاف السنين؛ لكنه يضمّر نفس المصير لبقية المواطنين الفلسطينيين. علق المؤرّخ غاري لي أب، أستاذ التاريخ بجامعة توفنس، ويشغل منصباً في دائرة الأديان بالجامعة، في مقال مطوّل نشره على موقع كاوتر بانث بصدد «قانون الولاء» قال فيه: «من الممتع والمبهج أن نلاحظ أن عدداً من اليهود في إسرائيل هبوا يعارضون قرار مجلس الوزراء لإجبار غير اليهود من المهاجرين تأدية قسم الولاء لـ «دولة اليهود». يعارض القانون وزير الشؤون الاجتماعية إسحق هيرتزوغ (من حزب العمل واستقال من منصبه) الذي اعتبره خطوة باتجاه الفاشية. حتى بيني بيغن ودان مريدور، الوزيران الليكوديان، حدّراً من أن القرار يلحق الضرر بالعلاقات مع العرب في إسرائيل. وأعلن الكاتب سيفي راشليفسكي، الذي نظّم حركة احتجاج ضد مشروع القانون «في اللحظة التي تطلبون من الكل الموافقة على هذا الاعتقاد تصبّحون دولة فاشية»، مضيفاً «إن كل كارثة قومية تبدأ بقرار من هذه الشاكلة».

ومضى إلى القول، «بالطبع، فالولايات المتّحدة تماثل إسرائيل دولة مستوطنين من الأوروبيين البيض على حساب السكان الأصليين، تماماً مثل إسرائيل تشكلت من مستوطنات أقامها مهاجرون دأبهم إيراد كلمات العهد القديم حول «الأرض الموعودة» وإبادة الكنعانيين بأمر من الرب - وبالولايات المتّحدة يقيم 75% من المسيحيين وإسرائيل 75% من اليهود».

تشمل القوانين السابقة؛ الحكم بالسجن لمدة عام على كل من يشتكي من الظلم والتمييز، حيث أجاز هذا القانون بالقراءة الأولى، بالإضافة إلى تحريم ومعاقبة مستخدمي تعبير النكبة. وأجيز بالقراءة الأولى، ذلك القانون الذي قدّمه وزير المواصلات إسرائيل كاتس، والقاضي بمحو الأسماء والشوارع الفلسطينية واستبدالها بأسماء عبرية.

تنديداً بالقوانين الفاشية الصادرة تباعاً، كتبت صحيفة هآرتس ملاحظة كتبها الصحفيّ جدعون ليفي تحت العنوان «إخراج اليسار الإسرائيليّ خارج القانون الآن» جاء فيها: لماذا الضلال؟ ومن أجل ماذا التشريع المرهق والقانون بعد القانون؟ ما لنا ولجميع المقترحات والتعديلات بتعلات مختلفة غريبة؟ يمكن بدل كل ذلك فعل شيء بسيط وهو إعلان أن اليسار غير قانوني في دولة إسرائيل. فكل من يفكر تفكيراً يسارياً ويعمل عملاً يسارياً، ويتظاهر تظاهراً يسارياً أو يتبرّع لليسار فليمض إلى السجن والإبادة.»

وردّاً على ما يشيعه اليمين بصدد الدعاية الخارجية المضادة لإسرائيل أوردت الصحيفة أن "يوماً واحداً من عملية الرصاص المصبوب" أفسدت نتائجها أكثر من كل التقارير جميعها، وإن مسجداً واحداً تم إحراقه أساء إلى سمعتها أكثر من كل المقالات جميعها. لكن لا أحد يدعو إلى التحقيق مع هؤلاء، ولا يكاد أحد يُحاكم بسببها. . ."

وأخطر ما أقدم عليه الكنيست الحالي ، هو المصادقة على قانون يتيح للحكومة نهب أملاك اللاجئيين الفلسطينيين ، حين سمح بخصخصة واسعة النطاق لما يعرف بـ «أراضي الدولة» ، وأتاح للسندوق القومي لإسرائيل (الكيرن كيمييت) شراء أراضي اللاجئيين الفلسطينيين بموجب ما يسمى «قانون أملاك الغائبين» ومن ثم بيعها لليهود . وهذا القانون العنصري يتناقض مع كل المواثيق الدوليّة المناهضة للعنصريّة ، خصوصاً وأنه نص على أن السكن أو شراء الأرض في القرى الزراعيّة والقرى الصغيرة عموماً ، يتم بموافقة لجان قبول منبثقة من الوكالة اليهوديّة والمؤتمر الصهيونيّ العالمي ، ما يعني حرمان أهل البلاد الأصليين من السكن في مناطق واسعة من أرض وطنهم ، وهذا يكرّس الواقع القائم ، حيث 94 بالمائة من الأراضي هي أراضي دولة (مصادرة أو جرى الاستيلاء عليها بالقوة والتزوير ، وهي خاصة باللاجئيين) يجري تأجيرها لفترات طويلة (49 أو 99 عاماً ، ولليهود فقط) والباقي أراض خاصة: 3 في المائة لمواطنين فلسطينيين و3 في المئة لمهاجرين يهود .

وهناك ، حسب إحصاءات من داخل الكنيست ، ما لا يقل عن 40 قانوناً سارية المفعول ، تميّز ضد فلسطينيي العام 1948 في الجليل والمثلث والنقب . وتعتبر قوانين عنصريّة وفقاً للمعايير القانونيّة الدوليّة . وفي تمييز تام ومطلق ، تدير إسرائيل ثلاثة أنظمة حكم ، هي نظام حكم ديمقراطي لنحو 80 في المائة من السكان اليهود ، وتلك «ديمقراطيّة عرقيّة» ، ونظام حكم قائم على التمييز العنصريّ موجه ضد 20 في المائة من السكان ، هم المواطنون الفلسطينيون الذين بقوا في أرض وطنهم ، بعد نكبة تشريد شعبهم العام 1948 ، أما النظام الثالث فهو الاحتلال ، حيث يمارس الإسرائيليون في ظلّه تمييزاً عنصرياً تجاوز نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا ، ضدّ الفلسطينيين يهددهم بالتهجير العرقي .

وفي ثنايا القوانين والتشريعات الأساسية ، التي يجري السباق لإقرارها ، يمضي الكنيست بأغليبيّة نوابه من اليمين القومي والدينيّ المتطرّف ، نحو تحقيق هدف «تهويد الدولة» ، بدءاً من تجريم إحياء ذكرى النكبة ، وعبرنة اللغة ، وفرض التدريس الإلزامي للشيد الإسرائيليّ في المدارس الفلسطينيّة ، وتطبيق إطلاق أسماء عبرية بدل العربيّة على المدن والبلدات الفلسطينيّة ، وأداء قسم الولاء لإسرائيل بوصفها «دولة للشعب اليهودي» أو «دولة يهوديّة» . ومؤخراً اقترح وزير الخارجيّة العنصريّ أفيغدور ليبرمان ، إدخال تعديل على قواعد التعيين في وزارته ، وفي كل المؤسسات والوزارات ، من شأنه منع الغالبية العظمى من فلسطينيي الجليل والمثلث والنقب من الانخراط في السلك الدبلوماسي ، أو في الوظائف الحكوميّة ، كونهم لا يؤدّون الخدمة العسكريّة . وهو ما أقرّته الحكومة يوم الحادي عشر من تموز 2010 .

وفي التاسع والعشرين من آذار 2011 سنّ «الكنيست» قانوناً يحظر على أيّ جهة (عامّة أو خاصّة) بيع أراض أو تأجير عقارات لمُدّة تزيد على خمس سنوات ، أو توريث أو إهداء حقوق

في ملكيات خاصة مسجلة في إسرائيل، لـ «غرباء». القانون يؤلف القاعدة الأيديولوجية للتملك والانتفاع في الأراضي الواقعة في أيدي دولة إسرائيل، بحيث إن الحق في أرض فلسطين هو حصري للشعب اليهودي. القانون يلغي قانون حراسة «أموال الغائبين» الذي سن مباشرة بعد انتهاء حرب التطهير العرقي. الفلسطينيون، المواطنون في إسرائيل، مطالبون ليس فقط بقبول الفكر الصهيوني، بل بممارسته فعلياً أيضاً، إذ إن أراضيهم الخاصة باتت خاضعة للتصرف اليهودي الحصري.

من جهة ثانية، بات اللاجئون الفلسطينيون في الشتات، على اختلاف جنسياتهم، «غرباء»، وكانت القوانين السابقة تعرفهم بـ «الغائبين»، وذلك بعدما التزمت إسرائيل أمام الأمم المتحدة بالحفاظ على حق اللاجئين الفلسطينيين وعلى بيوتهم وممتلكاتهم، إلى حين التوصل إلى حل سياسي مستقبلي لقضيتهم.

وتم إقرار ما يدعى قانون النكبة الذي جرت صياغته في قالب مبهم، بحيث يجرّم كل هيئة تتلقى الدعم المالي من الخارج، أو قدمت الدعم لأنشطة من شأنها أن تقوّض أسس الدولة وتناقض قيمها. يمكن أن يندرج التوصيف على عقد المؤتمرات الأكاديمية وإجراء الأبحاث التاريخية، وكذلك النقاشات المركزة على مختلف جوانب «حرب الاستقلال» وكل ما سبقها من أحداث. هذا القانون في جوهره يرمي إلى إخراس الجميع.

لكن الأخطر في نظر خبير القانون الدولي د. حنا عيسى، هو ما أضحي بتبلور في تشريعات أساسية ترمي للانتقال نحو مرحلة جديدة، فيها تتأهل إسرائيل لأن تكون أكثر استعداداً للإعلان عن كون التمييز جزءاً من بنائها الدستوري. وقد تمثل هذا في قوانين وتشريعات أساسية، مثل قانون العودة (1952) قانون الخدمات الدينية اليهودية (1971) قانون الخدمة العسكرية (1986) قانون الحاضر- الغائب وقانون المصادرة من أجل الصالح العام، مشروع قانون المواطنة، (تعديل تصريح الولاة 2009)، مشروع قانون سجل السكان (تعديل- تصريح الولاة للدولة والعلم والنشيد الوطني 2009)، مشروع قانون يوم الاستقلال (تعديل- حظر إحياء يوم الاستقلال أو يوم إقامة دولة إسرائيل كيوم حداد) أي قانون النكبة. ومشروع القانون الأساس للكنيست (تعديل تصريح ولاء عضو الكنيست)، تصريح ولاء للدولة كدولة يهودية وصهيونية وديموقراطية (!). ومن منطلق القلق والرعب من المستقبل، يصرخ العارفون بواطن الأمور في إسرائيل «ومن مكان الألم حصرًا، ومن وجهة النظر الحزينة للضحية السابقة، عليّ أن أعترف وأعلن أمام العالم أن المفاجأة الأكبر التي ظهرت أمامي خلال كتابة هذه الصفحات هي أن البني السياسية والاجتماعية والقومية الأكثر شبيهاً لإسرائيل هي بنى ألمانيا في فترة بلورتها منذ إقامة الرايخ الثالث وحتى فترة الفوضى التي أدت إلى صعود النازيين [بورغ: 91].

## العنصرية الدينية

وتتصاعد العنصرية بشعارات تغطّي الجدران، تدعو لقتل العرب وطردهم، كما حصل في مدينة الناصرة العربية، وتظاهرات التنظيمات اليمينية التي تدعو لذلك أيضاً، كما حصل في بلدة أم الفحم، ومنع وضع شجرة عيد الميلاد في مدينة الناصرة العليا، وكذلك تصريحات الوزير الإسرائيلي، إسرائيل كاتس، التي دعا فيها إلى قتل بدو النقب العرب، وقرار مدير إحدى مدارس يافا منع الطلاب العرب من التحدّث باللغة العربية.

تجري ممارسات التهجير الحكومية في مناخ سياسي هيات له عواصف من القرارات الرسمية والفتاوى الدينية يصدرها حاخامات متطرّفون دأبهم ترويج العنصرية وكرهية الأجانب. إن غالبية أفراد المؤسسة الدينية داخل إسرائيل ينشرون العنصرية. وفي مقال نشره جوناثان كوك على الموقع الإلكتروني كاوتر بونش (إذ ليس لهذا الصحفي الشريف وأضرابه غير هذا الموقع يتنقّسون من خلاله) تحت عنوان «حاخامات عنصريون»، أورد تحريم خمسين من كبار رجال الدين اليهودي تأجير البيوت لغير اليهود. ومن هؤلاء شامويل إلباهو، كبير حاخامي صفد، ألقى موعظة بهذا الخصوص، ونظم أتباعه مظاهرة هددوا فيها بإحراق البيوت التي تؤجر لتلاميذ عرب. وأورد المقال أسماء كل من شلومو أفينير الزعيم الروحي للتيار الديني القومي، يوسف الياشيف الحاخام المتطرف وأفيدور نيفينترال حاخام القدس القديمة. اما عوفاديا يوسف، الذي لا يتحفظ في إشهار عنصريته، فلا تقتصر فتاواه على موضوع تأجير المساكن لغير اليهود؛ إنما تشمل كذلك التمييز ضد العرب في كل مجالات الحياة. اشتهر بسلاطة اللسان، فقد شبه الغرباء بحمار يعمل في خدمة الإنسان اليهودي؛ وألح في مواعظه على أن «الغرباء خلقوا لخدمتنا»، هو عنصري يكره النساء، وقال بعد المدّ البحري - في نيو اور ليانز - يوجد هنالك زوج- ليتعلم الزوج التوراة. هيا لأناتهم بتسونامي ونغرقهم.

وفي الصيف الماضي نُشر كتاب من 230 صفحة حمل العنوان «توراة الملك» من إصدار الحاخامين يوسف أليتزور ويتسحق شايرا المديرين لمعهد ديني واسع النفوذ في مستوطنة يتزهار بالضفة الغربية. يتضمن الكتاب إرشادات يصدد التعامل مع غير اليهود. وخلص المؤلفان إلى القول بأن اليهود مضطرون لقتل كل من يشكل خطراً على اليهود بصورة مباشرة أو في طيات المحتمل. والفلسطيني يدخل في طيات الخطر المحتمل؛ وبناء عليه برّر الكاتبان باسم الدين قتل المدنيين الفلسطينيين، حتى الأطفال منهم. وقبول الكتاب بترحاب عدد كبير من رجال الدين اليهود. وفي شهر نوفمبر أيد الحاخام شايرا استخدام الفلسطينيين دروعاً بشرية أثناء القتال، وهو ما يعتبر جريمة حرب بموجب اتفاقيات جنيف.

إزاء الدعوات العنصرية يحجم النواب العامون في إسرائيل عن التحقيق في الانتهاكات ويغضون أعينهم عندما يرفض المعنيون التقدم إلى التحقيق، مدعين أن «توراتنا المقدسة

ليست موضع تحقيق أو محاكمة». والمناخ مؤات لترويج دعاية الدولة اليهودية التي تدار بموجب «القانون الإلهي»، كما يؤكد المعلق بصحيفة هآرتس، زفي باريل. فقد كتب بصدد الحاخامات العنصريين، يقول «إنهم وأنصارهم يجعلون الأصولية وتورا الملك المخجلة تياراً رئيساً للديانة اليهودية.»

يمارس الحاخامون سلطتهم على الأطفال، حيث يسهل تكييفهم. ولدى افتتاح المدارس في أيلول (2010) التحق 52% من الأطفال بالصفوف الأولى للمدارس الدينية. وأشار راشيليفسكي إلى أن تلاميذ معظم المدارس الدينية يتلقون تعليماً بأن اليهود هم فوق الطبيعة التي تتشكل من نماذج أربعة: الجماد، الخضار، الحيوان، الحيوان الناطق. ومن هم ليسوا يهوداً ليسوا أكثر من حيوانات ناطقة.

الحاخام اسحق شايبيرا، صاحب فتوى قتل الأطفال العرب، مدير مدرسة «يوسف حي» الدينية في مستوطنة يتزهار القريبة من نابلس. وكشف النقاب أنه في عامي 2006 و2007 قامت شعبة المؤسسات التوراتية في وزارة التعليم بتحويل أكثر من مليون شيكل (300 ألف دولار) لهذه المدرسة تحديداً؛ في حين قامت وزارة الشؤون الاجتماعية بتحويل مبلغ 150 ألف شيكل. لكن التقرير الذي قدمته المدرسة لمسجل الجمعيات يدل على أن الجمهور الأمريكي يشارك في تطوير تأثير هذه المدرسة. ويدل التقرير على أنه خلال عامي 2007 و2008 قدم صندوق أمريكي مسجل في منهاتان بنيويورك حوالي 103 آلاف شيكل لهذه المدرسة تبرعات معفاة من الضريبة. وقد قام هذا الصندوق خلال عام 2006 فقط بتحويل مبلغ 8 مليون دولار لمؤسسات ومنظمات دينية ولإقامة كنس ومدارس دينية ولمتطلبات أمنية عاجلة في إسرائيل.

يقول عكيفا إدار، الصحفي في هآرتس، إن الذي يدير هذا الصندوق هو جاي ماركوس، وهو مستوطن يقطن في مستوطنة «إفرا» في منطقة بيت لحم، بينما ترأس أمه هداس مجلس إدارة الصندوق، في حين يحتل والده آرثور منصب نائب رئيس مجلس الإدارة، وكلاهما يقطنان في نيويورك. وقد كشف ديفيد إيغنشيوس، المعلق بصحيفة «واشنطن بوست» مؤخراً أنه حسب كشوف مصلحة الضرائب الأمريكية، فقد قامت جمعيات وصناديق تعمل في الولايات المتحدة خلال الفترة الممتدة بين عامي 2004 و2007 بتحويل 33.4 مليون دولار لمؤسسات في المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية، ويتم إعفاء الدين يشاركون في تحويل هذه الأموال من دفع الضرائب.

وتسفر فتاوى شايبيرا عن حرق مسجد أو بساتين الزيتون والتحرش المستمر بسكان القرى العربية المحيطة.

وإلى جانب المدرسة تجري التعبئة العنصرية للأطفال من خلال قصص الأطفال. آلاف القصص في مكتبة الطفل اليهودي تحقنه بجرعات متتالية من الكراهية والبغضاء لكل ما هو عربي، وتؤكد

الجهد المبرمج الذي يبذله مؤلفو أدب الأطفال في الكيان الإسرائيلي لتعزيز الصورة القبيحة للعربي وترسيخها في أذهان الأطفال اليهود الذين يكونون قد لقنوا دروساً بيتيةً ومدرسيةً ممنهجة في تمييز النوع اليهودي وتفوقه على ما سواه. إن نظرة على كتب الأطفال في إسرائيل تظهر أن هذه الكتب تنظر إلى العربي بمنظار الظروف الحربية التي تعيشها إسرائيل، وليس بمنظار السلام الذي قد يحل... ولا تهيب القارئ اليهودي لإقامة علاقات حسن الجوار والتعاون مع العربي. من احتك باليهود يسمع منهم عبارات تؤكد الصفة الثابتة للعربي التي حملها الإسرائيليون من الأدب الذي ترعرعوا عليه منذ طفولتهم؛ فهم يتعاملون مع العرب على أنهم مخلوقات عديمة القيمة والإنسانية.

### التمييز العنصري في أروقة القضاء

في خريف العام 2010، رفض قاض إسرائيلي في إحدى محاكم الناصرة إنزال عقوبة بطفل عربي قدم للمحكمة بتهمة قذف حجارة على السيارات. جاء في قرار القاضي شادمي في إحدى محاكم الناصرة أن إسرائيل تشهد مستويين مختلفين فيما يتعلق بالنظر في الجرائم المقترفة في البلاد، مشيراً إلى أن حالات العنف الذي يمارسه يهود ضد قوات الأمن غالباً ما تجرّد الإجراءات القانونية بصدها، أو تلغى بالمرّة قبل صدور الأحكام. وقال إنه لم يسمع أن طفلاً قاصراً من اليهود قد أدخل السجن بسبب مثل هذه الجنح، رغم أن معظم القاصرين العرب يحكمون ويسجنون. وأقرّ القاضي شادمي أن المدعي العام طلب إنزال عقوبات سجن طويلة الأمد على الحدث؛ بينما في حالات مشابهة من العنف المنطوي على «العنف لأسباب إيديولوجية» - مثل اعتداءات المستوطنين على الجنود - نادراً ما اعتقل بسببها الجانحون. وقال، إذا شعرت الدولة أن الجنح الإيديولوجية تبرّر أعفاء الأحداث فإن هذه السياسة ينبغي اتباعها تجاه الأحداث بغض النظر عن الدين أو القومية.

ونقلت الميديا الإسرائيلية ان عددا من المستوطنين ممن اعتقلوا أثناء فك الاشتباك بغزة لم يقدّموا إلى المحاكمة.

لم يتطرق القاضي شادمي إلا للتمييز في إصدار أحكام في محاكم إسرائيل. أما الفلسطينيون في المناطق المحتلة فيحاكمون أمام محاكم عسكرية بموجب قوانين وإجراءات مغايرة تعرّضت لانتقادات قاسية من قبل الهيئات الدولية لحقوق الإنسان. وقالت المحامية عيبير بكر، من جمعية عدالة الناشطة في الوسط العربي، إن نص قرار القاضي شادمي يأتي لأول مرة في تاريخ القضاء الإسرائيلي، أن تعترف محكمة إسرائيلية بوجود تمييز منهجي ضد العرب.

لا يصدر عن المحكمة العليا في إسرائيل أي تشكيك في مبررات الإجراءات العسكرية المتخذة تحت ذرائع أمنية، وهي تستند إليها كمسلّمات، رغم أنها تتناقض بشكل حاد مع حقوق الإنسان والاتفاقات الدولية وفتوى محكمة العدل الدولية؛ فبينما السياسيون يهرّحون أن مسار الجدار

العازل هو «الحدّ الفاصل بين إسرائيل والسلطة الفلسطينيّة» فإنّ رئاسة المحكمة العليا، دوريت بينيش تكتب مؤكدة «أنّ بمقدورنا الأمل أن هذه حاجة ذات طبيعة مؤقتة، لأنه من خلال الحاجة فكافح الإرهاب. ويؤسفنا أن ضرراً قد لحق بجمهور من المدنيين غير المتورطين في الإرهاب».

خلال ثماني سنوات، من الشروع في تشييد الجدار العنصريّ، وباستثناء مقاطع معينة أصدرت المحكمة بشأنها أحكاماً قضت بإدخال تعديلات، فقد صدّقت المحكمة على المسار المتعرج للجدار بحيث تجاوز طوله ضعف طول الخط الأخضر الفاصل بين الضفّة وإسرائيل. أي أنّ 85 بالمائة منه يمرّ عبر أراضي الضفّة شرقي الخط الأخضر، ويقتطع مساحات منها، حسب تقديرات مكتب الأمم المتّحدة لتنسيق الشؤون الإنسانيّة / أو تشا. وهو ما يتناقض مع القانون الدوليّ حسب فتوى المحكمة الدوليّة. وهذا لا يخلق مشكلة في نظر بينيش رئيسة المحكمة العليا وزميلها اليزر ريفلين وأيالا بروكاسيا، كما أفادت الصحفيّة في هآرتس أميرة هاس، إذ كتبت بينيش في هذه المرة أيضاً في ردّ على اعتراض رفعه إلى المحكمة مركز الدفاع عن حقوق الأفراد (هامو كيد) وجمعية الحقوق المدنيّة في إسرائيل، "ليس بمقدورنا تجاهل الغاية الأمنيّة الحيويّة التي تشكل الأساس لقرار إغلاق نفس المنطقة. وتوصلنا إلى الاستنتاج أنه في ضوء عدد من التغيرات المفصلة بدقة أعلاه، فإنّ قرار الإبقاء على نفس المنطقة مغلقة وفرض نظام العمل بالتصاريح هناك يستجيب لمقتضيات القانون؛ ولذا فنحن لا نجد مبرراً للتدخل من جانبنا".

ووبّخت رئيسة المحكمة مؤكدة لأنّه قارن الوضع بالأبارتهايد، حيث بلدات وقرى بأكملها محرومة من التوسّع أو البناء استجابة لمتطلبات النموّ الطبيعي. وما يتاح للمستوطنين في ألفيه منشييه يحظر على سكان قلقيلية، وما يتاح لنهليه يحظر على نعلين.

من الواضح أنّ المحكمة العليا في إسرائيل لا تبدي اهتماماً حيال ازدياد التعقيدات العمليّة البيروقراطية لتقرير تملك الفلسطينيين لأراضيهم. إنها تسمح للعمال المؤقتين بالذهاب والعمل، وربما يكونون أبناء المالكين أو أحفادهم، دون أن يقرّ لهم بملكيّة الأرض.

وبحقّ تساءلت الصحفيّة: فهل ستقرر إسرائيل بعد عشر سنوات أنّ هذه الأراضي ليس لها مالكون؟ وهل ستقرر المحكمة الموقرة أنّ الأمر هو على هذه الشاكلة؟ وأنّ (دولة إسرائيل) ذات السيادة مخوّلة حينئذ بالتصرّف بالأراضي كما ترى مناسباً؟

تشهد الضفّة إجراءات أشد وطأة تنطوي على التمييز العنصريّ، إذ يخضع المجتمع الفلسطينيّ للأحكام العرفية منذ بداية الاحتلال. وتتيح الأحكام العرفية لقوّات الأمن اقتحام البيوت وفتيشها وتخريب محتوياتها وترويع ساكنيها، حتى ضرب الأب امام أفراد أسرته. وعناصر الأمن تدرك أنّها بعمل كهذا تسبّب شرخاً في شخصيّة الطفل، حيث يغشاه إحساس بعدم الأمان. ويعتقل المشكوك في نشاطهم المناهض للاحتلال بمجرد الشبهة، ويودعون في المعتقلات لزمن يطول أو يقصر؛ وقد تنشأ فرص ابتزاز ماليّ يتوسط فيها محامون جرّاء وضع المعتقل أمام طريق



مسدود . ولا تنظر في قضايا «الأمن» إلا محاكم عسكرية تصدر أحكامها وفقاً للمناخ السياسي السائد . وإذا أصيب مواطن بضرر أو عاهة ، ليس من حقه طلب تعويض عن الضرر النازل؛ ولا يعوّض المتضررون بسبب العمليات العسكرية ضدّ عناصر أخرى ، كأن تلقى قذيفة على مجمع سكني أو حيّ يقطنه فرد مستهدف ، ويلحق الضرر بالعديد من الأفراد أو الأسر . وبات مألوفاً في ظلّ الأحكام العرفية إنزال العقوبات الجماعية في مناطق الاحتلال الإسرائيليّ .

وحين نقرأ بيانات أو فتاوى أو حتى كتباً تصدر عن لاهوتيين يهود تحرّض على التصديّ للجيش في حالات معينة ، أو لمنع قرارات الانسحاب فيما لو صدرت ، دون أن يلقي أصحاب الفتاوى حتى مساءلة ، فإن الموقف يختلف إذا صدرت الدعوة من عربيّ ، حيث يردّ عليه بصورة تلقائية بفرض عقوبات الاعتقال بالجملة أو هدم البيوت والسجن لمسدّد طويلة في حال التحريض على العنف أو ممارسته .

في هذا الصدد يلقي المراسل الصحفيّ السابق يونان ميندال الضوء على أنماط من التمييز ، تتناسل بصورة عفوية في الممارسات اليومية . والصحفيّ يحضر حالياً للدكتوراة بجامعة كمبرج في موضوع العلاقة بين اللغة العربية والأمن في إسرائيل . ومن ملاحظاته أثناء عمله الصحفيّ كتب مقالة مطوّلة عنوانها «كيف تكون صحفياً في إسرائيل لا تكتب كلمة فلسطين أو كلمة اغتيال» . نقتطف من المقال الفقرات التالية:

«يمكن الكتابة بإسهاب وحرية عن الفساد أو التآكل الاجتماعيّ ، لكنّ الحرية تتوقف لدى شعوب الأمن . لدى الكتابة عن العنف يردّ دوماً أن مصادر الجيش قالت ، بينما المصادر الفلسطينية ادعت . لماذا يندر ورود اسم لشخص أو منظمة أو مصدر لتلك المعلومات؟ أليس ذلك لأنها حينئذ تبدو أكثر مصداقية؟

أجرى مركز كيشيف لحماية الديمقراطية في إسرائيل دراسة حول أساليب تغطية القنوات والصحف الرئيسة في إسرائيل خسائر الفلسطينيين في ديسمبر 2005 ، فوجدوا 48 خيراً غطت 22 حادث وفاة ، منها ثمانية فقط نقلت تعقيبات من فلسطينيين؛ أما الأربعة الأخرى فانفردت بسرديات أفعال الناطق بلسان الجيش . . . هناك مراقبة ذاتية لدى النشر؛ فحتى إلقاء قنبلة زنتها طن على حيّ سكني قتلت أربعة عشر مدنيّاً من بينهم تسعة أطفال لم يكن الحادث قتلاً متعمّداً . الفلسطينيون هم المبادرون بالعدوان والجيش يردّ . ونظراً لأن الفلسطينيين لا يستطيعون الردّ ، استخدمت الصحافة الإسرائيلية عبارات انتقم ، استفزّ ، هاجم ، قذف حجارة أو أطلق صواريخ قسام . فكيف تأتى أنّ الفلسطينيين في الأراضي المحتلة لا يمكنهم الدفاع عن النفس ، بينما الجيش الإسرائيليّ دوماً في موقف المدافع؟»

بعد كل هذا فالأبارتهايد يعني العزل؛ وإذا كان للمستوطنين في المناطق المحتلة طريق ، فعلى الفلسطينيين استخدام طريق أخرى أو نفق بديل .

في المناطق المحتلة يعمل نظامان قضائيان: للمستوطنين وللعرب ، وبذا فإنها لعدالة أبارتهايد . ولا يستعمل تعبير المناطق المحتلة سوى اليساريين .

المحافظة الإسرائيلية لا تتداخل مع قوات الأمن؛ ولم يطلب من الصحفيين نمط معين للكتابة عن العسكر . والقيود تجري مراعاتها بصورة تطوعية . وأثناء الصراع العنفي طالب وزير المالية هيرشون بإغلاق فضائية سي إن إن بحجة التحيز ضد إسرائيل في تغطياتها الإخبارية . أجل ، نتيجة تحيز التقارير الصحفية للمصحف الرئيسة في إسرائيل يفاجأ المتلقون الإسرائيليون لدى سماع أو مشاهدة مناظر لم يطلعوا عليها في صحفهم المفضلة ، ويشرعون باتهام المصادر الأجنبية بالتحيز .

هذا البون الشاسع بين تنفيذ الأمن في الجانب العربيّ والجانب اليهوديّ إنما يفضح حقيقة أن الحكومة الإسرائيلية تستغل حالة الحرب التي تحرص على استمرارها كي تتعامل مع الجمهور العربيّ كأعداء .

قال جدعون فيشمان ، أستاذ العلوم الاجتماعية بجامعة حيفا ، الذي أجرى دراسة حول سياسات معاقبة المجرمين في إسرائيل ، إنه واثق من وجود تحيز منهجي ضدّ العرب . وأقر البروفيسور أن القاضي كان محققاً إذ رفع الصوت ضدّ سياسة كانت ولم تزل أكثر ليونة تجاه اليهود . إنها سياسة يتبعها المدعون العامون بتعمد وليس عن طريق الصدفة ، وهذا يدمر الثقة في النظام القضائي .

وكان القاضي ريتشارد غولدستون ، قد كتب في تقريره بصدد الهجوم على غزة أنه "صدم" عندما علم أنه لم تجر اعتقالات عندما جرت مظاهرات اليمين اليهوديّ واستخدم فيها العنف . وقال إنه لاحظ بناء على معلومات اطلع عليها رفض تكفيل المعتقلين العرب ليتواصل اعتقالهم مددا طويلة ، حتى في تلك الحالات التي وجهت فيها تهمة خفيفة . وحول نظام المحاكم استخلص غولدستون أن عناصر التمييز ضدّ العرب واختلاف التعامل بين المواطنين اليهود والعرب في إسرائيل من قبل السلطات القضائية ، والتي عكستها التقارير التي قدّمت له تشكل سببا جوهريا للقلق .

### تضييق الحريات الأكاديمية

علاوة على الفتاوى الدينية والتعليم الدينيّ يسهم التعليم الجامعي في الحملات العنصرية لليمين الفاشي . إن اندماج العلم والحياة الأكاديمية مع الخرافات المقتنعة بالدين في مجتمع أدخل العلم قوة إنتاج مباشرة وتغلغل العلم في تقانيه واستعمالاته اليومية ، إنما يعكس حالة شوزيفرينية منشأها ظاهرة ارتداد الفكر الإنسانيّ عن المنهجية العلمية . بات العلم يستخر لخدمة أهداف غير إنسانية . تمول الجامعات الإسرائيلية كافة من تبرعات عامة تشكل 90% من موازاتها . وهذه تشكل نقطة ضعف ، حيث النزعات اليمينية المرتبطة بالرأسمال الكبير تمارس الضغوط وتملي بواسطة المال أفكارها على البحوث الأكاديمية ، خصوصا في ما يتعلق بالعلوم الإنسانية وتقبل الفكر القومي وقمع الأفكار «الهدامة» . وترى المنظمات اليمينية في الجامعات ذراعاً للحكومة .

وأصدر سبعون أكاديميا من إسرائيل بيانا استنكر قرار جامعة بار إيلان منع تجديد خدمة الدكتور آرئيلازولاي، واعتبروه عقابا لها على توجيهها اليساري. وعلق الشاعر يتسحق لاؤور علي القرار في مقال نشرته صحيفة هآرتس (7 آذار 2011) جاء فيه أن قرار الجامعة يعدّ فضيحة؛ فكل من عرف الدكتور من خلال كتاباتها باللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية وسعة اطلاعها في المجال النظري لا يستطيع إلا أن يدعم بيان الأكاديميين، ولا يستطيع إلا أن يشكك في دوافع أولئك المتحكّمين بالجامعة؛ فهم بالتأكيد لا يضعون في مركز تفكيرهم إسهام ازولاي في إغناء ثقافتنا. ازولاي لم تنشر وحسب المقالات العديدة في الخارج، بل ونشرت باللغة العبرية ما أسهم في إغناء الخطاب ما بعد الحداثي في الفنون وقضايا المرأة بطريقة لا نظير لها.»

ويأتي معظم الدعم للجامعات، كما تؤكد الصحافة الإسرائيلية، من جمعيات أميركية، مثل مؤسسة هودسون، بنك المعلومات التابع للمحافظين الجدد، والذي شارك في بلورة سياسة بوش الابن في الشرق الوسط. وقدّمت المؤسسة لمؤسسة الاستراتيجيات الصهيونية هبات خلال السنوات القليلة الماضية، قدّرت بمئات آلاف الدولارات. كانت عمليا المانح الوحيد للمؤسسة. وتمارس مؤسسة هودسون ومعها حركة «مسيحيون متّحدون» (CufI) الهجوم على الحريات الأكاديمية في إسرائيل، وصولا لأهداف أبعد.

يلفت الانتباه أنه يجري في أحايين كثيرة استدعاء أكاديميين للشهادة أمام المحاكم، خصوصا العسكرية؛ فقد استدعي البروفيسور رافائيل إسرائيلي من الجامعة العبرية في القدس، للشهادة "خبيرا" في قضية نظرتها المحكمة العام 2004، حيث أفاد بأن العسكرية العربية تنطوي على "إحساس بالفضيحة" و"العداء المرضي للسامية" و"الميل للعيش في عالم الأوهام". العديد من الأكاديميين الإسرائيليين عنصريون صرخاء، منهم، علاوة على رافائيل إسرائيلي، ديفيد بوكاي و أرنون سوفر بجامعة حيفا. وقدر البروفيسور إيلان بابيه، الذي أجبر على ترك جامعة حيفا ردا على إصدار كتابه "التطهير العرقي في إسرائيل"، أن نصف المحاضرين في الجامعات الإسرائيلية يقيمون صلات بالجهات الأمنية.

يجري تنظيم أعمال للحدّ من الحريات الأكاديمية في إسرائيل؛ وتنفذ معظم هذه الأعمال تحت إشراف المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأميركية وبتحريض منهم. كشف الأكاديمي الإسرائيلي البروفيسور نيفيه غوردون النقاب، في أحد تقاريره المنشورة على موقع كاوتر بانث، عن مساعي قمع الحريات الأكاديمية. وبالطبع يصعب نشر تقارير بهذا التوجه في غير هذا الموقع الإلكتروني. جاء في التقرير أن أولى المحاولات تجسدت في إصدار تقرير عن مؤسسة الدراسات الصهيونية قامت بتحليل مناهج الدراسات الاجتماعية واتهمت أساتذة بتحيزات "ما بعد صهيونية". عرفت المؤسسة مفهوم "ما بعد الصهيونية" بأنه فكر يقوض أسس القيم الخلقية للصهيونية والتماهي مع تيار اليسار الجذري. وبالإضافة إلى يساريين معروفين فقد رصد التقرير شخصيات مثل إريك هوسباوم وبينديكت أندرسون أعضاء في تيار ما بعد الصهيونية. قدّم

التقرير إلى مجلس التعليم العالي في إسرائيل ، الذي بدوره حوِّله إلى رؤساء الجامعات . رفض رئيس جامعة تل أبيب مراقبة المناهج . وبعد وقت قصير نشرت هآرتس تحت عنوان بالأحمر خبراً عن هيئة جديدة تطلق على نفسها "إم ترتسو" (إذا شئت ذلك) ووجهت تهديداً لجامعة بن غوريون ، حيث يحاضر نيقيه غوردون وعمل من قبل رئيساً لدائرة السياسات الحكومية فيها . أبلغت الهيئة رئيس الجامعة ، ريفكا كارمي ، أنها سوف تقنع الجهات المانحة بتجميد الهبات ما لم تتخذ الجامعة إجراءات "للحد من التحيز ضد الصهيونية" في دائرة السياسة والحكم . طالبت المنظمة "إحداث تغييرات في تركيبة كلية الدائرة ومضامين مناهجها . " كانت رؤوس أكثر من بروفيسور مطلوبة في هذا الطلب . وحظي مطلب المنظمة بتأييد وزير التعليم ، الذي يشغل منصب رئيس المجلس العالي للتعليم . وكان قد شارك من قبل في أحد اجتماعاتها وأيد بلا تحفظ مضمون التقرير حتى بدون قراءته .

تبين أن الهجوم على الحريات الأكاديمية جزء من هجوم أشمل يتهدد قيم الليبرالية الديمقراطية . فقد وُحد عدد من القوى اليمينية جهودهم للضغط من أجل جدول أعمال يميني متطرف ، يحدوه لذلك سببان: الأول أن الجامعات تؤوي عدداً من منتقدي التوجه اليميني لدى حكومات إسرائيل ، رغم أن الجامعات لم يصدر عنها ما يعارض سياسة الحكومات المتعاقبة ، بما في ذلك القيود المفروضة على الحرية الأكاديمية في الجامعات الفلسطينية . ويحظى الهجوم اليميني بدعم أكاديميين أميركيين أمثال ألان ديرشوفيتز ، عميد الحقوق بجامعة هارفارد ، والعنصر الفاعل في التيار المحافظ في الولايات المتحدة ، الذي زار مؤخراً جامعة تل أبيب ودعا إلى استقالة الأساتذة ممن يناصرون دعوة الفلسطينيين بمقاطعة السلع الإسرائيلية وسحب الاستثمارات فيها إلى أن تدعن إسرائيل للقانون الدولي الإنساني . وذكر بالاسم راشيل غيوراً وأنان مатар من جامعة تل أبيب ، أعضاء في المجموعة المطلوب منها ترك الجامعة .

وثانياً أن الجامعات الإسرائيلية تعتمد على تمويل مؤسسات أميركية ، وتعمل منظمة "إم تيرتزو" على تجاوب المانحين مع مطلبها . والكاهن هاغي راغي حركة "متحدون من أجل إسرائيل" والصديق بالروح لمنظمة "إم تيرتزو" ، استجاب لدعوتها وأوقف تقديم المنح . تضمّن مؤسسة هودسون أهدافاً إمبريالية في الشرق الأوسط؛ ويحبذ عدد من مجلس أمنائها توجيه عدوان ضدّ إيران . وحيث تربط حركة "متحدون من أجل إسرائيل" عودة المسيح إلى الأرض بعودة اليهود إلى إسرائيل ، فهي تدعم أيضاً تعزيز القدرات العسكرية لإسرائيل . إن الشراكة الرهيبة بين المنظمات الإسرائيلية والأميركية تساعد في الكشف عن الأهداف الحقيقية للهجوم الراهن على الحريات الأكاديمية . ورغم فشل الهجوم الأخير إلا أن تغييراً بارزاً طرأ على بنية الجامعات في إسرائيل خلال السنوات الخمس الماضية ، حيث انتقلت السلطة في معظمها من الكليات إلى رئاسة الجامعة . وهذا قد يوظف في المزيد من تقليص الحريات الأكاديمية . والأخطر من ذلك أن بوليس الفكر قد شكّل داخل الجامعات ، ومعظم ضباطه أكاديميون .

## الترحيل

وتنظم بصورة منهجية عمليات فرض الوقائع الصلدة على الأرض كي تجعل الإجراءات العنصرية غير قابلة للتراجع . كتب الصحفي الإسرائيلي جوناثان كوك تقريراً حول ترحيل عرب قبيلة عطوري من ديارهم في قرية العراقيب ، بعد هدم بيوتهم للمرة الثامنة خلال الأشهر القليلة الماضية من قبل الجيش والشرطة (بلغ عدد مرات الهدم 22 حتى شهر إبريل 2011) . جاء في التقرير: شرّعت الحكومات الإسرائيلية مساعي ترحيل البدو عن قريتهم ، العام 2003 ، وبدأت بإتلاف المحاصيل ورشّها بمبيدات الأعشاب . لم يوقف المساعي حكم محكمة العدل العليا في إسرائيل بعدم مشروعية الإجراءات . ويعلّل البدو إصرارهم على رفض التهجير بأن التجمّعات الرسمية التي يدعّون للرحيل إليها لا تعدو كونها مجرد محميات تتردّى في أسفل القائمة من حيث مرافق الخدمات الاجتماعية الاقتصادية .

والملمح الجديد في هذا الصراع المحتدم عبر عقود ستة خلت تدخّل «تلفزيون الرب» التابع لإحدى الطوائف الإنجيلية العاملة في بريطانيا بتقديم تبرّعات لغرس مليون شتلة أحراش على أنقاض القرية . نصبت يافطة على بعد بضعة أميال شماليّ مدينة بئر السبع بالنقب تحمل إعلاناً بغرس مليون شتلة حرجية على مساحة أطلق عليها «غابة تلفزيون الرب» . وقد تلقى الصندوق اليهودي القومي تبرّعا بقيمة خمسمائة مليون دولار من المحطة التلفزيونية مساهمة في المشروع . وقال مؤسس المحطة التلفزيونية ، روي أليس ، إنه شرع في جمع التبرعات لمشروع الغابة بعد تلقيه «توجيهاً من الرب» قبل سنوات ، زاعماً أن الرب أبلغه: «جهّز الأرض لعودة ابني» . ونقل الصحفي الإسرائيليّ ، جوناثان كوك ، في معرض كشف الجريمة عن البروفيسور نيفيه غوردون ، أستاذ العلوم السياسية بجامعة بن غوريون في النقب اتهامه للصندوق اليهودي القوميّ أنه ، إذ قبل الهبة من تلفزيون الرب ، قد «أقرّ سابقة خطيرة» ، وأن «السلطات الإسرائيلية تلعب بالنار»؛ ذلك أن تورط تيار مسيحيّ متطرّف يحتمل أن يشير مواجهة دينية من الصعب التوصل إلى حلّ لها . وقال البروفيسور الإسرائيليّ إن من المثير للقلق حقاً أن يورد أليس لغة النبوءة التوراتية لتبرير قراره تمويل عملية تهجير السكان الأصليين من أماكن سكنهم والتستر عليها بخرافات تحمل طابع العقيدة الدينية .

ذكر البروفيسور غوردون قراء كاوتربانش في مقال حول الموضوع تحت عنوان «اجتثاث البدو من النقب» بأن الصندوق القومي اليهودي قد غرس ملايين الأشجار الحرجية غطت بقايا القرى العربية المدمّرة إثر تهجير سكانها عنوة ، العام 1948 ، وذلك مباشرة بعد إنشاء دولة إسرائيل ، بهدف «ضمان عدم عودة ثلاثة أرباع مليون فلسطيني إلى قراهم ، ولكي تطمس حقيقة أن هؤلاء هم المالكون الشرعيون للأراضي قبل قيام دولة إسرائيل» . ومضى إلى القول: «والآن يطلب من مشاهدي تلفزيون الرب فتح محافظهم كي «يبدروا البذور للرب»؛ غير أنها بذور الكراهية والمكابدة . إنها مناقضة لنبوءة أشعيا حول تحويل السيوف إلى محاريث . حقا فلو بعث أشعيا حيا فلربما تمدد أمام الجرافات كي يوقف تدمير بيوت البدو .»

اعتبر ستيفن سيزر المعارض البريطاني البارز للجماعات المسيحية الصهيونية «تلفزيون الرب» طرفاً في حركة إنجيلية تؤمن بأن إنشاء إسرائيل يقرب «عصر النهاية» أو لحظة عودة المسيح ، طبقاً لمعتقد إحدى طوائف المسيحية . وعن طريق طرد الفلسطينيين من ديارهم وإحلال اليهود محلهم يمكن توقع عودة المسيح . إن غرس الأشجار هو الوسيلة لتقديم الدعم لنهج المتطرفين في إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني . وقال سيزر إن التعاون يمضي قدماً بين المؤسسات الإسرائيلية والمسيحيين الأصوليين الذين نقلوا عملياتهم داخل إسرائيل . وقدم تلفزيون الرب نفسه القناة التلفزيونية الوحيدة التي تبث من القدس بعد انتقاله إلى المدينة ، العام 2007 .

ومرارا دعا الحاخام إيريك يوفي ، رئيس اتحاد اليهودية الإصلاحية ، إسرائيل لقطع صلاتها مع الصهيونية المسيحية والجماعات الإنجيلية .

في بداية العام 2010 ، وجه جو ستارك نائب مدير مراقبة حقوق الإنسان (هيومن رايتس ووتش) لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا الانتقاد لمحاولات إسرائيل المتكررة اجتثاث قرية العراقيب وترحيل سكانها . ومع منظمات دولية أخرى لحقوق الإنسان ، جرى انتقاد إسرائيل بسبب الإجراءات الفظة المتخذة ضد سكان قرية العراقيب وغيرهم من البدو الذين يبلغ تعدادهم تسعين ألف نسمة يقطنون في أنحاء النقب ، دون أن تعترف الحكومة بتجمعاتهم السكنية ، الأمر الذي يترتب عليه حرمانهم من شتى الخدمات الاجتماعية الضرورية للحياة الآدمية .

### الأبارتهايد في الضفة الغربية

نتيجة تعرجات الجدار والتوائاته داخل أراضي الضفة ، جرى حصر ما يقدر بـ 184682 دونما حتى الآن ما بين الجدار والخط الأخضر . باتت خدمة هذه المساحات الزراعية تخضع لمشیئة الحكم العسكري . وتباعاً تصدر أوامر عسكرية تضييق الخناق على خدمة الأراضي خلف الجدار العازل ، الذي أضيف الضم إلى وظائفه . في كل عام تصدر أوامر عسكرية جديدة تصادق عليها المحكمة العليا تقلص حقوق مالكي الأراضي على جانبي الجدار في خدمة أراضيهم: تتناقص باستمرار مدة السماح بالبقاء على الأرض ، والقدرة على العيش والعمل في الأراضي غربي الجدار . وما زالت المحكمة العليا في إسرائيل مقتنعة بأن الإجراء اتخذ لأسباب محض أمنية .

رفضت المحكمة اعتراضين على نزع ملكية المزارعين ، عملياً ، والتميز ما بين العرب واليهود بشأن التوسع طبقاً لمقتضيات النمو السكاني . ونظراً لإعلان المنطقة خلف الجدار منطقة عسكرية بصورة دائمة ، فلا يستطيع دخولها سوى إسرائيليين وسيّاح ، ويسمح بالإقامة فيها لليهود فقط . أما بالنسبة للفلسطينيين فإن حقّ الدخول والتنقل والسكن في تلك المناطق متاح ضمن أضييق الحدود . وتأثر سلباً من هذا الإجراء مصالح ثلاث فئات: الفئة الأولى وتضمّ

عشرات آلاف السكان ممن يقيمون شرقي الجدار، لكن أراضيهم غربيّ الجدار. بلدات وقرى بأكملها محرومة من التوسع أو البناء استجابة لمتطلبات النمو الطبيعي.

والفئة الثانية هم أولئك الذي ألقى بهم سوء الحظ للبناء في مناطق جاءت غربيّ الجدار. هناك ثلاثة آلاف من السكان الفلسطينيين يطلب منهم الحصول على تصريح خاص من الإدارة المدنية حتى يتاح لهم السكن في بيوتهم. والآخرون جميعاً- أفراد الأسر، أصدقاء، أطباء، معلمون، جامعو القمامة، مصلحو الأجهزة، يتوجب عليهم المرور بدوامه من الإجراءات البيروقراطية المنهكة كي يحصلوا على تصريح مؤقت («الغرض شخصي»، أو «لعمال البنية التحتية» أو «فرق طبية») للقيام بالزيارة - وليس كل طالب يستجاب طلبه.

والمجموعة الثالثة هم المزارعون الذين احتجزت أراضيهم خلف بوابات مغلقة. جنود لم يكونوا يوماً في عجلة لتلبية طلبات المزارعين فتح الأقفال. في البداية منحت تصاريح لمدة سنتين لكل مزارع. بموجب إحصاء قدمته الصحفية أميرة هاس وزع 120037 تصاريحاً، العام 2006، علاوة على 214 تصاريحاً بصفة مؤقتة لمزارعين لم يحسم في بيئات تملكهم لأراضيهم. وأعطيت تصاريح عمل لمدة قصيرة شملت 3881 من العمال وأفراد أسر المزارعين.

وبعد ذلك ظلّ عدد التصاريح الممنوحة يتناقص؛ ففي العام 2010 لم يتسلم «التصاريح الزراعية الدائمة» لفترات تزيد عن العام سوى 1200 مزارع، وهذا ما ورد في تقرير الإدارة المدنية، الذي صدر أوائل شهر نيسان / إبريل 2011. وتسلم تصاريح تراوح مدتها من ستة أشهر حتى العام 392 مزارعاً؛ كما تسلم 1167 «تصاريح زراعية في نفس المناطق»- لمن لم تتضح حقوق ملكيتهم للأرض. من جهة أخرى ارتفع عدد تصاريح العمل الممنوحة إلى 18630- منها 8583 تصاريحاً لمدة شهر حتى ثلاثة، و 7463 تصاريحاً لفترات تراوح ما بين ستة أشهر وعام.

تجاوبت المحكمة العليا مع شكاوى المزارعين في جزئية محدودة، إذ علقت على انخفاض عدد تصاريح الزيارة الممنوحة لـ «أغراض شخصية» من 11 ألفاً، العام 2007 إلى 5200، العام 2009، فطلبت من الإدارة المدنية إبداء مزيد من المرونة.

كما لاحظت رئيسة المحكمة حقيقة أنه لم يوضع جدول معقول للبتّ في طلبات التصاريح. غير أن المحكمة العليا في إسرائيل، كما يبدو، لا تبدي الاهتمام بأيّ حال بالاتجاه المتواصل في إسرائيل لتقسيم الجمهور الفلسطينيّ إلى فئات وتقسيمات فتوية أصغر. تحدد هذه التقسيمات الفتوية المصغرة بالقيود التي يواجهها الفلسطينيون للانتقال إلى أراضيهم.

يقدم الهبوط في أعداد «المزارعين الدائمين» المزيد من البراهين على أن إسرائيل تزيد من تعقيدات العمليّة البيروقراطية لتقرير تملك الفلسطينيين لأراضيهم: تسمح للعمال المؤقتين بالذهاب والعمل، وربما يكونون أبناء المالكين أو أحفادهم، دون أن يقرّ لهم بملكية الأرض. والمعترف بملكيتهم للأراضي مسنون، وربما تغدو الأرض بعد عشر سنوات بلا مالكين.

## في الخليل: نظام أبارتهايد متكامل

تسير في الأزقة المسقوفة المؤدية إلى الحرم الإبراهيمي في بلدة الخليل القديمة فترى البلدية قد مدت غطاء من الشبك يقي المارة من القاذورات التي يقذفها المستوطنون في البؤرة الاستيطانية «أينما أبراهيم»، المكوّنة من بقايا طيور مذبوحة أو زرق طيور أو نفايات ملقاة فوق الشبك. في هذا الجزء من المدينة جرى تخصيص شوارع خاصة مباشرة للمستوطنين وطلبة المعهد الديني، أثناء تنقلهم بين البؤر الاستيطانية الأربعة المتناثرة في مدينة الخليل القديمة، أو تلك التي تربطها بالمستوطنين الكبيرتين، كريات أربع وغبعات خارصينا، المقامتين شرقيّ المدينة على أراضي كانت مزارع خصبة للمزارعين الخلايلة. يحرم على المواطنين المرور بتلك الشوارع أو احتيازها. يقوم على حراسة بضعة عشرات من المستوطنين والطلبة أكثر من ألف جندي إسرائيليّ. المستوطنون في كريات أربع وخارصينا يعتدون بشكل متواتر على سكان الأحياء القريبة، يدمرون، ويخربون الأثاث، ويضربون الأطفال والعجائز، كما يمنعون السكان من استقبال الزوّار الأقارب أو إدخال سيارات تحمل المواد الاستهلاكية أو تنقل المرضى في حالات الطوارئ. كثيراً ما تحدث اعتداءات بالضرب والتخريب وإتلاف الأطعمة من أطفال المستوطنات، وحتى الكبار، على البيوت، وهم يرفعون الصغار ويدمرون ما حولهم. وقد أصيب بعض الشيوخ بعاهات مستديمة، وبعضهم اختل عقله. وتكرّر حوادث الاعتداء بينما الجنود الإسرائيليّون يراقبون المشهد.

يحظر على المارة أو السيّارات المرور عبر الشوارع المخصّصة للمستوطنين. ويشمل الحظر شارع الشهداء الذي يربط بين شطري المدينة، طبقاً لاتفاقية خاصة بالمدينة بعد أو سلو، وبموجبها يبقى الشطر الشرقيّ يخضع للإدارة الاحتلالية. أغلق الشارع بأمر عسكريّ في وجه المارة العرب، وأغلقت أبواب البيوت والمحال التجارية على جانبي الشارع؛ ويضطرّ تلاميذ المدارس من الذكور والإناث للدوران لتخطي الشوارع المحظورة على العرب، فيخرجون من الأبواب الخلفية ويمرّون فوق أسطح البيوت المجاورة، يصعدون سلالم ويهبطون أخرى. كما يضطرّ أصحاب الحاجة للدوران ثمانية كيلومترات كي يبلغوا المقصد غربيّ المدينة أو شرقيّها. صدر قرار المحكمة العليا الإسرائيلية بفتح الشارع، ورفضت إدارة الاحتلال أمر المحكمة.

أطلقت الشرطة اسم «عبد» على نقطة تفتيش أقامتها قرب مدخل الحرم الإبراهيمي. وعبد صاحب محلّ سينتواري يبيع التحف المحليّة والمطرّزات، ولا يصله إلا السياح. وتنفّح على الساحة مكبّرات صوت تطلق الموسيقى في أي وقت على مدار الساعة من محلّ لبيع التحف التذكارية للسيّاح يملكه ثريّ يهوديّ من استراليا يدعى غوتنيك. عرض هذا ملايين الدولارات ثمناً لد كانه عبد وبيت قديم للعائلة، ورفض الأخير. تردّد الشرطة على سبيل النكتة أن عبد مجنون، إذ يرفض العرض السخيّ؛ أما الفلسطينيين فيعتبرون موقفه صموداً في الحفاظ على جزء من الوطن.



يفرض على المصلين المسلمين العبور عبر أكثر من نقطة تفتيش إلكترونية، ويتوقف العبور في حال انقطاع الكهرباء. وفي حالات كثيرة يمنع الأذان وتعطل الصلوات في الجامع في الأعياد اليهودية. وقد تم تقسيم الجامع بين المسلمين واليهود بعد تسعة أشهر من الإغلاق، إثر قيام المستوطن الدكتور غولدشتاين بإطلاق النار على المصلين في ساعات الصباح الباكر. سقط في هذا الحادث الهمجي تسعة وعشرون من أهالي المدينة، بعضهم أصيب برصاص الجنود خارج أماكن الصلاة.

تعيش مدينة الخليل في الضفة الغربية نظام أبارتهيد كاملاً فرضته إسرائيل كما كتبت الصحفية جين عدس على موقع ميدل إيست. تضمنت رسالة الصحفية مقابلة أجرتها مع عبد الكريم الذي يعيش قرب إحدى المستوطنات. اعتدى المستوطنون على سيارته الواقفة عند البيت، وشاهدتهم ابنه سمير (22 عاماً) فتدخل لمنع تخريب السيارة، واتصل هاتفياً بالشرطة الإسرائيلية؛ إذ لا يسمح للشرطة العربية بدخول المنطقة، نظراً لكونها خاضعة لسلطة الاحتلال. وصلت الشرطة واعتقلت سمير بناء على ادعاء كاذب من جانب المعتدين. بقي سمير في السجن ثلاثة أشهر، وأفرج عنه بكفالة نقدية مقدارها خمسة آلاف شيكل.

### تنقيب برسم التهجير

لا يتوقف الإعمار عن اندفاعته الهوجاء، وسلوان في محنة. باسم التخيلات التوراتية تنفذ الإجراءات الكفيلة بتدمير البنى الأساس لسكن العرب في هذه البلدة. في هذه الأثناء لم يقبل خبراء الآثار التوراتيون أية وثيقة تدل على الوجود الإسلامي المديد في المنطقة. ولم يبق الإسرائيليون على أثر معماري يخص المسلمين في المتنزه القومي المقام في سلوان، الأمر الذي يدل على سياسة اقتلاع. وقد انتهك الباحثون في الآثار القواعد الأخلاقية للتنقيب التي أقرها المؤتمر الأركيولوجي الدولي؛ وهم يركزون الجهود على استكشاف بقايا مملكة يهوذا. ومن هذه القواعد الاعتراف بالتراث الثقافي للآخر، بما في ذلك الأماكن، المواقع، المواضيع والصناعات اليدوية والبقايا البشرية، وكذلك إقامة علاقات وشراكة متكافئتين مع السكان الذين تجرى الحفريات وسط تراثهم الثقافي.

صدر بيان تضامني مع أهالي سلوان المحاذية للبلدة القديمة، أصدره ييغئال برونر، المحاضر في قسم اللغات والحضارات الآسيوية بجامعة شيكاغو، ونيفيه غوردون أستاذ العلوم السياسية بجامعة النقب. تضمن البيان انتهاكات الاحتلال الإسرائيلي لحقوق المواطنين العرب ولللقانون الدولي لصالح الحركات الاستيطانية. جاء في البيان:

”أصبح التنقيب الأثري سلاحاً لتهجير الناس من ديارهم.“ هذا ما قاله يوناتان مزراحي أحد علماء الآثار في إسرائيل في مكالمة هاتفية. وهو بقوله يستشهد بمثل أسلوب استخدام التنقيبات

الأثرية في سلوان ، المدينة الفلسطينية المجاورة للقدس القديمة؛ حيث ، كما نعتقد ، يجري تنفيذ الحفريات كجزء من حملة منهجية لطرد الفلسطينيين من وطن الآباء .

وتنظم هذا الجهد منظمة إسرائيلية للمستوطنين عرفت بالاسم "إلاد" ، المكوّن من الأحرف الأولى للكلمات العبرية "مدينة داود" ، هذه المدينة التي فشل التنقيب عنها منذ أن دشّن ، العام 1867 ، وتجزم الدراسات التوراتية أنها لم تقم يوماً في فلسطين . ومنذ سنوات عدّة والمنظمة تلجأ إلى مختلف الوسائل لتهجير يهود القدس الشرقية وإحلال المستوطنين محلهم . واليوم تنتشر في البلدة دزينة من البؤر الاستيطانية . علاوة على ذلك ، تمّ عملياً تحويل جميع المناطق الملونة بالأخضر (على الخارطة) في الضاحية ذات الكثافة السكانية إلى مواقع للتنقيب الأثري ، جرت إحاطتها بالأسلاك ووضعت عليها الحراسات . وعلى اثنين من مواقع التنقيب شيّدت بيوت لليهود . ويغيب عن قائمة الموقعين على البيان عدد من أبرز علماء الآثار الإسرائيليين ، ممن يتقاضون رواتبهم من سلطة الآثار الإسرائيلية .

ان عينة من جهود التضييق تمهيداً للاقتلاع تتجسّد بالألم والمرارة لما يجري في بلدة سلوان من ضواحي مدينة القدس الشرقية . بات نمطياً في إسرائيل اللجوء إلى الماضي التوراتي لتمييز العدوانية الصهيونية عن غيرها من رواد المغامرات الكولونيالية؛ فالصهيونية أخيراً طرحت نفسها على الدوام حركة عودة إلى الوطن اليهودي الأصل ، لا عملية احتلال لأراضي الآخرين . ومنذ احتلال القدس الشرقية والحفريات الأثرية تجري ، دون نتيجة تذكر ، في محاولة لتقديم برهان على وجود داوود في المنطقة . في العام 1988 حصلت جمعية إيلاد الاستيطانية على مكافأة جزيلة ، حين أوكلت لها بلدية القدس وسلطة حماية المنتزهات القومية ، مقابل أجر ، مهمة إدارة "مدينة داوود" و"المنتزه القومي" الموجودين في سلوان . وإذ تحظى جمعية إيلاد الاستيطانية بدعم مختلف أذرع الحكومة الإسرائيلية ، فإنها تصعد جهودها لتهدويد القدس الشرقية . ومارست الجمعية ضغوطاً ناجحة على البلدية لإصدار أوامر بهدم ثمانية وثمانين بيتاً ، بحيث بات بمقدورها بناء منتزه أركيولوجي في منطقة مجاورة - وهو المسعى الذي علق مؤقتاً بتأثير الضغوط الدولية . انتهى البيان .

وقبل قليل شرعت سلطة الآثار الإسرائيلية في الحفر تحت بيوت الأهالي في سلوان دون أن تبلغهم . وخشية انهيار البيوت على أسرهم سارع الأهالي لتقديم التماس إلى محكمة العدل العليا لوقف الحفر . وفي ليلة تقديم التماس أغارت قوّة من الشرطة الإسرائيلية واعتقلت خمسة أشخاص . أصدرت المحكمة العليا أمراً يطلب من سلطة الآثار التوقف عن الحفر . وفي وقت لاحق صدر قرار عن المحكمة لصالح جمعية إيلاد الاستيطانية ، يتيح لها أن تدلي بمرافعتها . تردّدت المحكمة العليا الإسرائيلية في الوقوف في وجه إيلاد؛ فلم تصدر الأمر لها بإخلاء المنتزه القومي ، حتى بعد ثبوت تجاهل الإجراءات القانونية الأساس ، عندما فوّضتها الدولة بإدارته .

يقف بجانب أهالي سلوان عدد من العلماء الدوليين البارزين والأكاديميين في إسرائيل ، وهم يبذلون المساعي لتمكينهم من البقاء في بيوتهم . من بين هؤلاء ديفيد بيل عميد وبروفيسور كلية الإنسانيات بجامعة جون هوبكينز ، وجوديث بتلر أستاذة الأدب المقارن بجامعة كاليفورنيا في بيركلي ، ولورين داستون عميدة معهد ماكس بلنك لتاريخ العلوم في برلين ، وناتالي زيمون ديفيس أستاذة التاريخ بجامعة برينستون وبيغال رونر ، المحاضر في قسم اللغات والحضارات الأسيوية بجامعة شيكاغو ، ونيفيه غوردون أستاذ العلوم السياسيّة بجامعة النقب ، وغيرهم .

### تهويد القدس

وفي القدس المحتلة نفذت سلطات الاحتلال الإسرائيلي المزيد من الجرائم ضدّ الإنسانيّة، طالت أيضاً الشجر والحجر الفلسطينيّ . سجّل مكتب أبحاث الأراضي ، ومركزه حلحول ، ويتبع جمعيّة الدراسات العربيّة ، وقائع تكثفت على يد السلطات المحتلة من فرض سياسات تهويد القدس التي تسعى لإفراغها من أصحابها الفلسطينيّين - مسلمين ومسيحيّين - لإحلال مستعمرين يهود مكانهم ، وهو ما تتنافى مع أحكام القانون الدوليّ وقواعده ، غير آبهين بمبادئ الأديان التي تدعو للإيمان واحترام إنسانيّة الإنسان .

وقد تصاعدت الانتهاكات الإسرائيليّة ضدّ الفلسطينيّين وممتلكاتهم خلال العام 2010 في المدينة المقدسة . ومن أبرز هذه الانتهاكات الاعتداء على الحقّ في السكن الملائم حيث وثق «مركز أبحاث الأراضي» 129 حالة إخلاء وهدم للمنازل السكنيّة والمنشآت الزراعيّة والتجاريّة ، كما هدّد الاحتلال 252 منزلاً ومنشأة ، كل ذلك بحجة عدم الترخيص ، ذلك الترخيص صعب المنال للمقدسيّين في ظلّ وجود الاحتلال الذي يضع تعقيدات تعجيزيّة لا طاقة للمقدسيّ عليها .

وفي العام 2010 ، استولى المستعمرون ، وبتواطؤ رسميّ من بلدية الاحتلال في القدس الشرقية ، على 18 مسكناً فلسطينياً ، وهم يحاولون الاستيلاء على 56 مسكناً آخر . ولم تسلم مساكن القدس القديمة من التشققات والتصدّعات بفعل الحفريات التي تتم أسفلها ، ويتعمّد مستعمرو البؤرة الاستعماريّة في القدس القديمة وسلوان ضخّ مياه المجاري في اتجاه المساكن الفلسطينيّة وإغراقها بالمياه العادمة ، خصوصاً في فصل الشتاء ، حيث يتمّ امتزاجها بمياه الأمطار .

إضافة إلى هذه الاعتداءات على الحقّ في السكن ، لم تسلم بيوت القدس عامة ، وبيوت سلوان خاصة ، من المداهمات الليليّة واعتقال الأطفال من فراش نومهم . وقد تمكن مركز أبحاث الأراضي من توثيق 47 حالة مداهمة لمساكن تخلّلتها عمليّة اعتداء على أفراد العائلة وتفتيش دقيق وتخريب في محتوياتها ، إضافة إلى إرهاب الأطفال والنساء وإرهابهم .

وعلى صعيد مصادرة الأراضي ، منذ احتلال القدس ، العام 1967 ، ما زال الاحتلال يواصل سياساته في مصادرة الأراضي تحت حجج مختلفة ، لكنّ الهدف واحد ، وهو نهب الأرض من

أصحابها الفلسطينيين الأصليين ، وإعطائها للمستعمرين اليهود . وتمكّن مركز أبحاث الأراضي خلال العام 2010 من توثيق 1496 دونماً تمّت مصادرتها لصالح الجدار العنصريّ و/أو لتوسيع وإقامة وحدات استيطانية و/أو للصالح العامة التي بالطبع هي للمستعمرين اليهود .

وفي العام 2010 تم تجريف 157 دونماً من الأراضي الزراعيّة والاعتداء على 409 دونمات ، إما بإغراقها بالمياه العادمة و/أو حرقها وتدميرها . إضافة إلى ذلك تمّ حرق 730 شجرة وقلع 900 شجرة مثمرة و 2500 شجرة تمّ إغراقها بالمياه العادمة .

### تخريب منشآت إنتاجية

وثق مركز أبحاث الأراضي ، نحو 1010 حالة إخلاء وهدم في القدس منذ العام 2000 حتى 20 كانون الأول 2010 ، منها 31 مسكناً تم هدمها في العام 2010 ، وبلغت مساحة مسطحاتها 2572 م<sup>2</sup> كان يسكنها 224 مواطناً منهم 115 طفلاً ، و5 مساكن تعتبر قيد الإنشاء معظمها وصل أصحابها إلى المراحل النهائيّة في البناء . وبهذا فإن الاحتلال قضى على حلم 33 فرداً منهم 19 طفلاً في أن يعيشوا في مسكن ملائم يقيهم برّد الشتاء وحرّ الصيف ، وحرّمهم من حقهم في العيش الكريم .

كما قامت 9 عائلات مقدسيّة بهدم مساكنها بنفسها تفادياً لملاحقة بلدية الاحتلال لهم وفرض غرامات مالية باهظة ، تاركة في نفوسهم عذابات مستمرّة وآثاراً نفسية واجتماعيّة صعبة ، بعد أن قاموا بهدم ما بنوه في سنوات ، في ساعات معدودة . ولم يكتف الاحتلال بهدم المساكن؛ بل قام أيضاً بهدم المنشآت التجاريّة والزراعيّة للمواطنين الفلسطينيين؛ وهو يقوم بملاحقتهم في لقمة العيش للضغط عليهم بهدف إجبارهم على الرحيل من أراضيهم ليحل مكانهم مستعمرون يهود . في العام 2010 تم هدم 90 منشأة هي عبارة عن مزارع حيوانات و/أو غرف زراعيّة و/أو محلات تجاريّة و/أو جدار استنادي ، محجر ، مشتل الخ ، كما استهدف خياماً لنشطاء سلام . وتبلغ مسطحات هذه المنشآت 13668 م<sup>2</sup> ، كان يستفيد من هذه المنشآت أكثر من 330 فرداً معظمهم فقدوا مصدر رزقهم الوحيد . وشرّد أكثر من 250 رأساً من الأغنام و6 خيول وعدد كبير من الدواجن ، تركت في العراء في ظلّ البرد القارس . ولم يسلم الأموات أيضاً من عمليّات الهدم ، فقد قامت جرّافات الاحتلال بتدمير 160 قبراً للمسلمين في مقبرة مأمّن الله لإقامة متحف (التسامح) على أنقاض الأموات!

هدّد الاحتلال الإسرائيليّ 154 مسكناً منها 9 منشآت بالهدم في مواقع مختلفة بالقدس ، أدى ذلك الى جعل 834 فرداً في قلق دائم ومستمرّ على مصيرهم المجهول المنتظر . كما اصدرت بلدية الاحتلال أوامر متكرّرة بهدم مباني سكنيّة في القدس ، تمّ تهديدها في العام 2009 ، ويعاد تهديدها من جديد ، لتؤكد البلدية إصرارها على هدم الأبنية الفلسطينيّة . ولعلّ حي البستان

في سلوان وعمارة الشيخ في حيّ العباسية بسلوان يعدّان دليلاً على تكرار أوامر الهدم . وكان الاحتلال الإسرائيلي قد وجه إنذارات في العام 2009 بهدم 538 مسكناً يعيش فيها 4042 فرداً، ما زال معظمهم يصارع من أجل الحصول على رخصة بناء، لثببتهم في أرضهم .

تصاعدت عملية الاستيلاء على المساكن في العام 2010 مقارنة مع العام 2009، فتم الاستيلاء على 17 مسكناً . وفي العام 2010 استولى الاحتلال على 18 مسكناً منها بناية تتكون من 9 شقق تعود لعائلة قرّش بقيت فيها عائلة واحدة يحاول المستعمرون احتلالها . وما زالت المحكمة المركزية تماطل في إصدار قرار يفند ادعاء العائلات الاستعمارية ملكيتها لـ 17 مبنى في الشيخ جراح رغم وضوح الأوراق وإثبات ملكيتها للعائلات الفلسطينية في القدس؛ وذلك في محاولة للاستيلاء عليها . كما زوّرت دائرة الإجراء والشرطة الإسرائيليّين قرار المحكمة المركزية ضدّ عشر أسر تعود لعائلي غاوي وحنّون ، كان قد تمّ الاستيلاء على مساكنها في الرابع من آب 2009 . كان قرار المحكمة مع العائلات الفلسطينية فقط باسم ماهر حنون وعبد الفتاح الغاوي بينما نسخة القرار مع الشرطة والمستعمرين اليهود باسم ماهر وعبد الفتاح وكلمة «آخرون» التي بموجبها تمّ إخلاؤهم . وموقع - كنبانية أم هارون- الذي تعيش عليه 28 أسرة، يدّعي الاحتلال ملكيته لمستعمرين يهود؛ وهناك 10 أسر تعتبر غير محمية كونها تسكن دون عقود مع حارس أملاك الغائبين .

هذه الانتهاكات التي بمجموعها ترقى إلى جرائم يحاكم عليها القانون الجنائي الدوليّ، ويلزم الأطراف السامية الموقعة على توفير حماية دولية للشعب الفلسطيني وممتلكاته تحت الاحتلال . لكن الحكومة السويسرية، التي وقّعت على أرضها اتفاقية حماية المدنيين وقت الحرب، ترفض الطلب من إسرائيل مراعاة الاتفاقية أو رفع الأمر إلى الهيئات الدولية .

أكملت الصحفية في هارتس، أميرة هاس، صورة الأعاصير الاقناعية التي تهبّ على القدس وضواحيها، فكتبت تقريراً أوردت فيه أن عدد المساكن التي هدمتها الإدارة المدنية الاحتلالية في أقسام الضفة الخاضعة كلياً لإدارة الاحتلال، تضاعف ثلاث مرات عما هدم في العام الذي قبله . وقد حمّل المحامي شلومو ليكر، الذي يتولّى منذ أعوام الدفاع عن قبيلة الجهالين، مسؤولية الزيادة على الضغوط التي يمارسها المستوطنون ومنظمة ريغايم التي تشكلت مؤخراً .

في العام 2010، دمّرت الإدارة المدنية في منطقة جيم (وهي منطقة أقيمت مؤقتاً تحت الإشراف التام للاحتلال، بانتظار البتّ في أمرها في التسوية النهائية) مساكن تؤوي 86 مواطناً، حسب تقرير منظمة بيتسيلم، وذلك مقابل 28 مسكناً فقط، العام 2009 . وبالنتيجة بات 472 مواطناً فلسطينياً، بينهم 223 طفلاً، بلا مأوى .

ونقلت الصحفية تصريح مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية (أوتشا) حول حدوث ارتفاع في تخريب هياكل مشاريع إنتاجية في منطقة جيم، خاصة صهاريج المياه لريّ الأغنام وريّ

المزروعات . وأضافت هيئة أوتشا الدولية أن 14136 مواطناً فلسطينياً نكبوا جرّاء الإجراءات الاحتلالية؛ وهذا يوسع دائرة الفقر والاعتماد على المعونات الأجنبية ، وهو على المدى البعيد أشدّ ضرراً من هدم المنازل . وكمثال على الضغوط المتزايدة من جانب المستوطنين ومنظمة ريفافيم أورد المحامي ليكر أمر الهدم الصادر في شهر نوفمبر / تشرين الثاني 2010 عن الإدارة المدنيّة بحقّ القرية البدوية في منطقة الخان الأحمر . يقطن القرية قرابة المائة فرد منذ عقود عدة ، كما يقول السكان . ويعتقد ليكر أن أمر الهدم صدر بناء على التماس رفعته إلى المحكمة العليا في شهر أيلول / سبتمبر منظمة ريفافيم وثلاث مستوطنات قريبة ، هي كفار أدوميم وآلون ونوفي برات . طلب الملتمسون من المحكمة أن تصدر أوامر بهدم 258 مسكناً تخصّ قبيلة الجهالين بالمنطقة . ورغم رفض المحكمة للالتماس ، كما صرّح المحامي ، فقد طالب الملتمسون الإدارة المدنيّة بتنظيم حملة لإخراج الجهالين من المنطقة . وادعى ليكر أن أفراد وحدة التفتيش التابعة للإدارة المدنيّة هم من المستوطنين بصورة رئيسية ، أو أفراد يتعاطفون مع المستوطنين . وبالتّيجة قدّم المحامي التماساً إلى المحكمة العليا أشار فيه أنه طلب قبل أسبوعين إلغاء أوامر الهدم ، نظراً لأنها نابعة من «دوافع سياسيّة» ، وتخدم بصورة فعالة «كذراع عملائيّة لمجلس المستوطنات (بيشا) والمتعلق بمنع الفلسطينيين من البناء في منطقة جيم .» ولاحظ الالتماس أيضاً أنه بينما توجد مخططات تتيح تشييد العديد من المستوطنات ، فإنه لا توجد مثل هذه المخططات لصالح الفلسطينيين في مناطق جيم .

وتخضع بلدتا أبو ديس والعيزريّة لظروف طاردة للسكان . والعيزريّة تتاخم مستوطنة معاليه أدوميم ، وتقع أبو ديس بجوارها على تخم القدس . خطط الاحتلال لأن تكون البلدتان ضمن ما أطلق عليه منطقة باء (B) ومن ثم فهما تخضعان أمنياً بالكامل لسلطة الاحتلال . كان مقرراً إنهاء التقسيمات الإدارية للضفة (ألف وباء وجيم) في نهاية العام 1999؛ غير أنها استمرت حتى هذا التاريخ . وتشكل منطقة جيم الخاضعة كلياً لسلطة الاحتلال المباشرة ، والتي تشيّد عليها المستوطنات الجديدة ، نسبة ستين بالمائة من أراضي الضفّة .

في هاتين البلديتين اللتين تبعدان بضعة مئات الأمتار عن مستوطنة معاليه أدوميم ، وقرابة الثلاثة كيلومترات عن مركز قيادة امن الضفّة (يهودا والسامرة) تنتعش تجارة المخدرات والسلاح . والمشاركون في التجارة عملاء للاحتلال أو يجري توريطهم في العمالة . لا يسمح للأمن الفلسطينيّ بدخول المنطقة والقبض على تجار المخدرات . وبلغت التجارة السريّة حدّ العلنية ، وباتت تسبب الإزعاج والقلق لسكان المنطقة ، الأمر الذي يحدث مثيله في البلدة القديمة من مدينة الخليل (H2) الخاضعة لسيطرة الاحتلال المباشرة ، حيث تنتشر تجارة المخدرات والسلاح ، وتكثر عصابات الزعران والإجرام المنظم . وهذه إحدى الحيل الخبيثة لتتهجير الأهالي إلى مناطق ألف ، حيث الأمن والنظافة النسبية من المخدرات والسلاح ونشاط الجواسيس العلنيّ .

وفي 12 يناير 2011 دسّرت الإدارة المدنيّة 17 مبنى في قرية دقايقه البدوية جنوبيّ مدينة الخليل. حدث هذا رغم أن سكان المباني كانوا يجهّزون مخططاً تنظيميّاً للقرية، بناءً على اقتراح المحكمة العليا، التي وعدت بالنظر في التماسهم ضد أوامر الهدم، حالما تنجز الخطة التنظيمية.

بنيت في الضفّة وحدات سكنيّة للمستوطنين خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام 2010 ما يعادل البناء الاستيطاني خلال عام كامل في الفترات السابقة. وفي منتصف آذار 2011 أعلنت حكومة إسرائيل الشروع في بناء خمسمائة شقّة سكنيّة رداً على مأساة أسرة فوغل داخل مستوطنة إيتمار؛ وهناك آلاف الوحدات السكنيّة تنتظر البناء. يقطن الضفّة حالياً حوالي نصف مليون مستوطن، وجرى ضمّ سبعين كيلومتراً مربعاً من الأراضي حول القدس العربيّة، أحيطت بالجدار العازل. تمّ بناء مدن ضخمة للمستوطنين تربطها والمستوطنات الأخرى بالمدن الإسرائيليّة طرق سريعة من أربعة مسارب، تعبر الأراضي الفلسطينيّة. عملياً أتبعّت الضفّة الغربيّة بإسرائيل، فاغتصبت إسرائيل أوسع مساحة من الأرض بأقلّ عدد من السكان العرب، المحرومين من الحقوق المدنيّة ويخضعون لنظام عسكريّ فرض منذ حزيران 1967.

كل هذه الانتهاكات الإسرائيليّة، خاصة عمليّات هدم المنازل ومصادرة الأراضي وتجريفها، تأتي لتؤكد عزم الحكومة الإسرائيليّة وبلديّة الاحتلال في القدس على المضيّ قدماً في تنفيذ مخططاتها الاستيطانيّة الاستعماريّة، حيث أنها لم تتمّ أبداً على أساس تنظيمي - البناء غير المرخص - و/أو على أساس الاحتياجات الأمنيّة والضرورات العسكريّة؛ بل جاءت للصالح اليهوديّ الاستعماريّ الاستيطانيّ، وأهمها بناء المستوطنات الإسرائيليّة وشقّ الطرق الاستعماريّة والسكك الحديدية على حساب الأراضي الفلسطينيّة.

عمليّة هدم الممتلكات تعتبر خرقاً لاتفاقية جنيف المادة 53. نصّ الاتفاقية «يحظر على دولة الاحتلال أن تدمر أي ممتلكات خاصة ثابتة أو منقولة تتعلّق بأفراد أو جماعات، أو بالدولة أو السلطات العامة، أو المنظّمات الاجتماعيّة أو التعاونيّة، إلا إذا كانت العمليّات الحربيّة تقتضي حتماً هذا التدمير». وعمليّة المصادرة تعتبر خرقاً صارخاً للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي ينصّ في مادته الـ 17: «لكلّ شخص حقّ التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره». كما نصّت المادة أيضاً «لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفاً».

هذه مجرد جبهة واحدة من عدة جبهات تعمل عليها كواسر الأبارتهيد، وغايتها معلنة: جعل الحياة لا تطاق ودون مخرج أو أمل سوى الهجرة من الديار. ومن يسافر من رام الله شمالاً يجد جميع الجبال والتلال على جانبي الطريق تحمل بؤراً استيطانيّة أو مستوطنات. وما من بلدة أو مدينة في الضفّة إلا وتحيط بها، أو تشرف على منافذها، المستوطنات أو الطرق الاستيطانيّة، بما يولد القناعة أنّ إسرائيل تخطط لحملة تطبق من خلالها على المجمعات السكنيّة العربيّة المتبقية في فلسطين. والمتجه جنوباً من بيت لحم يشاهد على الجانبين مجمع مستوطنات غوش

عصيون ، المعدّ لأن يكون امتداداً لمدينة القدس الكبرى ، المخطط لها أن تبلغ محاذاة بيت أمر والعروب في محافظة الخليل ، على الطرف الجنوبيّ من الضفّة الغربيّة . وهذه المستوطنات تشكل أيضاً نقاطاً عسكريّة مبنية طبقاً لمخطّط الاستعداد لصراع عسكريّ يقع في أرشيف إسرائيل . وكان يغتال آلون ، القائد العسكريّ المشهور ، قد كتب في مؤلفه «بناء الجيش الإسرائيليّ» أن البناء الاستيطانيّ لم يسترشد باعتبارات اقتصاديّة بقدر ما استرشد بالاعتبارات العسكريّة للصراع القادم مع العدو .

### تخريب الثقافة

وظفت إسرائيل «لغة المفاهيم» التي تترك الانطباع النفسيّ المناقض للحقيقة . والمرسلون الصحفيّون لا يفرض عليهم أيّ تعبير؛ لكنهم يتوخّون السلامة عن طريق نقل التعبيرات التي يطلقها الناطق العسكريّ . ومع الزمن غدا استخدام التعبيرات عادة . أدخلت إسرائيل تعبيرات مضللة تستر بها على أطماعها في الأرض . فهي تردد كلمة تنازلات أو تنازلات أليمة ، بينما المفروض عليها هو الالتزام ، والالتزام ليس تنازلاً؛ إنه إلزام إسرائيل بالاتفاقات المشتركة وبالقرارات الدوليّة والقوانين الدوليّة الإنسانيّة . المقارنة ليست بين وضع العرب اليوم في إسرائيل ووضع اليهود في سنوات المحرقة ، ولا حتى في أيام حكم النازي التي سبقت المحرقة ، وإنما في فترات الحصانة والتعشيش الطويلة ، التي سبقت النازيين ، والتي مهدت قلوب الألمان لصعودهم . «من الصعب الوقوف أمام الواقع الإسرائيليّ الآنيّ ، الذي بسببه لا يجوز لنا تجاهل الحقيقة بأن اللغة العبريّة المعاصرة قسماً كبيراً في غسل كلمات تخفي واقعا استعلائياً ، عنيفا وربما عنصرياً تجاه العدو العربيّ . ربّونا على 'طهارة' السلاح ، تناقض ممتع ومهدئ غايته تنظيف الضمير وفوهة البندقية بجرّة قلم . كأنهم يقولون لنا إذا قتلت بسلاح 'طاهر' فإن كل شيء حلال» . [بورغ 101]

وبينما تدّعي إسرائيل أنها صاحبة السيادة على القدس الشرقية ، فانه ما من دولة من بين 194 عضو في الأمم المتّحدة تعترف بادعاء إسرائيل . وإذا لم يجادل أحد قانونياً أو بالمعنى الحرفيّ للكلمة في السيادة الفلسطينيّة على قطاع غزة والضفّة الغربيّة (رغم أن ذلك لم يتم «الاعتراف» به على النطاق الدوليّ) ، فإنه لم يعد خافياً أنه ، منذ إعلان دولة فلسطين عام 1988 ، فإنها الجهة الوحيدة التي تؤكّد سيادتها على تلك الأجزاء من فلسطين التاريخيّة التي احتلتها إسرائيل عام 1967 (بمعزل عن القدس الشرقية الموسعة) ، وهي الدولة الفلسطينيّة .

واللغة المضللة تترك أثراً مدمراً فيما يتعلق بالقدس ، فلعدة سنوات خلت والسياسيون يردّدون في إسرائيل أن القدس «يجب أن تبقى موحدة تحت السيادة الإسرائيليّة» . نفهم أن إسرائيل تصدق أنها تملك السيادة على القدس؛ لكنّها في الحقيقة فاقدة للسيادة؛ فهي لا تملك سوى سيطرة إدارية . وإذا كان بمقدور بلد أن يمتلك سيطرة إدارية عن طريق القوة ، فلا يستطيع الاستحواذ على السيادة (المعادل على مستوى الدولة للعنوان أو التملك) إلا بموافقة المجتمع الدوليّ .



ومباشرة بعد الاحتلال أقدمت السلطة العسكرية على تغيير المناهج التعليمية. حذف العديد من المفاهيم والقيم الفلسطينية الوطنية، ومنع تدريس كتب التربية الوطنية، واستبدلت بالمديّنات المتضمنة محتوى يشوّه الحقائق الجغرافية ويزيّف الحقائق التاريخية، ويطمس ويشوّه عقيدة الإسلام والإرث الحضاري والثقافي. جاء هذا نقيضاً لمتطلبات اتفاقيات جنيف التي تحظر تغيير المناهج التعليمية في المناطق المحتلة، وتحدياً للمادة الرابعة من اتفاقية حقوق الطفل الدولية التي تنصّ على اتخاذ التدابير التشريعية الإدارية لإعمال الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومع المادة الثلاثين من الاتفاقية نفسها، التي تكفل للطفل وأسرته التمتع بثقافتهم.

وبعد إعلان «توحيد المدينة» تم فرض المنهاج الإسرائيلي في المدارس. أتبعَت المدارس العربية بالأوقاف الإسلامية، كي تحتفظ بالمنهاج الأردني المعدل. ولم تول عناية تذكر من قبل السلطة المحتلة أو من قبل بلدية القدس اليهودية. حضارة، لغة كاذبة تنتج ثقافة كاذبة، مجتمع غير مبال ومسدود، وأسوأ شيء لغة 'غير دقيقة' لدولة تسمح لمواطنيها وشركائها بالتنصل من مسؤولياتهم عن أعمال يتم تنفيذها باسمهم ومن أجلهم. «نحن لا نعترف بمستويات العداة ولسنا مستعدين للقبول بعدو هو مجرد خصم، أو إيمان بقاء احتمال بأن لديه مصالح شرعية. دائماً جميعهم يوشكون على إبادةنا. ' ونحن منشغلون فقط بالدفاع عن أنفسنا» [بورغ:97]

بدأ تدهور قطاع التعليم في مدينة القدس نحو كارثة حقيقية بعد استكمال بناء جدار الفصل والتوسع الإسرائيلي. فقد ألحق الجدار ضرراً بالغاً بالقطاع التعليمي في القدس، حيث لا يسمح لمدرسين ولا طلبة من خارج ما يسمى بحدود بلدية القدس بالتدريس والدراسة في المدارس داخل الجدار، وبما يوشر إلى سعي الاحتلال الجدي لتدمير العملية التربوية والتعليمية في المدينة، ضمن السياسة الإسرائيلية الهادفة إلى تهويد المدينة وأسرلة سكانها. سلطات الاحتلال ترفض منح تصاريح بناء مدارس، وبالتالي تتفاهم الأزمات يوماً بعد يوم، يدعمها وجود الضائقة المالية التي تهدد تطوّر واستمرارية المدارس. العملية التدريسية تتسبب في تفشي بعض الظواهر السلبية ومظاهر العنف والانحراف بين الشباب، والتي يعمل الاحتلال على تغذيتها بشتى الوسائل. بلغت نسبة التسرب بين الجنسين مستوى عالياً في المرحلة الثانوية - حوالي 3.3% في المدارس الحكومية والخاصة، و10% في مدارس المعارف الإسرائيلية. نتيجة للتقصير المتعمد. الدراسة تتم داخل مبان مدرسية هي عبارة عن بنايات قديمة، غير مؤهلة لاستيعاب الطلاب بأعداد كبيرة، كما أن صفوفها مكتظة، وتفتقر لوجود ساحات وملاعب، إضافة إلى أنه لا تتوافر فيها الشروط الصحية، وتفتقر إلى المرافق التعليمية المناسبة كالمكتبات والمختبرات. حتى أن الغرف الصفية للمدرسة الواحدة، تكون موزعة على أكثر من بناية ومتباعدات عن بعضهن بشكل كبير. ومع هذا بلغت الإجراءات السنوية المستحقة لمدارس القدس فقط، ما يزيد عن 800 ألف دولار أمريكي. والمعطيات التي صدرت عن المكاتب الرسمية الإسرائيلية، أشارت بشكل جلي وواضح إلى حجم الكارثة والمأساة، عندما اعترفت

لأول مرة، بأنه من كل طالبين من طلاب المرحلة الثانوية في المدارس الحكومية العربية ينجح في الشهادة الثانوية طالب واحد. إن الإجراءات التي تمارسها إسرائيل في القدس تستهدف النّيل من الطفل والأسرة العربية في المدينة، تتعمّد إيذاء الأطفال على وجه الخصوص، كونهم يشكلون الامتداد الطبيعي للوجود العربي في المدينة المقدّسة. وهذه الإجراءات لا تلقى الشجب اللازم من قبل الدول المقرّرة على الساحة الدوليّة؛ ما يعتبر مساندة لإسرائيل في مساعي تهويد المدينة وحمل المجتمع الدوليّ على التسليم بأن القدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل، وذلك استناداً إلى التّخيلات التوراتيّة.

### التحدّي

الإعصار اليمينيّ الاقتلاعيّ، تتناوب الأدوار فيه وتتكامل جهات دينيّة وأكاديميّة وسياسيّة من داخل إسرائيل وخارجها، ويستفزّ أصحاب الضمائر من كل الأعراق والأديان. «لا تقولوا هذه مجرد كلمات». الكلمات تقتل، الكلمات تحيي، الكلمات تعكس، «الحياة في أيدي اللغة»، ليس مجرد تعبير عبري قديم، إنما حقيقة إسرائيليّة مرّة. إذا أنصتنا جيداً للكلمات حياتنا ليس فقط لنغمتها، لن تتمكن من التهرب من الاستنتاج أننا قرييون من لغة الموت أكثر بكثير من قربنا من لغة الحياة». [بورغ: 106]

وضمن هذه الأهداف المناهضة لقيم الإنسانيّة والحضارة الديمقراطيّة يلعب تيار المحافظة الجديدة في الولايات المتّحدة، المستند إلى أصوليّة مسيحيّة، دور المايسترو. الأصوليتان المسيحيّة واليهوديّة تضيفان القداسة وإرادة الرب على الجريمة المنظّمة. في العام 2008، وقبيل غزو غزّة، وزع على وحدات الجيش كتيّب تحريضيّ يقرّر كاتبه أن إيذاء الرحمة تجاه العرب يعادل الخيانة. يحفز المشهد البائس وقفات إنسانيّة ترفض تعقيب العقل والشرف والضمير؛ لم تشكل المصدر الرادع بعد؛ إنما تعمقت في الكشف عن عناصر الفضيحة.

هاجمت وزيرة خارجيّة الدانيمارك، ليني أسيرسن، البناء الاستيطانيّ على الأراضي العربيّة ودعت رجال الأعمال في بلدها عدم التعامل مع المستوطنات. وأثنى وزير خارجيّة النرويج يوناس غار-ستور، على كتاب ألفه الطبيبان النرويجيان اللذان عملا في غزّة أثناء العدوان الإسرائيليّ وضمّناه جرائم الحرب المقترفة. كما وجه مائة كاتب ومنتقّف من النرويج نداء بمقاطعة إسرائيل ثقافيّاً وأكاديمياً. وقاد الحملة إيغيل دريلو أولسن مدرّب فريق كرة القدم الوطني، الذي قال إن الحملة تعبر عن تسعين بالمائة من الجمهور النرويجي.

وتشكلت داخل إسرائيل حركة «أمهات ضد الحرب»، بمبادرة الطبيبة نوريت بيليد إحانان. مضت الطبيبة تنشر أفكارها داخل إسرائيل وفي الخارج. ألقت كلمة أمام برلمان أوروبا بدعوة منه كشفت فيها جرائم الحرب ضدّ شعب غزّة. قالت إن الفاشيّة اليهوديّة تهيمن على قيادة

وحدات الجيش الإسرائيلي وبعض قياداته المركزية. وهذه الهيمنة وثافتها العنصرية مصدر الجرائم المقترفة في حرب غزة. وهناك مدارس دينية يتعلم فيها العساكر تعاليم التوراة بصدد إبادة الغوييم وتنتشر على نطاق واسع فتاوى الحاخامات داخل صفوف الجيش وبين المستوطنين.

أورد الموقع الإلكتروني «ميدل إيست MIDEAST.ORG»، وهو موقع يشرف عليه مثقفون أميركيون مناهضون للعولمة، كان من بينهم إدوارد سعيد، أنه في كل يوم، ينبري المزيد من الشخصيات اليهودية المشهورة - كتاب، فنانون، أكاديميون - ويصفونها بالدولة العنصرية والكيان الكريه وغير الإنساني، الذي يتوجب تفكيكه. والكثيرون من هؤلاء يقومون بأدوار ريادية في الحملة العالمية لنزع الشرعية عن إسرائيل؛ ومن شأن هجماتهم التي لا تتوقف أن تضع حدا لسيادة دولة إسرائيل. وانضم فنانون إسرائيليون، منهم من داخل إسرائيل كل من الفائز بجائزة الدولة التقديرية ديفيد تارتاكوف، والمغنية رونا كينان والشاعر مائير وايزلتر وغيرهم إلى المعركة المناهضة لقانون معاقبة دعاة مقاطعة إسرائيل. وقال الكاتب سفي راشليفسكي إن إسرائيل تصرفت كدولة إجرام. وفي هرتسليا تنور ضجة ضد إطلاق اسم الفيلسوف الأكثر نفوذا في إسرائيل، يشيياهو ليو فيتش، المناهض للاحتلال والذي صاغ مفهوم "النازيين اليهود" وأطلقه على الجيش الإسرائيلي. وتساءل جورج ستاينر، الذي يعتبر أهم ناقد أدبي في العالم فيما إذا كانت إسرائيل ستظهر إطلاقا في بلد غير فلسطين. أما إريك هوسباوم، أحد أعظم المؤرخين الأحياء، فقد ساند الانتفاضة الثانية باعتبارها حركة تحرر.

ريتشارد فالك، مقرّر حقوق الإنسان في فلسطين، مبعوث الأمم المتحدة السابق، هو أحد أكثر المنددين بدولة إسرائيل حدة. وهارولد بنتر، الروائي الفائز بجائزة نوبل والمخرج السينمائي كين لوتش ومايك لبي والمؤرخ أيلان بايه من أشهر المناوئين لإسرائيل في المملكة المتحدة. وكتب محرر "ميدل إيست": كانت المبادرة بالدعوة لمقاطعة إسرائيل قد استهلتها الأكاديميان اليهوديان الشهيران ستيفن وهيلاري روز. كما أن عالم اللغويات نوعام تشومسكي، "العراب الثقافي" لحملة مناهضة إسرائيل، يسعى لإلغاء دولة إسرائيل. والفيلسوفة اليهودية جوديث بلر تقود الحملة من أجل سحب الاستثمارات في إسرائيل. ومجلة تيكون، التي يرأس تحريرها ميشيل ليرنر، والتي ربما تعتبر الأنف هجوما ضد إسرائيل تنظمها مجلة تصدر تحت إشراف يهودي؛ وفي إسرائيل ينشط "الكنعانيون الجدد"، حايم هانغبي وميرون ينفينستي، اللذين توصلا إلى الاستنتاج أن "إسرائيل لن تستمر طويلا كدولة يهودية". وفي باريس يقوم بالتحريض ضد إسرائيل الكاتب ستيفان هيسيل يهودي الديانة، وكتبه من الأكثر مبيعا في فرنسا. ويجري التقليل من الضرر الذي ألحق بسمعة إسرائيل من قبل أمثال هؤلاء المثقفين، مع أن دعايتهم قوية التأثير.

وقد دعت إيلين فالينسكي، وهي يهودية ألمانية، في مؤتمر نظم في شتوتغارت، إلى وقف إرسال السلاح إلى إسرائيل لأنه يستعمل في اقتراف جرائم الحرب.

وتتسع في الجامعات الأميركية حملات معارضة للممارسات الإسرائيلية . أعلنت جامعة دي بول في شهر نوفمبر 2010 وقف تقديم حمص تورده شركة سايرا الإسرائيلية المؤيدة للجيش الإسرائيلي . وفي ولاية مينيسوتا بدأت جماعة سلام حملتها لوقف شراء سندات حكومة إسرائيل إلى أن يتوقف اضطهاد الفلسطينيين . ودعت لجنة شيكاغو من أجل سلام عادل في فلسطين إلى وقف تقديم المساعدات إلى إسرائيل .

في الغرب تتسع الحملات الشعبية المنددة بسياسات إسرائيل العنصرية؛ بينما حكومات الغرب تظهر الدعم غير المتحفظ للسياسات نفسها ، والبعض بدأ يظهر الامتعاض ، مدركا أن الاعتراض على سياسات إسرائيل محفوف بالعواقب السيئة . المصيبة تكمن في ضعف مفاصل الديمقراطية في بلدان الغرب؛ حيث مطالب الشعب لا تعبر المجالس التشريعية ولا تحظى باهتمام السياسيين المتنفذين .

## أعمدة ودعامات

### خرافات ورؤوس نوية

التاريخ ينتقم ممن يسخرون من التاريخ - شلومو ساند

الأكذوبة لا تدوم - توماس كارلايل

تحدي الاستشراق ، والحقبة الاستعمارية التي كان جزءاً عضويًا منها ، كان بمثابة تحدٍ لحالة البكم المفروضة على الشرق كموضوع . وبقدر ما كان علماً للإدماج والإدراج ، وهي الفضيلة التي أتاحت تأسيس الشرق ثم إدخاله إلى أوروبا ، كان الاستشراق حركة علمية لها في عالم السياسة التجريبية نظير هو مراكمة الشرق وحيازته استعماريًا من قبل أوروبا - إدوارد سعيد

.....

سبقت الصهيونية المسيحية شقيقتها اليهودية . برزت فكرة الاستحواذ على فلسطين لدى المسيحية الأنغليكانية في وقت مبكر ، سبق بقرنين من الزمان تشكل الحركة الصهيونية . كانت الفكرة باهتة لدى البروتستانتين مع حركة الإصلاح الديني في مطلع العصر الحديث؛ غير أن إسكات التاريخ الفلسطيني كان واضحاً بجلاء . ففي كتاب رحلات وضعه الرحالة الإنجليزي هنري مانداو ، «من حلب إلى القدس» ، العام 1697 ، تعمد المؤلف إنكار وجود مجتمع بشري في فلسطين؛ اكتفى بنصف صفحة فقط لعرض واقع القدس الاجتماعيّ متمثلاً في الكنائس المسيحية «المقرفة»؛ وتنازلت من بعد ذلك الصور الفوتوغرافية والخرائط والكتابات ثم الأبحاث ، وكلها موجهة بقصد فرض إسكات فلسطين واختلاق الدولة اليهودية القديمة على الصورة المتخيلة والمرسومة لإسرائيل الحديثة ، دولة تشغل حيزاً كبيراً في المنطقة ، قاعدة للهيمنة الكولونيالية للغرب الذي أخذت تراوده أطماع الغزو الكولونيالي . ومن فرضية الإسكات دبرت المجازر المتعاقبة ضد الشعب الفلسطينيّ بقصد إفناء وجوده على «أرض الميعاد» . كانت طلقة انطلاق السباق شعار «شعب بلا أرض لأرض بلا شعب» .

بهذه النظرة الاقتلاعية استرشد رسامو الخرائط والمصورون ، إنجليز وأوروبيون . رسموا خرائط والتقطوا صوراً لمعالم مدينة القدس خالية من البشر . أولى الخرائط رسمها كاتروود ،

العام 1838 واستبدل الأقصى وقبة الصخرة بـ «جبل الهيكل» [حجازين: 2765]. والخرائط اختراع حدثي يجسد باللمس حدود الوطن، ويسغ قداسة على الأرض المحددة كوطن. والوطنية غريزة نلمسها لدى الكائنات الحية. استوحى كاتروود في خريطته كتابات التوراة؛ وفي زمن لاحق رسمت الخريطة خط سير الجيش البريطاني لدى احتلال فلسطين بقيادة الجنرال ألنبي. ومن المسيحية الأصولية استوحى الجنرال قولته «الآن انتهت الحروب صليبية». وقد شرع تدريس المسيحية الأصولية في الكليات العسكرية بقصد إضفاء «قداسة» مزعومة على مغامرات الإمبريالية.

لدى الإفصاح عن الأطماع التوسعية الإسرائيلية والرغبة المشتركة بين إسرائيل ودول الغرب في أن تغدو دولة إقليمية، فقد اختلقت الأبحاث التوراتية لإسرائيل القديمة صورة لدولة داود المترامية الأطراف، حتى لقد ذهب علم البيولوجيا في إسرائيل نحو محاولة التقاط الجينة اليهودية المميزة. ثم تبين عدم وجود قومية يهودية نقية أو شعب يهودي واحد يعود في أصوله الإثنية والبيولوجية إلى جذر منفرد كما يزعم الفكر الصهيوني. هناك الدين اليهودي وأتباعه ينتسبون إلى قوميات وإثنيات وجغرافيات متنوعة ومتباعدة، ولا يربطهم سوى الانتساب إلى هذا الدين، كما هي حال المسيحيين أو المسلمين أو غيرهم في التاريخ الماضي والحاضر. وهذا ما اضطلع به البروفيسور شلومو ساند.

### الصهيونية المسيحية

في منتصف القرن التاسع عشر تم وضع المشروع ذو الهدف الوحشي لشطب فلسطين تاريخاً ووجوداً اجتماعياً من خارطة المنطقة وإلحاق المكان عضواً بالإمبريالية العالمية. شاع مفهوم «استعادة القدس»، إلى حظيرة المسيحية الأوروبية ذات النزعة الكولونيالية. وسوف يوضح علم الآثار في القرن العشرين أن التلمود ينطوي على خرافات متخيلة ليس إلا، مبتورة عن التاريخ الحقيقي للقدس وفلسطين؛ غير أن أعداء الشعب الفلسطيني لا ينطلقون من نوازع علمية موضوعية، ولا من فهم إنساني للدين؛ فهم يسخرون الدين ويشوهون العلم في إصرار على تمويه أهدافهم. نقل المؤرخ الفلسطيني، [توما: 449] عن كتاب «الصهيونية والسياسة الدولية» لمؤلفه هوراس ماير كالين أن «فكرة بعث إسرائيل انتشرت على صعيد السياسة العملية والمستوى الديني بين غير اليهود بصورة أوسع من انتشارها في الأوساط اليهودية». ونقل عن هومفورت في مؤلفه «ملاحظات حول وضع اليهود في فلسطين 1852»: «لم تكن إقامة الدولة اليهودية عملاً إنسانياً عادلاً، بل ضرورة سياسية في الذهن البريطاني لحماية الطريق عبر آسيا الصغرى إلى الهند». وكان اللورد روتشيلد قد مؤل صفقة شراء حصص مصر في قناة السويس، العام 1875؛ وبعد سنتين مؤل مستوطنة بتاح تكفا، أول مستوطنة تبنى بجهود يهودية. ولدى انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول 1897 كان في فلسطين 22 مستعمرة تستحوذ على مائتي ألف دونم

يقطنها أربعون ألف يهوديٍّ مزوّدين بالمعدّات والخدمات التعليمية والطبية، وبأموال المؤسسات الصهيونيّة، ويمارسون تجاه الفلاحين الفلسطينيين سلوكاً استعلاياً عنصريّاً. وقد لاحظ هذا السلوك أحد هعام (أشر غينزبرغ) 1856 - 1927 الفيلسوف اليهوديِّ المعارض للصهيونيّة هيرتزل، أثناء جولة قام بها عام 1891 في فلسطين.

اتفقت مرامي رسل الاستعمار من أقطار أوروبا كافة على تجميد تاريخ فلسطين وشطب معالمها الحضارية الممتدة منذ أواخر العصر البرونزي مروراً بالحضارة العربيّة-الإسلامية في العصر الوسيط. في العام 1865 تأسس تحت رعاية ملكة بريطانيا «صندوق اكتشاف فلسطين» [كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطينيّ - ترجمة سحر الهندي، عالم المعرفة عدد 249 لعام 1999، ص 17]، كي تكون له القوّة والسلطة المعنوية. كان أول رئيس للصندوق أسقف يورك. جاء في وثيقة أهداف الصندوق أنه «جمعيّة تستهدف الدراسة الدقيقة والمنهجية لآثار فلسطين وطوبوغرافيتها وجيولوجيتها وجغرافيتها العينية وطبائع وعادات الأرض المقدّسة بغرض تصوير الكتاب المقدس»، بمعنى تجسيده واقعا حيّاً [د. حجازين: مصدر سابق].

دون انتظار معطيات الاستكشاف، شرعوا في إلباس شوارع القدس والهضاب المحيطة بأسماء منزوعة من الكتابات الدينيّة كذلك. شرعوا في عمليّات التنقيب في مدينة القدس تحت الأقمصى العام 1867 [كيث وايتلام: 17]. بدأت الأبحاث الأثريّة تنقب عما أسمته «مدينة الملك العظيم» و«الهيكل»، بقصد فرض الحلم والصورة التوراتيين. ارتبطت المساعي لاستعمار فلسطين من جانب بريطانيا مع النشاطات التي قام بها صندوق اكتشاف فلسطين. نفذ الصندوق عمليّة مسح لفلسطين صنّفت المواقع والأماكن في 46 صنفاً [جبال، وديان، ينابيع، مقامات الخ.]. وأصدر 26 خارطة لفلسطين بمقياس رسم 1:60000. [كيث وايتلام: 17].

وليس صدفة أن الشخصيات الرئيسة هي نفسها التي لعبت الدور الأساسي في كلا المسعين. وتكشف وثيقة تأسيس الصندوق ذلك حيث ترد فيها قائمة بأسماء أعضاء اللجنة العامة للصندوق اكتشاف فلسطين والمكونة من 108 شخصيات ومعظمها من رجال الدين والدولة والجيش ورئيسها كان رئيس أساقفة يورك.

اعتنق اللورد شافنيسري (1801 - 1885) اللاهوت الأصولي، وراح يدعو اليهود للهجرة إلى فلسطين، وهو الذي صاغ الشعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، قبل ستين عاماً من المؤتمر الصهيونيّ الأوّل. وقبل المؤتمر أيضاً انعقدت أواصر الصداقة بين لورد آرثور بيلفور وهيرتزل. جمع بينهما ويليام هيتششر (1845 - 1931) حين عمل مبعوثاً للكنيسة الأنجليكانية البريطانيّة في فيينا. الأوّل صهيونيّ مسيحيّ، ونشأت علاقة حميمة بينه وبين رئيس وزراء بريطانيا ديفيد لويد جورج؛ كانا صهيونيّين مسيحيّين. واعترف هيرتزل في مذكراته بفضل المسيحيّة الأصوليّة، وأيد هيتششر إذ قال «نحن مهدنا الأرض لكم».

وردت هذه المعلومات في بحث الدكتور دونالد واغتر، أستاذ الأديان والدراسات الشرق أوسطية بجامعة نورث بارك في شيكاغو، والمدير التنفيذي لمركز دراسات الشرق الأوسط؛ وقد نشر البحث على الموقع الإلكتروني الأميركي «ميديل إيست ريبليتز»، ووردت تقييماته في دراسة نشرت على خمس حلقات بصحيفة ديلي ستار البريطانية ثم نشرها موقع «ميديل إيست ريبليتز» الإلكتروني في شباط 2004. والبحث عرض نقدي لكتاب ألفه البروفيسور ستيفن سيزر Stephen Sizer رئيس جمعية الكتاب المقدس، وهو مسيحيّ أنغليكاني متحمّس للفكر الصهيونيّ. وانتقد واغتر مؤلف سيزر، وبالذات دعم الاستيطان وتهجير العرب وتهديم الحرم الشريف. صاغ سيزر كتابه بأسلوب شيق أغرى الملايين بقراءته، كما قال واغتر. وفي معرض تطوّر الفكرة بعد ارتباطها بالصهيونية اليهودية والتوسع الكولونيالي للإمبريالية، نشط الكاهن جون نيلسون داربي (1800-1882) يركز للمشروع الصهيونيّ، ووضع في صلب مهمّاته التمهيد لأحداث تداعى قبل حلول الألفية السعيدة تسبقها عودة اليهود إلى "أرض الميعاد" وقيام دولة إسرائيل هناك، وبناء الهيكل على موقع الحرم الشريف. نشط في أوروبا ثم سافر إلى الولايات المتحدة للتبشير بلاهوته، وأحرز نجاحات لمساعيه. ومن مريديه ويليام بلاكستون (1841-1935)، الذي نجح في تشكيل لوبي يضغط من أجل الدعوة، فتشكلت حركة دعت بنيامين هارتسون، رئيس الولايات المتحدة عام 1891، إلى المساعدة في إنشاء دولة لليهود في فلسطين.

تمّت صياغة الوعد بحيث يتماهى القرار السياسيّ البريطانيّ مع "وعد الرب". عثرت المصالح المتنفّذة في اللاهوت المسيحيّ-اليهوديّ على غطاء يمّوه سياساتها، ويوطّد نفوذها وسط الجمهور المتدينّ؛ احتضنته وأمدته بأسباب الانتشار. جاءت الحركتان الأصوليتان مظهرين لردّة البرجوازية الإمبريالية عن عقلانية العلمانية بتسخير الدين والخرافات في تبرير السياسات. "أمّمت الصهيونية الديانة اليهودية وحولت تاريخ الجماعات اليهودية إلى سيرة شعب إثني ذي خصائص عرقية تمنحه التفوق الاستثنائيّ والتميّز عن غيره من الشعوب؛ واضطلع البحث التوراتيّ بمهام تبرير مختلف الممارسات الإسرائيلية أو التمهيد لها وطرحها كضرورة أو حقاً مكتسباً منذ القدم. والأحداث التي جرت منذ بداية القرن العشرين تركت آثاراً لا تمحى في عقول الباحثين التوراتيين وفي مخيلتهم (وهذا هو الأهم)، حيث كونوا في خيالهم صورة عن الماضي المتعلق بمملكة داوود وكأنها العصر الذهبي للتاريخ الإسرائيليّ. [كيث وايتلام: 179]

وأوردت ريجينا الشريف أن ريتشارد ماينزهاجن، كان من الصهاينة المسيحيين، وكان أحد الضباط السياسيين للجنرال أنبى لدى احتلال القدس. وعرف بولائه للمشروع الصهيونيّ أثناء الخدمة مع الانتداب.

ما توصل إليه الباحث الفلسطينيّ الراحل، اميل توما، يلقي الضوء الساطع على الكلام الملعّن في خطاب بلفور، العام 1919، في لندن والذي قال فيه: «إن نظرية ما قبل الألفية تتجذّر في



تقاليد عديدة وفي حاجات الزمن الراهن وآمال المستقبل . وهي أهم بكثير من سبعمائة ألف عربي يعيشون على هذه الأرض العتيقة» . فما هي منظويات «حاجات الزمن الراهن وآمال المستقبل»؟

ومهد لوعده بلفور بيان - وثيقة صدرت عن مركز أبحاث عمل استمر سنتين (1905 - 1907) حملت اسم رئيس وزراء بريطانيا آنذاك ، كامبل بنرمان ، الذي دعا لعقد المؤتمر . جاء في نص الوثيقة: « . . إن الخطر ضد الاستعمار يكمن في البحر المتوسط ، فعلى الشواطئ الشرقية والجنوبية لهذا البحر يعيش شعب واحد له وحدة التاريخ والدين واللغة وكل مقومات التجمع والترابط ، هذا فضلا عن ثرواته الطبيعية ونزعة للتحرر ( . . . ) فيجب على الدول ذات المصالح المشتركة ان تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة . . . وإبقائها في حالة تخلف مستمر . . . ) وتقرح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي وغريب . . . بحيث يشكل في هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس ، قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة» . [د . حجازين: مصدر سابق] .

لعل من غير المستغرب ، بعد هذا العرض التاريخي ، تزامن صدور وثيقة بنرمان مع مقالة في النقد الأدبي كتبها الناقد الأدبي الصهيوني كلاوزنر ونشرها في مجلة «هشيلواح» ، وكان يصدرها في مدينة أوديسا الأوكرانية . [العودة إلى الصحراء: مجموعة مقالات تمثل المشهد الثقافي الإسرائيلي ترجمها محمد حمزة غنایم وأصدرها مركز اوغاريت الثقافي ، رام الله 2002] ، إذ بعد رحيل هيرتزل ، العام 1904 ، قاد الحركة الصهيونية مثقفون أدباء؛ وتباينت المواقف تجاه العرب في فلسطين بين منقفي الحركة الصهيونية؛ نشرت أعمال أدبية تبشر بعهد من التعاون مع الفلسطينيين وانتشالهم من تخلف القرون وتطوير أوضاعهم . انتهت النقاشات بهذا الصدد ، العام 1907 ، بمقال نقدي لاذع كتبه الناقد الأدبي ، البروفيسور كلاوزنر . استقبل المقال النقدي بمثابة النذير . استهجن الناقد كون «اليهود يتحدثون العربية ويتشبهون بالعرب» . وحذر من «التلاشي في العرب ، ومن الأفضل البقاء في الغربية والذوبان في الآخرين» .

### التنقيبات الأثرية

حمل الصهاينة معاولهم وأدواتهم وتوجهوا بها إلى فلسطين كي يجسدوا على الواقع الفلسطيني اختلاقات الاستشراقيين . لم يشكوا حينئذ الأثرية بين اليهود ، فتركوا اليهودية الإصلاحية تذوي ، حيث المناخ السياسي غير الملائم مع تشكل الاحتكارات الإمبريالية؛ لم ينتظروا كي ينضم إليهم المترددون ، ومضوا في كنف الكولونيالية الإمبريالية وفكرها الاستشراقي يجربون موقعا في حركة استعمار الشرق العربي . فلا غرابة أن يرى لينين في مطلع القرن العشرين في الصهيونية حركة طوباوية ورجعية وإمبريالية ، تحمل برنامجا تلفظه الحياة . ولكنها حقبة التوسع الكولونيالي للإمبريالية تمنح نسغ الحياة مؤقتا لمن يواكب توسعها ، سواء كانت فكرا أم حركة سياسية . وحيث أن العبرة في الممارسة العملية ، كان التحالف مع القوة الأشد بأسا والطامحة للهيمنة على المنطقة هو الخيار .

رفع وايزمن شعار «لسنا قادمين بل نحن عائدون». وفي مجال الجهود الثقافية لتزوير المكان اتخذت عدة اتجاهات: من ناحية مضت الحركة الصهيونية منفردة في تكريس ماضي فلسطين وفقاً لتوجهاتها العنصرية. «لحظتان حاسمتان في تاريخ إسرائيل: إقامة دولة داوود وسليمان في الحقبة بين العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي، حوالي 1200 ق. م والثانية إنشاء دولة إسرائيل. وهذا مجرد وهم زائف». [ شلومو ساند: 12 ].

اعتبرت الصهيونية أن توفير المناخ الملائم للعمل في مجال التاريخ والتنقيب عن الآثار لا يقل أهمية عن توفير المناخ السياسي والاقتصادي والإداري لإنشاء الوطن القومي اليهودي. [ سحر الهندي، مقدمة كتاب اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات الصوت الفلسطيني، 11 ].

تشكل على عجل نظام للحفريات وأقرت له القوانين؛ ثم شرعت البعثة الأميركية الحفريات في القدس ومنطقة بيت مرسم من أراضي دورا الخليل في الجنوب الفلسطيني ابتداءً من العام 1919 وحتى العام 1936. برز في المضممار «وليام فوكسويل أولبرايت» Albright. كان مسيحياً أصولياً، متحمساً لمشروع إعادة اكتشاف «إسرائيل التوراتية» - إسرائيل القديمة.

أكثر من قرن والحفريات تنقب، وكانت النتيجة هي الفشل في العثور على مدينة «الملك العظيم»، ولا معالم تشهد على قيام مملكة ترامت حدودها بين النيل وضياف الفرات، وتصدع هضبة الجولان وتمضي إلى ما وراء نهر الليطاني. ازدهر البحث الأثري حين قصر تنقيباته على تحديد المواقع المتخيلة توراتياً في أعمال أشبه بالمسح الطبوغرافي. ولما اتضح هزال المعطيات التنقيبية، بل وتناقضها مع نصوص التوراة أخذت التنقيبات التوراتية تتراجع والحكايات التوراتية تتكشف عن خرافات.

يحدوه إيمان عميق بصدق التكهّنات التوراتية، أمسك أولبرايت المعزق بيد والتوراة بيد. ومن منطلق الثقة عبر أولبرايت عن «التقدم الرائع الذي حصل في علم الآثار الفلسطيني في مجال ما قبل التاريخ. لم يكن التنقيب متطوراً مع بداية حقبة الانتداب البريطاني؛ إلا أنه بعد العام 1920 تغير الوضع، وفيما بين عامي 1923 و1928 تمّ من خلال حملات تنقيب اكتشاف أوان فخارية ومبان حجرية، هي حسب تعبير أولبرايت، « كافية لتأكيد بداية مملكة داوود».

بقيت هذه المقاربة القائمة على التكهّنات الدليل المرشد للآثاريين التوراتيين وفي طليعتهم أولبرايت، من مدرسة الآثار الأميركية، هذا الذي، كما يقول البروفيسور وايتلام، تلقن على يديه مئات الآثريين وملايين القراء منطلق الصراع الدموي على المنطقة. عكست مفاهيمه التراثية تلك المفاهيم المعاصرة للتطوّرات الجارية في فلسطين في ظلّ الانتداب، فتاريخ تطوّر الديانة اليهودية من موسى حتى عيسى - حسب مفهوم أولبرايت - إنما هو درب الصعود للوقوف «في ذروة التطوّر البيولوجي تماماً مثل تطوّر الجنس البشري». إن ذروة التقدم

البشري ومنجزات الأمم المتحضرة كانت قمة العقيدة اليهودية الإسرائيلية والإسرائيلية ذاتها؛ ومن خلال أبحاث أولبرايت كان المجتمع الغربي يعود إلى جذوره. ليس ذلك مصادفة عشوائية؛ لأن التاريخ يقع في مضمار الوحي الإلهي. التاريخ برّمته ملك لعلم اللاهوت، وليس التاريخ الإسرائيلي فقط. [د. وايتلام: 126]. لم يستشر أولبرايت الحفريات الأركيولوجية في استنتاجه المذكور؛ إنما هي جبرية المسار التاريخي المقررة سلفاً حسب المنطق اللاهوتي.

والأشدّ خطورة أن أولبرايت، تذييل للسياسة ساجباً معه بلجام التنقيب الأثري. لم يثر موضوع حقوق السكان الأصليين في الأرض؛ بل إنه حاول بشكل مخيف تبرير إبادة هذا الشعب. راح أولبرايت يركب البحث الأثري على معطيات التوراة، «يثبت» من خلالها «أن حقّ إسرائيل في الأرض يعتمد بشكل أساسي على حقها في الغزو»، مستلهماً في قوله سفر يشوع. ومضى إلى القول «لا يوجد أيّ سبب للشك في أن هذا الغزو كان، كما هو موصوف في سفر يشوع، عملية وحشية دموية؛ لقد كانت هذه هي حرب يهوه المقدسة التي سوف يعطى فيها شعبه أرض الميعاد» [حجازين: المصدر السابق]. الحفريات الحديثة التي جرت في أريحا عاي وحشيون، تلك المدن «الحصينة» و «القوية» التي قيل إن بني إسرائيل احتلوها وسط نفخ الأبواق وإطلاق صيحات النصر أكدت مجدداً معطيات معروفة في نهاية القرن الثالث عشر ق. م. كانت أريحا قرية صغيرة بأثمة، وبالقطع غير محصنة بالأسوار.

ومن بعد أولبرايت، واصل أعوانه ومفسرو أعماله تأكيد المجازر (المقدسة)، وأوردوا تقليد (المذابح المتبادلة بين البروتستنت والكاثوليك في القرن السابع عشر) ومذابح أخرى لتبرير نتيجة المذابح المنوي اقترافها ضد سكان البلاد الأصليين، إذ إن ما يدبر لشعب فلسطين لن يكون أسوأ من تلك. ويتباهى أولبرايت إذ قامت حضارة بلاده، أميركا، على إنبادنا السكان الأصليين في كل بقعة من أمّتنا العظيمة ووضعنا البقية الباقية في معسكرات اعتقال. [وايتلام: 127]. كل المجازر التي تعرّضت لها شعوب على مرّ التاريخ مبرّرة باسم الربّ، لكنّها لا ترقى إلى المحرقة التي تعرّض لها اليهود على يد النازية، كما يدعي الصهيونية، ذلك أنه لا يجوز في العرف الصهيوني أن يتطلّع شعب لمشاركة إسرائيل دور الضحية.

تلك هي قيم الحضارة العظيمة التي ترشد العاملين من أجل إسرائيل! ولتبرير تلك القيم يورد الوصف العنصري للكنعانيين «المنحطين أخلاقياً»، وهم ضحية التاريخ التوراتي المتخيل. صدر كتاب أولبرايت «دولة إسرائيل» المتضمن هذه الرؤى، العام 1940، وأعيدت طباعة الكتاب عدة مرات، منها طبعة صدرت العام 1957. «لم يشعر أولبرايت بضرورة إعادة النظر في آرائه بعد الكشف عن جرائم الهولوكست النازية، ولم يعترف بالتناقض المروّع لأفكاره اللاهوتية إذ كتب إن الديانة التوحيدية اليهودية قد أنقذت أخلاقها التوحيدية العالية عن طريق إبادة السكان المحليين». [وايتلام: 129]

وضع أولبرايت منهج التعامل اللاحق مع الشعب الأصليّ في فلسطين؛ فهو يحكم برفعة آداب الإسرائيليين على الكنعانيين، كمواز مناظر لرفعة أخلاق الصهيونية المعاصرة على الشعب الفلسطينيّ. ينقل وايتلام عنه (أولبرايت 89، 88:1957) قوله «ولا يمكن لأيّ شعب آخر أن يضاهي الإسرائيليين في موضوعيّتهم بمثل هذه الأمور، إذا حكمنا عليهم من خلال آدابهم وعقلانيّتهم، مقابل لا عقلانيّة الكنعانيين، والتي يجب استبدالها بعملية لا ترحم» [وايتلام:130]. ثم يمضي في تبرير العنف المعدّل لطرّد الشعب الفلسطينيّ من دياره: لا يمكننا الارتقاء روحياً إلا من خلال الكوارث والمعاناة، بعد التخلص من العقد النفسيّة، وذلك عن طريق التطهّر. وهذا التنفيس والتطهّر العميق هو الذي يرافق التحوّلات الرئيسة. كل فترات المعاناة الذهنيّة والماديّة هذه، والتي يتمّ فيها إعادة القضاء على القديم قبل ولادة الجديد تثمر نماذج اجتماعيّة مختلفة عقيدة روحانيّة أعمق [وايتلام:131]

وحيث أن الدعاية تراعي الجانب النفسيّ السائد، فقد عكست رؤية أولبرايت (أبو التاريخ التوراتيّ) مفاهيم عصريّة للتطوّرات في فلسطين أثناء قيامه بالحفريات: المجتمع الفلسطينيّ الحديث في ثلاثينات القرن الماضي مجتمع مفكك في الداخل وقبليّ وغير قادر على تنظيم نفسه؛ فأسقط أولبرايت ملاحظته على التاريخ الفلسطينيّ القديم حيال مملكة داوود وسليمان وأسقط الموصفات على الكنعانيين. ويحتفظ بأهمية أن بيان إعلان إسرائيل العام 1948 جاء على صورة بيان «إعادة إنشاء إسرائيل». ونقل عن أولبرايت أنه طالب العام 1969 في حفل عشاء أقيم تكريماً له في بيت رئيس الدولة بعدم الانسحاب من الأراضي التي تمّ الاستيلاء عليها في حرب الأيام الستة. وقال إن قناة السويس يجب أن تبقى الحدود الدوليّة الفاصلة بين الغرب والشيوعيّة. ونقل عن الجنرال يادين أنه طلب من أولبرايت أن يخفّف من غلوائه.

لم تتعرّض استخلاصات أولبرايت للنقد من أية جهة، بل صرح تلميذه برايت مباشرة بما أضمره الرائد، أولبرايت، فدعا إلى ضرورة «إبادة السكان الأصليين».

يربط البروفيسور وايتلام طروحات أولبرايت بالفكر الاستشراقيّ السائد حينئذ: لا يمكن اعتبار هذه الأفكار نتيجة لأفكار شخص ما في فترة زمنيّة معيّنة. دراسته وكتاباته شكّلت ولا تزال تشكّل إدراك أجيال من دارسي التوراة والباحثين في هذا المجال، خاصة الأميركيين والبريطانيين منهم. حتى الثمانينات اعتبر أولبرايت رمزاً للموضوعية. إعادة بناء الماضي لدى أولبرايت ارتبط إلى حدّ بعيد بالحاضر السياسيّ الذي عاش فيه. «فما هو أهم من الحقّ التاريخيّ الصريح هو قوة الدفع العاطفية الهائلة لإحياء صهيون» [وايتلام:133] وعلى الأجنحة المحلقة لهذه الأفكار اللاهوتيّة مضت إسرائيل ومضى تيار الصهيونيّة المسيحيّة خلف مغامراتها الحرّية، وشكّلت نهج الأبارتهايد المتجسّد في حياة الدولة منذ أيامها الأولى.

أسند الحاضر رغباته وآماله على تخيّل للماضي يسند به ادعاءاته المعاصرة. والأحداث التي جرت منذ بداية القرن العشرين تركت آثاراً لا تمحى في عقول الباحثين التوراتيين وفي مخيلتهم (وهذا

هو الأهم)، كانت بمثابة تعبئة إيديولوجية، حيث كانوا في خيالهم صورة عن الماضي المتعلق بمملكة داوود وكأنها العصر الذهبي للتاريخ الإسرائيلي. [وايتلام: 179]. ولدى الإفصاح عن الأطماع التوسعية الإسرائيلية والرغبة المشتركة بين إسرائيل ودول الغرب في أن تغدو دولة إقليمية، اختلقت الأبحاث التوراتية لإسرائيل القديمة صورة لدولة داود المترامية الأطراف.

ولتكريس النظرات العنصرية إلى التاريخ القديم "افتتحت الجامعة العبرية قسمين منفصلين كلياً للتاريخ. الأول دعسي قسم تاريخ شعب إسرائيل وسوسولوجيا اليهود؛ فيما سمي الثاني قسم التاريخ. ومنذ ذلك الوقت بات الفصل قانوناً صارماً في جميع جامعات إسرائيل، يتعين بموجبه تدريس دراسات التاريخ اليهودي بشكل منفصل عن تاريخ "الأغيار" بدعوى أن مبادئهم، أدواتهم، مفاهيمهم، ونبض الزمن في هذه الدراسات مختلف كلياً [وايتلام: 141].

### نهج مركب العناصر

عملت الحركة الصهيونية في فلسطين على جهات عدّة، ودخلت عدّة عناصر في تركيبة نهجها الموجه طبقاً لاستراتيجية إقامة الدولة. ركزت على المتخيل الديني: نقل عن رايت، أحد تلاميذ أولبرايت، قوله: «إقامة إسرائيل هدية من الربّ وليس تجريد الناس من أرضهم، بل أعطاهم لهم الإله. إسرائيل كانت الواسطة الإلهية في تدمير حضارة فاسقة، إذ أنه ضمن النظام الأخلاقي للحضارات السماوية يجب تدمير مثل هذا الفجور الفظيع. ومن ناحية أخرى فإن هناك عناية إلهية من وراء اختيار إسرائيل للقيام بهذه المهمة وإعطائها تلك الأرض. [وايتلام: 139]. فإين بعد هذا الهديان السياسي، وذلك الهوس المجنون بالتخيلات، قيم العقلانية والعلم وحقوق الإنسان والقانون الدولي؟! تلك هي معالم ردّة منطلقات المسيحية الصهيونية، المترتبة على سدة الرئاسة الأميركية، أو ما بات يعرف بتيار المحافظين الجدد، الذي يقود السياسة الأميركية منذ عقدين من الزمن.

وأنشئ بعد المؤتمر الخامس للحركة الصهيونية الصندوق اليهودي القومي، و«صار رأس الحربة في صهينة فلسطين خلال أعوام الانتداب. اقترن معظم نشاطات الصندوق خلال زمن الانتداب وفي زمن النكبة باسم يوسف فايتس، مدير دائرة الاستيطان الذي كان مثال الصهيوني الاستعماري، وكانت الأولوية القصوى لديه تسهيل طرد العاملين بأجر من المزارعين الفلسطينيين من الأراضي المشتركة من ملاك غائبين يعيشون بعيداً عن أراضيهم». [باييه: 26]

وأعد بن غوريون للصراع المسلح برنامج السلاح البيولوجي. أثناء حصار عكا جرى تلوين مياه النبع بجراثيم التيفويد. ورفع مبعوث الصليب الأحمر الدولي تقريراً بذلك. ثم تكررت المحاولة في غزة، حيث ضبط دافيد حورن ودافيد مزراحي يسمّان الآبار بجراثيم التيفويد والدوزنتاريا. علم بن غوريون بأمرهما وتركهما يلاقيان حتفهما، حيث أعدمهما المصريون.

وكان بن غوريون قد كلّف إرنست ديفيد بيرغمان مع الأخوين كتسير بتشكيل فريق يعمل على تطوير قدرة إسرائيل البيولوجية الحربية وأطلق عليه اسم «سلك الهاغاناه العلمي»، وعين أفرام كتسير مديراً له في أيار 1948 [بأيه: 112].

كما اضطلع الصندوق بإعداد «ملفات القرى» [بأيه: 27]. كان تنفيذ المشروع مؤشراً إلى نوايا التهجير التي أخذت تتبلور في أذهان القيادة الصهيونية منذ ثلاثينات القرن العشرين. ونفذ مشروع المخططات الطوبوغرافية بصورة سرية عن سلطات الانتداب. لم يعلن عن المختبر إلا العام 1947، حين نقل إلى دائرة رسم الخرائط. «تضمن ملف كل قرية تفصيلات دقيقة عن موقعها الطوبوغرافي وطرق الوصول إليها ونوعية أراضيها، والينابيع ومصادر الدخل الرئيسية وتركيبتها الاجتماعية - الاقتصادية والانتماءات الدينية لسكانها، وأسماء المخاتير، والعلاقات بالقرى الأخرى، وأعمار الرجال (16-50 عاماً) ومعلومات أخرى كثيرة. ومن فئات المعلومات المهمة درجة العداء للمشروع الصهيونيّ بناء على مدى المشاركة في ثورة 1936. وهناك قائمة بأسماء المشاركين بالثورة، وأعطى الأشخاص الذين زعم أنهم قتلوا يهوداً اهتماماً خاصاً. وكما سنرى لاحقاً فإن هذه الأجزاء الصغيرة من المعلومات نجم عنها العام 1948 أشد الأعمال وحشية في القرى، وقادت إلى إعدامات جماعية وتعذيب ضحايا» [بأيه: 28]. «لدى احتلال قرية عين الزيتون أحضروا مخبراً مغطى الرأس؛ أخذ يتمعن في الرجال المصفوفين في ساحة القرية، وتم التعرف على الأشخاص الذين كتبت أسماءهم في القائمة المعدّة سلفاً، والتي أحضرها ضباط الاستخبارات معهم. ومن ثم أخذ الرجال إلى مكان آخر وأعدموا [123]. وقد كلف فيما بعد هانس ليرخت بتحويل مجرى نبع عن القرية إلى معسكر للجيش، وقال إنه أثناء العمل وجد جثث عدد من النساء والأطفال والأطفال الرضع بين الأنقاض بالقرب من الجامع الحالي، وقام الجيش بإحراق الجثث. تظاهر وناثق الجيش أن عدد الذين أعدموا في القرية يبلغ سبعين شخصاً. [بأيه: 124]. وتكرّر المشهد في قرى أخرى كثيرة.

«حتى أوج الحرب العالمية الثانية كانت الغالبية العظمى من اليهود ضدّ فكرة الدولة اليهودية. . . كانوا جميعاً موحدين في مواجهة الخوف الذي تحقّق في النهاية من أن يتحوّل الإطار المؤسسي - السياسي للشعب اليهودي إلى دفيئة خصبة لنشوء مشاعر قومية ضيقة تغير بشكل كبير طبيعته التاريخية». [بورغ: لتحرّر من هتلر، 68]. كان أينشتين (انظر الفصل الثالث) يعكس موقف أغلبية الرأي العام اليهودي، وكذلك شطراً من أنصار الحركة الصهيونية، إذ تطلع إلى مشروع ثقافيّ في فلسطين، يجري بموجبه تطوير الثقافة اليهودية. والصهيونية الثقافية طرحها أحد همام (أشر غينزبرغ 1856 - 1927) الفيلسوف اليهودي المعارض للصهيونية هيرتزل). وبعد انتشار أنباء المحرقة ظهرت الصهيونية التيار القوى بين الشتات اليهودي. أدخلت مواد المحرقة في منهاج التعليم الثانوي وباتت أساسية للنجاح في الشهادة الثانوية. كما أدخلت برامج الرحلات إلى أوشفيتز وغيره من معسكرات الإبادة. غدت المحرقة أداة لتربية الأجيال على التفرد اليهودي، وعلى حق العدوان دون مساءلة.

عنصر آخر شارك في الحملة الصهيونية تمثل في اختراع بطولات تعزّز التاريخ اليهودي في فلسطين. تدّعي التخييلات التوراتية أن المناطق التي جرت فيها أحداث ثورة المكابيين تقع في شمال فلسطين، وهي إحدى المواقع التاريخية التي تبني عليها أمجاد متخيّلة لليهود في محاربة الرومان. جرى تدوين الأحداث في سفر المكابيين وحظيت الرواية بتفسير المستشرقين. أولاً، يرتطم سرد الأحداث بموجب الإسقاط الفلسطيني (الاستشراقي) بتداخل غير معقول في الحوادث وأسماء الأماكن التي لا وجود لها في فلسطين. وثانياً، أن هيرودت (نحو 450 ق.م.) لم يذكر شيئاً عن بلاد اليهودية التي حدثت فيها ثورة المكابيين، على أنها في فلسطين. وثالثاً وردت اليهودية في موقع بجاناب سورية وفلسطين في مدونات اليونانيين والرومان؛ فما السبب الذي دفع المؤرخين والجغرافيين إلى إغفال الإشارة إليها في سجلاتهم عن فلسطين، مع أنهم كتبوا بالتفصيل عن تلك المرحلة؟ ورابعاً لم تذكر سجلات الامبراطورية الرومانية شيئاً عن حروبهم ضد المكابيين في فلسطين؟

كرس باحث عربي جهداً مضميناً في البحث عن أصول التوراة [فاضل الربيعي: فلسطين المتخيّلة - المجلد الأول والثاني - دمشق، دار الفكر 2008] وبالذات في نص سفر يشوع كاتب السفر التوراتي المسمى باسمه. قارن الباحث النصوص التوراتية مع نصّ كتبه الهمدانيّ (الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانيّ - رحالة عربي عاش في القرن الثالث الهجري، سجّل مشاهداته في جغرافية اليمن والأحداث التاريخية التي مرّت على أرضه، وذلك في كتابه (صفة جزيرة العرب) - تحقيق العلامة محمد بن علي الأكوح - سلسلة خزانة التراث، بغداد 1989). بموجب النصّ التوراتي توفي يهوذا المكابي، العام 160 ق.م. وتولّى الملك شقيقه يوناثان وواصل حروبه ضد الرومان. أرسل يوناثان شقيقه يوحنا رسولاً إلى قبائل بنطية - النبط يدعوها للوقوف بجانبه، لكنها اغتالت الرسول. علم الرومان بالأمر وطوّقوا قوات المكابيين، الذين تمكنوا من الإفلات والفرار نحو عمواس - عم أس وبيت حورون، وعيل - آل وتمنية - تمنية. أخفق الرومان في معركة جرت عند مكمس - الكامس. تولّى ملك مصر بطليموس وبدأ مباحثات لعقد صلح مع بلاد اليهودية؛ وبالفعل أبرمت معاهدة قرب يفاء - يافا. جرت بعد ذلك معارك ثم انشغل الرومان بحروبهم مع الفرس وحظيت بلاد اليهودية بفترة سلام لفترة طويلة نسبياً.

خلال الفترة الممتدة بين ثورة خاركوبا ومعارك حرب 1948، كان من الضروري اختراع بطولات تلهم اليهود قيم الكفاح من أجل السيادة؛ «اختلقت لدينا من العدم في صورة تمردية الغيتوات. تمرد غيتو وارصو في حد ذاته كحدث عسكري لم يكن مهماً بصورة خاصة، بالمقارنة مع بقية الجبهات ومع زخم العمليات في مجمل أحداث الحرب العالمية الثانية. [بورغ: 159].

ولكن الكار المتخصص في تزييف التاريخ وجدها فرصة لإضفاء طابع بطولة زائف على الحركة البسيطة، وعلى بعض المشاركين فيها دون البعض الآخر. "استحوذ التمرد في وارصو على الخيال اليهودي والعالمي وحوله بصورة كاملة إلى مركب متساوي الحقوق في معادلة محرّفة

وبطولة. النصف البطولي يعود إلينا نحن الصهيونيين، ونصف المحرقة يعود للآخرين، لليهود الضعفاء والعاجزين. تحولت الحركة الصهيونية في أعقاب المحرقة إلى حركة الأغلبية المنتصرة. في الطريق للدولة المنشودة والمطلوبة اختلقت وعظمت رموز بطولية وأساطير وقصص شعبية ووصفتها بصورة مغايرة لما كانت عليه في الواقع من دون خجل. كانت الغاية مقدّسة وقد قدست الوسائل من أجلها أيضا. في الغيتو كان هناك تنظيم فوقى للمتمردين وشمل جميع من كانوا بالغيتو، جميع الأحزاب السياسية اليهودية، وبينهم الكثير من أعضاء الـ 'بوند' الاشتراكيين سويا مع الشيوعيين، الذين كانوا معادين للصهيونية منذ البداية. أخفوا عنا أن عملية التمرد لم تكن لتتحقق بتاتا لولا الدعم والمساعدة التي وفرتها مؤسسات المجتمع وقادته، رؤساء الجوبنت غير الصهيونيين وحتى منظمة الأنصار البولندية. جميع هؤلاء جرى إخفاؤهم وإسكاتهم وإخراصهم" [بورغ: 161].

وعلى نفس المنوال، وبنفس التوجه ارتأى يادين، الجنرال الإسرائيلي والباحث في الآثار، أن المصلحة تقتضي تحميل الوجدان الشعبي في إسرائيل مآثرة تاريخية تكون موضع اعتزاز. ويجري كل عام عند موقع قلعة المسادا احتفال عسكري يتخلله تقديم الأوسمة وتقديرات الشجاعة. هنا أيضا، نجد المواقف السياسية والدينية توجه البحث التاريخي وتملي نتائج. «حادثة غامضة في التاريخ أهملها التلمود والآداب اليهودية في العصور الوسطى. ولم تصبح الأداة مركز الاهتمام إلا في القرن التاسع عشر [وايتلام: 42]. ونقل وايتلام ما كتبه يادين بهذا الصدد: «كانت أهميتها بالنسبة إلينا كبيرة؛ ولكن الأهم من ذلك هو أن المسادة تمثل بالنسبة إلينا جميعا في إسرائيل وخارج إسرائيل، علماء آثار أو الناس العاديين، رمزا للشجاعة، ونصبا لأبطالنا القوميين، هؤلاء الأبطال الذين اختاروا الموت على حياة العبودية المادية والمعنوية».

### والتعاون مع النازية

بجانب الاتكاء على ما سمي «الاكتشافات الأثرية» وبتولاتها، وعلاوة على تحالفها مع الغزوات الكولنيالية، كان للحركة الصهيونية مداخلها الأخرى. فقد تم الاتصال بالنازية. جرت اتصالات بين اليمشوف اليهودي، وممثلته الوكالة اليهودية، وبين النازيين. «تعاون مشين: الصهيونيون والنازيون لم يريدوا اليهود في ألمانيا. النازيون أرادوهم بعيدا وفي الخارج. والصهيونيون أرادوا أنفسهم في دولة خاصة بهم في الداخل، هنا وقريبا. وكانت النتيجة الجدلية إنشاء جزء كبير من البنية التحتية الاقتصادية في الثلاثينات» [بورغ: 117]. سمح لكل يهودي يهاجر إلى إسرائيل بحمل مبلغ مالي وسلع بقيم محدّدة. وقد ساهمت المبالغ المنقولة في بناء الاقتصاد اليهودي في فلسطين. وبنظرة إلى الوراء يبدو أن الاتفاق مع النازيين كان أيضا خطوة ضمن خطوات على الطريق لإقامة دولة إسرائيل. «وهكذا كان النازيون ضالعين في ثلاث مرات بطريقتهم المتنوّرة



في دفع فكرة الدولة الصهيونية وإخراجها إلى حيز التنفيذ . قبل الحرب من خلال اتفاقيات النقل ، وأثناء الحرب وبعدها مع قدوم موجة اللاجئين ، وبعدها مع الأموال الطائلة التي تم دفعها باسمهم بواسطة قادة ألمانيا الغربية . بدون هذا هل ستكون لنا دولة؟ [بورغ 118].

### وكذلك المحرقة

مع أن الصهيونية ودول الإمبريالية المعادية لألمانيا النازية اطلعت منذ البدايات على جرائم الإبادة ، إلا أنها حافظت على الصمت . هنا يمكن إدارة الأبحاث والدراسات بصدد من سكت عن المحرقة ، ومن دفع إليها ملايين اليهود المساكين من خلال تضليلهم بإيجاد فرص العمل . هذا هو جوهر القضية وليس الدفاع عن المجرمين النازيين ، تارة بإنكار المحرقة ، وأخرى بمناقشة هل هم ستة ملايين أم أقل . بررت قوى الإمبريالية صمتها بالحرص على مصادر الاستخباراتية . ومن الحركة الصهيونية كان الدكتور كاستنر الزعيم المجرى للحركة ، الذي ستحاكمه إسرائيل فيما بعد ، يتعاون مع النازيين ، وقدم أعداداً من اليهود المجرمين إلى المعتقلات النازية ، إذ خدعهم بالتوجه إلى ورش العمل مقابل السماح لأقاربه - مع أعداد من النخب المالية والعلمية والشخصيات الاجتماعية - بالهجرة إلى الخارج .

سخرت إسرائيل المحرقة أداة لتلوث بها النفس الاجتماعية بمستنقع الموت . وكم أوغلت في توظيف الأداة ، وهي لا تريدها أن تتلثم أو يخفت تأثيرها ، حتى أنها أجبرت عديداً من دول أوروبا وأميركا على وضع قوانين تحاكم كل من يقلل من أهمية المحرقة ، والويل لمن يشارك إسرائيل دور الضحية . كما اتكأت إسرائيل على المحرقة كتي تقترب جرائم إبادة الجنس ضد الشعب الفلسطيني ، وتمتنع عن تقديم الحساب على ممارساتها . أريد للمأساة اليهودية أن تعلق على مآسي الآخرين مهما أنزلت بهم من كوارث وجرائم ، بما في ذلك جرائم إسرائيل . وحسب تعبير أبراهام بورغ باتت إسرائيل لا تفهم أي شيء غير لغة القوة .

قدم الدكتور كاستنر إلى المحكمة في إسرائيل وحكم عليه بناء على اعترافاته . كانت المحاكمة فضيحة للحركة الصهيونية ، كشفت تواطؤ أحد قادتها مع النازية ومشاركته في المحرقة . استأنف الحكم وأفرج عنه ليرتصده القتل وهو عائد إلى بيته في المساء المتأخر ويردوه قتيلاً . وبعد موته استأنفت المحاكمة و«برئ» من جريمة التعاون مع النازيين .

في أيار 1960 أعلن رئيس الحكومة دافيد بن غوريون أمام الكنيست عن اعتقال أحد كبار المجرمين النازيين ، ادولف آيخمان . «في مقابل طابور الشهادات في محاكمة كاستنر ، والتي حولت المحاكمة من تنازع قضائي تشهيري عادي إلى محاكمة علنية ضد المؤسسة الصهيونية ، جاء بن غوريون ومبعوثه ، هاوزنر بموكب شهودهما في محاكمة آيخمان . المزيد والمزيد من الشهود ممن لا علاقة لهم بالمجرم صعدوا منصة الشهادة [بورغ 209] . صدر الحكم

بإعدام المجرم واختلقت الآراء بصدد تنفيذ الحكم ، وأخيراً تم تنفيذ حكم الإعدام وأحرقت جثة المجرم . أما من حاول تقديم صورة مختلفة عما قدمته إسرائيل من خلال المحاكمة ، مثل «حنة آرندت» ، التي جاءت لتغطية المحاكمة لصالح مجلة نيويورك ، فقد فرضوا عليها الصمت وأخرسوها ورفضوها وأبعدها . وهي لم تتردد في تمزيق الرواية البنغوريونية إرباباً؛ ولذلك اضطرت للتقني شحنت كبيرة من الضغينة والعدائية غير المسبوقه والتي وجهت إليها» [بورغ 187] . والكاتبة آرندت مولودة في ألمانيا وهاجرت مع برتولد بريخت ، المسرحي الألماني الشهير ، خارج ألمانيا بعد تولي النازيين الحكم ، ثم عادا إلى ألمانيا الشرقية .

والحقيقة أن العديدين ممن خدموا النازية ، خصوصاً الكتاب والفنانين قد أدخلوا في جهاز الحرب الباردة الثقافية ، ومنهم على سبيل المثال المايسترو ولهمل فورتنجلر واليزابيث شوارسكوف وهربرت فون كارجان (كولونيل الإس إس ، عضو الحزب النازي منذ العام 1933) ، حيث أعيد إلى قيادة اوركسترا برلين الفيلهارموني . وبعد حوالي خمسين عاماً اضطرت يوشكا فيشر وزير الخارجية الألمانية ، العام 2004 ، إلى الاعتذار عن مواصلة نازيين تسلّم مناصب في السلك الدبلوماسي الألماني في أعقاب انتهاء الحرب .

«عدت محاكمة ايخمان معاقبة الشرير صقل وبلورة جيل شاب أصبح في إسرائيل يعيش في ظلّ النسيان التاريخي ، بإقطاء الضمير العالمي على الجريمة ، «والأهمّ تطهير العلاقات السرية مع ألمانيا الغربية التي بدأت تُنسى من جديد [بورغ: 210] .

ينبغي الإشارة إلى أن حنة آرندت ، المناضلة الشجاعة ضدّ النازية قد استعدت من قبل منظمي الحرب الباردة الثقافية . وعلق الكاتب الأميركي التقدمي ، آرثر ميلر على التحوّل الفاجع ، والمتمثل باستبدال الأعداء والأصدقاء ، بأنه «قد ساعد على تدمير عالم أخلاقي . فإذا كان أصدقاء أمس يمكن أن يصبحوا هكذا وبسرعة أعداء اليوم ، فأية درجة من الصدق يمكن أن تكون هناك للخير أو للشر؟» . تصدّر كتاب آرندت لائحة الكتب الأكثر مبيعا حول محاكمة ايخمان وحول تفاهة الشرّ ، و«لم يترجم إلى العبرية . حنة آرندت توفر حقا العدسات الضرورية والمصطلحات المطلوبة لمراجعة وفهم القرن الذي ائتلقت فيه حادثة وعظمة المنجزات الإنسانية سوية مع فظاعاته المرعبة ومع إنكار السليبي الإلحائي لذات الإنسان ، لإنسانيته وحياته . لا أستطيع اليوم عدم استخدام بعض من أدوات ، تساؤلات ومدارك هذه السيدة المستقيمة والشجاعة ، محاولاً أن أفهم [بورغ 188] .

### الحركة الإرهابية والفاشية

الدلائل عديدة على تواصل التعاون حتى أثناء اقتراف جرائم الحرب خلال الحرب العالمية الثانية . لم يقتصر ذلك على التعاون «البريء» قبل اندلاع الحرب . أسس أفراهام شتيرن الحركة الإرهابية

المسمّاة باسمه . وفيما بعد أطلق عليها اسم «لوهامي حيروت يسرائيل» - ليهي (حركة تحرّر الشعب اليهودي) . ولم يكن ينظر إليها كحركة سياسية ، إلا أن بيغن عين شامير وزيراً لخارجية إسرائيل (اسمه الأصلي يزر نيتسكي) رغم أن شامير كان قائد عمليات المنظمة ، بعد أن قتل البريطانيون شتين . في العام 1983 تسلّم شامير منصب رئاسة حكومة الليكود خلفاً لميناحيم بيغن ، ونقلت صحيفة تايمز اللندنية في 21 أكتوبر 1983 أن شامير أنكر قيام أي علاقة بجهود افراهام شتين ، القائد الأول لحركة ليهي . قال شامير « كان هناك خطة للتحويل نحو إيطاليا لطلب المساعدة والاتصال بألمانيا بافتراض أن ذلك سوف يجلب هجرة يهودية جماعية إلى فلسطين؛ عارضت الاقتراح ولكنني انضمت إلى ليهي بعد التخلي عن فكرة التحالف مع المحور» . اتضح لصحيفة التايمز اللندنية صحة انضمام شامير إلى الحركة قبل ديسمبر ، العام 1941 ، حين اعتقل الإنجليز مبعوثاً من الحركة كان متوجهاً للقاء السفير الألماني في أنقرة .

عمل المؤرّخ بنزيون نتياهو ، والد نتياهو رئيس الوزراء ، سكرتيراً ملازماً لجابوتينسكي . لم يقبل جابوتينسكي فصل شرقي الأردن عن فلسطين من قبل الانتداب البريطاني؛ بينما قبله التيار الرئيسي للحركة بزعامة بن غوريون . شكل جابوتينسكي حركة «المراجعة» بدافع الخوف من أن بقاء شرقي الأردن خارج سيطرة إسرائيل يساعد الفلسطينيين على تجميع القوى واسترداد فلسطين الغربية . وضعت إدارة الانتداب البلاد ضمن ظروف تسهّل على الصهيونية النشاط بحيث يستحيل على السكان الأصليين إعاقة جهودهم؛ غير أن توسع الاستيطان ظل ضعيفاً . ولذا فكر جابوتينسكي في بديل آخر . توجه على المكشوف نحو إيطاليا؛ نشر مقالا ، العام 1923 ، تحت عنوان «الجدار الحديديّ ، نحن والعرب» . وكل من يود التعرف على تفكير رئيس وزراء إسرائيل الحالي ، عليه مطالعة المقال .

ردّ موسوليني ، العام 1934 ، على مقال جابوتينسكي بالسماح لمنظمة بيتار الشبابية التابعة لجنح «المراجعة» بإرسال طلبة للدراسة في الكلية البحرية . وتحول جابوتينسكي إلى محام عن الفاشية . كتب في 11 نيسان / إبريل 1935 مقالا نشره في صحيفة يومية تصدر بنيوورك «جويش ديلي بوليتين» تحت عنوان «اليهود والفاشية ، ملاحظات وتحذيرات» . وقف جابوتينسكي ضد تيار الأغلبية بين اليهود ، الذي رأى ضرورة مناهضة الفاشية؛ وارتأى أن من الأفضل أن تشكل إيطاليا الجدار الحديديّ بالنسبة للحركة الصهيونية . وتصادف أن كان المندوب الإيطاليّ هو رئيس لجنة عصبة الأمم للانتدابات ، المشرفة على موضوع فلسطين . وفي آذار 1936 صدرت (لا أيدا زبونستيكا/ الفكر الصهيوني) تحمل تقريرا حول احتفال فريق بيتار في الكلية البحرية الإيطالية باستيلاء إيطاليا على الحبشة . هتفوا يحيوا الدوتشي (لقب موسوليني) ، تحيا إيطاليا؛ وألقى الراب ألدو لاتيس كلمة بالإيطالية وبالعبرية ختمها بالهتاف لإيطاليا والملك والدوتشي؛ كما أنشدت الفرقة بحماس نشيد الحزب الفاشي «جيو فينيزا» . انتهت الحرب في أيار 1936 ، وفي 12 حزيران نشرت مجلة اليهودية العالمية الصادرة في لندن تقريرا مؤيدا للحرب . قال المدير

الماليّ للحركة المراجعة (حركة جابوتينسكي): «رغم تنوّع الآراء بين المراجعين فإن تعاطفهم بصورة عامة يتركز مع الفاشست». وكان هو شخصياً من أنصار الحركة الفاشيّة، وحيّا انتصار إيطاليا في الحبشة باعتباره «انتصار العرق الأبيض على السود». وفيما بعد سار أنصار جابوتينسكي في استعراض كبير تحيّة لانتصار فرانكو على اليسار في إسبانيا. وبسبب إقدام موسوليني على التحالف مع هتلر قام بإبعاد اليهود من حزبه الفاشيّ ووثّق في الوقت نفسه روابطه مع الصهيونيّة.

اندلعت الحرب، العام 1939، وشعر جابوتينسكي وبنزيون ننتياهو أن عليهما مساندة بريطانيا، غير أن أقلّيّة من الحركة المراجعة تحولت إلى الإيديولوجيا الفاشيّة، فلم ترغب في الدخول في حرب ضد هتلر. انشقت المجموعة عن جابوتينسكي عام 1940. (ربما هو توزيع أدوار بين الثيّارين كي لا تفقد الصهيونيّة فرصة التحالف مع القوّة العظمى في السياسات الدوليّة). وفي يناير 1941 بعث قائد المجموعة أبراهام شتيرن ممثلاً عنه إلى بيروت الخاضعة لحكم فيشي المتعاون مع ألمانيا، كي يلتقي مع ديبلوماسي ألماني هناك. وبعد انتهاء الحرب عثر على وثيقة مرسلّة من قبل جماعة شتيرن (إرغون زفاي ليثومي/ المنظمة العسكريّة القوميّة) تقترح المساهمة مع ألمانيا في الحرب. أبلغوا النازيّين إن إخراج اليهود من أوروبا شرط مسبق لحل المشكلة اليهوديّة؛ غير أن هذا لن يصبح ممكناً وتامّاً بدون استيطان الكتل اليهوديّة في وطنها فلسطين، وإقامة الدولة اليهوديّة داخل الحدود التاريخيّة لفلسطين. وعبرّت حركة شتيرن عن ثقتها بصدق نوايا حكومة الرايخ الألمانيّ وسلطاتها تجاه النشاط الصهيونيّ ونحو خطط الهجرة الصهيونيّة، وإيمانها بوحدة المصالح بين إقامة نظام دوليّ جديد طبقاً للرؤية الألمانيّة والتطلّعات القوميّة للشعب اليهوديّ كما تجسّدها المنظمة اليهوديّة القوميّة. كما أن إقامة دولة يهوديّة على قاعدة قوميّة وشموليّة ترتبط بمعاهدة مع الرايخ الألمانيّ سوف تتمّ طبقاً لمصلحة تعزيز الوجود الألمانيّ في المستقبل في الشرق الأدنى. ولتحقيق هذه الأهداف فإن حركة حيروت الإسرائيليّة ستشارك بنشاط في الحرب بجانب ألمانيا.

ويرتبط العرض المقدم من حركة شتيرن بالتدريبات العسكريّة التي نشطت آنذاك، وتجنيد الأفراد اليهود في أوروبا تحت قيادة الحركة. وسوف تشارك هذه الوحدات العسكريّة في الحرب من أجل احتلال فلسطين، إذا ما تقرّر فتح الجبهة. لم يردّ النازيون على الاقتراح، لكنّهم لم يفقدوا الأمل. وفي ديسمبر 1941 اعتقل البريطانيون في سوريا عميلاً آخر، كان في طريقه إلى سفارة ألمانيا في أنقرة. وفي كتاب جيرولد فرانك، الصادر العام 1963، والذي تناول اغتيال لورد موين، الوزير البريطانيّ المقيم في مصر، ما يشير إلى انضمام شامير لحركة ليحي قبل ديسمبر 1941.

ويحقّ التساؤل بعد كل هذا: ألم يعترف بأنه على دراية منه انضمّ إلى منظمّة من الخونة عرضت نفسها على العدو اللدود لليهود؟ وليس من شك في أنه انضمّ إلى حركة شتيرن قبل ديسمبر 1941 عندما حاول القائمون عليها إرسال ناثان يالين - مور إلى تركيا للاتصال بالسفير الألمانيّ في أنقرة ونقل نفس الاقتراح: «السماح لهم بالتحالف مع الرايخ الثالث».

أكذوبة شامير بصدد انضمامه إلى شتيرن بعد إسقاط محاولات التحالف مع المحور تخبرنا لماذا تدخل ضمن الوثائق الواحدة والخمسين سلاحاً قوياً ضد الصهيونية الحديثة. تلتف الحركة المراجعة حول انضمام شامير إلى النازيين بتذكيرنا أن معظم المراجعين (أنصار جابوتينسكي) أيّدوا بريطانيا. غير أن أغلبية المراجعين، العام 1940، صوتوا فيما بعد لرئيس وزراء أراد «على أسس قومية وشمولية» أن يكسب أدولف هتلر الحرب العالمية الثانية.

## تجسيد الصورة

في فيلم انتجته داليا كارفيل مستوحى من كتاب «تصحيح غلطة» للمؤرخ بيني موريس، تعرض فترة نموذجية من تاريخ الاستيطان بفلسطين. بطل الفيلم يوسف نحمانى؛ هو صديق يوسف فايتس بطل التطهير العرقيّ ومساعدته في الجريمة، العام 1948. واللافت للانتباه أن يوسف نحمانى (أغرونوبسكي سابقاً) قدم إلى فلسطين «يسارياً» في الحركة الصهيونية، وكان في بداية طريقه «مثالياً» يحلم بحياة مشتركة مع العرب (الساميين أبناء عمومنا!). لكن المنهج الصهيوني وطبيعة ممارساته جرفته في وحولها، وطلق مثاليته طلاقاً بائناً.

تعلم اللغة العربية، الفصحى والعامية، واختلط بشكل مكثف بالعائلات والقبائل البدوية، وكان خبيراً رئيسياً للمؤسسة الصهيونية في الجليل؛ أولاً لجمع المعلومات عن المجتمع الفلسطينيّ وثانياً لفهم كل التناقضات الطائفية والعائلية والقبلية، والصراعات بين القبائل البدوية والسكان المقيمين في المدن والقرى، واستغلال كل هذه المعلومات لتسهيل عملية انتقال ملكية الأرض، من «الهنود الحمر» الفلسطينيين إلى المستوطنين الجدد. يحكي الفيلم قصة نشاط نحمانى العملية الصهيونية المنظمة والطويلة لنقل ملكية الأرض الفلسطينية في الجليل إلى الوكالة اليهودية. حملت العملية ملامح حادة من التطهير العرقي، فأكثرية الأراضي التي تم شراؤها كانت لإقطاعيين وملاكى أرض كبار، من الجليل، وكذلك من إقطاعيين مستوطنين في دمشق وبيروت. وبعد عقْد الصفقات كانت عملية اقتلاع الأبقان («الفلاحين») عملية شرسة تفتقر إلى أبسط المشاعر والقيم الإنسانية، فقد كان الأبقان يُقذفون بعيداً عن المكان الأصلي الذي وُلدوا وعاشوا فيه. كثيرون قُذفوا شرقي حيفا (خصوصاً من مرج بن عامر) وآخرون قُذفوا قرب صفد وطبريا، بلا مأوى، بلا عمل، بلا قوت!

وقال البروفسور أوران يفتاحيل تعقيباً على هذه العملية: «كان ذلك تطهيراً عرقياً، والمفروض أنه يتناقض مع الحلم الصهيونيّ، فكيف تبحث أنت عن بيت ووطن بينما تقتل الآخر من بيته ووطنه؟

الفيلم يكشف، بشكل مذهل، رحلات يوسف نحمانى إلى بيروت ودمشق، حيث كان يبقى أياماً وليالي حتى يعقد الصفقة مع الإقطاعي، ويعود إلى «أرض الميعاد» منتصباً على الفلاحين بمساعدة وتعاون من الإقطاعيين. شرع في عمليات الترحيل الجماعي للفلاحين الفلسطينيين،

العام 1926 ، عملاً بخطة بن غوريون للصهيونية العملية وبنودها الثلاثة - الملكية العبرية والعمل العبري والدفاع العبري . وبموجب هذه البنود حضر على الفلاحين العرب البقاء حيث سكنوا قرونا متتالية ، وتوجب طردهم .

أسفرت العملية عن اضطرابات في البلاد ، إذ تعاطفت مع الضحايا جماهير واسعة ، سيما وأن الشرطة الانتدابية ساهمت في إكراه المزارعين على الرحيل . والفيلم يكشف أيضاً كيف كان يتم طرد الفلاحين بعد شراء الأرض بأبشع الطرق وأعنفها . فكأنما كل مستوطنة يهودية كانت تقام في فلسطين كان يوازيها دمار قرية فلسطينية ، واستيطان المهاجرين اليهود الجدد القادمين إلى فلسطين ، يوازيه تمزيق واقتلاع وتشريد القرى والعائلات الفلاحية الفلسطينية . يركز الفيلم في قسمه الثاني حول طبريا أيام الانتداب والعلاقات العبرية- اليهودية فيها ، وقصة الاقتلاع الجماعي لعرب طبريا . يعترف الفيلم ، ويعترف نحمانى في مذكراته المثيرة أن العلاقات كانت جيدة ، وكان مجلس بلدية المدينة يضم عرباً ويهوداً . يقول شموئيل طوليدانو ابن طبريا ، في حديث في الفيلم: « كنا عرباً فعلياً ، تكلمنا العبرية ، وكانت علاقات وثيقة بين العرب واليهود ولم يكن العرب متطرفين . وكانت علاقات طيبة بين الوجهاء العرب واليهود . لكن القيادة القومية والعسكرية اليهودية أرادت «تفريغ» طبريا من العرب ، لكي يؤثر هذا على بقية المدن المختلطة . ويذكر الفيلم أنه بعد ترحيل عرب طبريا جاء دور عرب صفد وأكثرية عرب حيفا وعكا ، وأكثرية عرب يافا («عروس فلسطين») واللد والرملة وبيسان .

يحكي الفيلم بصراحة أن الترحيل الجماعي ، أو «التطهير العرقي» حسب قول البروفسور يفتاحيل كان هدفاً . والبرهان أنه بعد كل ترحيل مباشرة ، كانت عمليات الهدم الجماعي للبيوت والأحياء للتأكيد أن لا عودة للفلسطينيين إلى هذه المدن التي يجب أن «تتهود» بأسرع ما يمكن! حتى في طبريا ، كان القتل الواسع للعرب أداة للترحيل ، وكذلك في القرى الاستراتيجية في منطقة طبريا . وقد لخص دافيد بن غوريون الهدف القومي الصهيوني عندما قال: «نحن بحاجة لا تحتل التأجيل إلى الأرض والأمن . بالأرض والأمن تقوم الدولة اليهودية في أرض إسرائيل!!» .

### وتسخير الحركة العمالية

ودخل الصراع إلى الحركة النقابية اليهودية (الهستدروت) . ما أطلق على نفسه اليسار الصهيوني جمع بيد واحدة بطيختين: القومية والطبقية؛ لكنه في كل موقف يركز على الاعتبار القومي ، ويخذل الطبقة العاملة وفكر اليسار . وعملاً بمبدأ الصهيونية العملية التي وضعها بن غوريون ، تناقضت مواقف الأحزاب «الصهيونية الاشتراكية» المهيمنة على الهستدروت بقيادة بن غوريون مع فكرة اتحاد الشعوب وتعاونها . يستعرض خبرة الحركة العمالية اليهودية في فلسطين بنيامين غونين [تسعون عاماً على إقامة الهستدروت - الحوار المتمدد 2011/1/3]: في العام 1922 أنشئت داخل الهستدروت «عصبة العمال» وهي إطار قانوني لفعاليات الحزب الشيوعي

الفلسطيني بسبب الملاحقة من قبل سلطات الانتداب البريطاني، والجهات الصهيونية والنظام الرجعي العربي. طالبت العصبة بخوض «صراع طبقي مستمر» و«فصل المنظمات النقابية عن المنظمات التعاونية المشتركة» (تقصد الكيبوتسات). وقد رأت الاستيطان في الكيبوتسات بأنه «بؤس الشيوعية» ومثالية تخدم البرجوازية اليهودية. وعارضت إنشاء شركات المقاولات التابعة للهستدروت (مثل سوليل بونيه).

في المؤتمر التأسيسي دار نقاش مبدئي حول شكل ومضمون الهستدروت. قال طبنكين في المؤتمر التأسيسي: «علينا الاهتمام بشدّة بشراء الأراضي في بلادنا. ليست محاربة الاقتصاد الخاص هي مركز الثقل». وادعى مثير يعاري (هشومير هتسيعر) أن «تنظيم العمال في الهستدروت لن يكون على أساس صراع الطبقات، كما اقترح الشيوعيون، إنما على أساس غير حزبي». عارض الشيوعيون تعريف الهستدروت على أنها نقابة العمال اليهود فقط (النقابة العامة للعمال العبريين في أرض إسرائيل) وكذلك إلغاء طابعها الطبقي. المندوب الشيوعي قال في المؤتمر التأسيسي: «طالما بقي العامل العربي خارج الهستدروت، لن يكون هناك حل للعامل اليهودي أيضاً». «كانت هذه نقطة الانطلاق لتحليل القضايا آنذاك، وخصوصاً القضية القومية، ما تناقض مع مواقف الأحزاب «الصهيونية الاشتراكية».

ينقل غونين عن كتاب «غيرة داوود»، وهو سيرة حياة ديفيد بن غوريون ألفه الكاتب شبتاي طيفت، إشارته إلى عمل الشيوعيين في الهستدروت، فبعد عدة أيام من تأسيسها (الهستدروت) ناقشت قيادتها «تسرّب الفاشلين» (صفة ألصقت بالشيوعيين) التي نقابة عمال الحديد، بهدف تحويلها إلى نقابة مهنية عربية-يهودية. وقد وصفها برل كتسنلسون (مباي) ويتسحاق طبنكين (أحدوت هعفودا) بأنها عمل خطير، وطالبوا بفصل نقابة العمال اليهود عن نقابة العمال العرب. وتم إخراج نقابة عمال الخبازين في تل أبيب من صفوف الهستدروت، بسبب تسمية نقابتهم «النقابة المهنية الأممية»، أي المشتركة لليهود والعرب.

ويضمّ أرشيف الحزب الشيوعي في إسرائيل أسماء عشرات العمال الأميين، ممن تعرضوا لمعاناة قاسية، بعضها التصفية الجسدية، بسبب مواقفهم العمالية ضد التوجّه العنصريّ المستلهم للصهيونية العمالية، وبالأخصّ العمل العبري. وقف عشرات العمال أمام البيارات المملوكة للصندوق القومي اليهودي يقاومون قرار منع العرب من العمل. وجرّت صدامات أسفرت عن ضحايا. كما نشرت مجلة «الغد» الثقافية التي يصدرها الحزب الشيوعي أسماء عمال يهود أميين اعتقلتهم شرطة الانتداب وسلّمتهم للأجهزة التابعة للوكالة اليهودية، حيث شحّنا عنوة على السفن دون وثائق ليمضوا سنوات يتنقلون على الموانئ ويمنعون من النزول على اليابسة. كما قضى تحت التعذيب أعداد منهم. إنّ ممارسات اليمين، التي نطالع بعضها منها في هذا الكتاب (أنظر الفصل الأول، والفصل الرابع) قد اتبعت في أواخر عشرينات وأوائل ثلاثينات القرن الماضي في فلسطين الانتدابية.

## بن غوريون على المسرح

ظهر على المسرح السياسي في فلسطين ديفيد بن غوريون . يسهب في الحديث عنه أوري أفنيري في كتابه «Israel Without Zionists» (إسرائيل بدون صهيانية) . ويخلص إلى القول أن بن غوريون هو الذي خطّ نهج الصراع الدامي بين اليهود والعرب ، فقد بادر منذ الأيام الأولى للتحذير من ترك العرب يعملون في المشاريع الصهيونية؛ ورفع شعار ”العمل العبري“ إلى جانب ”الملكيّة العبريّة“ و ”الدفاع العبري“ ، أقانيم ثلاثة للصهيونية العمليّة التي اختطها منهجا سياسيا لتطوير وتوسيع الاستيطان اليهودي بفلسطين . طرح بن غوريون التوراة كتابا تربويا قوميا يدرس في حصص تعليم مستقلة ، وليس كجزء أساس في تعليم اللغة والأدب . واستمر هذا الأسلوب حتى الآن . وينظر له كأمر بدهي في الثقافة السياسيّة الإسرائيليّة . [ساند: 152] . بينما نقل البروفيسور ساند أن بن غوريون وزميله بن تسفي ، الذي شغل منصب الرئيس الثاني لإسرائيل ، كانا في شبابهما من أتباع بوغالي تسيون اليساري؛ وقد نشرنا كتابا دعوا فيه إلى تعايش العرب واليهود في فلسطين . وورد البروفيسور بايه في كتابه أن بن تسفي وبن غوريون نشرنا كتابهما (باليديشية) منذ 1918 ادعيا فيه أن الفلاحين العرب متحدّرون من الفلاحين اليهود الذين بقوا في فلسطين بعد النفي الروماني؛ وتابع بن تسفي تطوير الادعاء في الثلاثينات والأربعينات . وفي كتابه ”شاعر هيشوف“ (مدخل إلى الاستيطان اليهودي) ادعى أن القرويين في جبال الخليل هم في الحقيقة يهود اعتنقوا الإسلام“ . [بايه: 190]

وأكد اندماج الاستيطان بالقوة العسكريّة ييغثال ألون في كتابه ”إنشاء الجيش الإسرائيلي“ . يدمج ييغثال ألون (1918-1980) ، اختيار مواقع المستوطنات وفق خطة الصراع العسكريّ الحتميّ لاحقا مع الفلسطينيين . وآلون ، أحد أبرز رجال عصابات الـ ’هاغاناه‘ (منظمة الدفاع العبريّ وقد أنشئت في ظل الانتداب البريطانيّ) ، وأحد أبرز مؤسسي الـ ’الماخ‘ ، ذراعها العسكريّ الإرهائيّ الضارب؛ وقائد الجبهة الجنوبيّة في النقب وإيلات وسيناء ، خلال حرب 1948؛ وصاحب خطة السلام الشهيرة التي تحمل اسمه ، وتقضي بضمّ الضفّة الغربيّة إلى المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، ولكن دون السماح للجيش الأردنيّ بالانتشار فيها . عرض العلاقة الجدلية بين المستوطنات وبناء قوّة الهاجاناه اليهوديّة ، التي رشدت خطوات المشروع الصهيونيّ بفلسطين منذ أولى خطواته . وأورد ألون في الكتاب أيضا إشراك الهاجاناه في الصراع ضدّ الثورة الفلسطينيّة . فقد عمل في جهاز الاستخبارات للانتداب البريطانيّ الكولونيل أورد تشارلز وينغيت ، (حمل رتبة جنرال فيما بعد) وهو مسيحيّ صهيونيّ متعصب ، وقاد وحدات الهاجاناه أثناء الثورة الفلسطينيّة وأدخل تعديلات على خططها الحربيّة ، خصوصا المبادرة بالهجوم وعدم الانتظار حتى هجوم العدو . ”جعل القادة الصهيونيّين يدركون بصورة أفضل أن فكرة إقامة الدولة يجب أن تقتزن بشكل وثيق بتحضيرات عسكريّة وإنشاء جيش ، أولا وقبل كلّ شيء ، من أجل حماية الأعداد المتزايدة من الأراضي والمستعمرات اليهوديّة في فلسطين . وأيضا - وهذا أكثر أهمية - لأن الأعمال المسلّحة الهجوميّة من شأنها أن تشكل رادعا فعلا ضدّ المقاومة المحتملة للفلسطينيّين“ [إعلان بايه: 24]



## تكييف التاريخ

استرشادا بقاعدة «استملاك الماضي جزء من سياسة الحاضر» كان المؤرخون التوراتيون ينتظمون مع إيقاع النشاط الصهيوني بمختلف تفرعاته في فلسطين، والذي دشنته الحركة الصهيونية. إن ثقل الدراسات التوراتية وكثافة البحث في مواقع دون غيرها «يخدم تصوّر ماضٍ ملتزم بادعاءات تعكس مرامي الدولة الحديثة. هذا الإسكات للتاريخ الفلسطيني هو نتاج للسياق الاجتماعي والسياسي الذي جاءت فيه الأعمال المرتبطة بالتاريخ الأوروبي، وفرض نموذج الدولة الأوروبية القومية على الشرق الأدنى القديم، هذا النموذج الذي أكدته أوروبا وتبناه الغرب في دعمه لدولة إسرائيل الحديثة. أما التاريخ الفلسطيني فقد استبعد من خطاب الدراسات التوراتية. ولذا فلا وجود له في الحاضر.» [وايتلام:207]

استخدم بن غوريون الكتاب المقدس كتابا علمانياً - قومياً يشكل منهلاً مركزياً لتصاوير ماضوية جماعية، ويساهم في تحويل مئات ألوف المهاجرين الجدد إلى شعب موحد متكاتف، ويربط الأجيال الشابة بالأرض. «لم يكن صدفة أن تتركز النقاشات الصحابة حول سفر يوشع. شارك بن غوريون في اجتماعات علنية حول التناخ (التوراة بلغتها الأصلية) وساهم في مبادرة لإعلان مسابقة حوله تحوّلت إلى مهرجان قومي إعلامي. كما شجّع زخم الحفريات الأثرية [ساند:147].

اعتاد بن غوريون الالتقاء بعلماء الآثار التوراتيين في بيته. كانت للخرافة التوراتية مكانة مركزية في الهندسة الأيديولوجية للصهيونية. وكل من يتأمل كتابات بن غوريون «تأملات في التناخ» تعثره الدهشة من «أسلوبه الكتابي المرن الذي يتراوح بين البراغماتية السياسية المراوغة وبين الإيمان الصادق والخاص في «الحقيقة» الماضوية. وصرّح مرارا وتكراراً بأن سفر الأسفار هو هوية الشعب اليهودي وهو البرهان لصكّ الانتداب على «أرض إسرائيل». [ساند:148]

احترف دايان جمع الآثار. «وإذا كان بن غوريون قد جعل من بيته منتدًى للتاريخ فقد حول تلميذه دايان حرمه الرحب إلى متحف تناخي خاص. وبينما جمع المؤسس المثقفين من حوله فقد فضّل تلميذه الشاب جمع الأحجار المنقوشة، جرار الفخار والأيقونات. هكذا أحاطت بهما بيئة تناخية شرعت جل نشاطهما التاريخي بل وسوغته [ساند:152].

سدر الصهيونية في التبعّد بمحراب هيكل التنقيبات الأثرية لدرجة أنهم غفلوا عن معطيات تناقض النصّ التوراتي. باتت التوراة مرشدة عمل في الدين وفي التاريخ وفي التنقيبات الأثرية بفلسطين وفي بناء القومية اليهودية المزعومة. طمست الأبحاث التوراتية، على مختلف مقارباته، التاريخ الفلسطيني، أو عتمت عليه خلف التاريخ «الإسرائيلي القديم». مضت التنقيبات الأثرية في فلسطين، جاهدة لإبراز «فلسطين التوراتية». وعلى وقع النتائج المظفرة للعمليات الحربية مضى

المؤرخون التوراتيون يطوّرون» اكتشافاتهم». رأى موشيه دايان، أحد تلاميذ بن غوريون، أن التناخ قد «شكل التبرير الأسمى للتواجد والاستيطان اليهودي في العصر الحديث. ومن هنا فإن كل معركة إن هي إلا صدى لأفعال قديمة. وينتهي الكتاب إلى التعبير عن تعطش مكشوف لأن تكون إسرائيل مشابهة لمملكة داود، القويّة، والعيش في أرض إسرائيل واحدة تمتدّ من النهر إلى البحر، ومن صحراء سيناء حتى الحرمون (جبل الشيخ) [ساند: 152]. أولاً برهنوا أن فلسطين القديمة هي إسرائيل القديمة بموجب الوعد الإلهي في سفر التكوين. وبعد احتلال فلسطين كاملة «اكتشفت الحفريات» أن القدس مركز دولة أو امبراطورية عظيمة. ولما برزت أطماع إقامة إسرائيل الكبرى اجتهدت التنقيبات الأثرية للكشف عن إسرائيل قديمة تمتدّ من النيل إلى الفرات. استند التلفيق الاستشراقيّ إلى عبارة فسّرت بصورة متعسفة؛ إذ أثبت الباحثون أن ترجمة العبارة العبرية بالمضمون الوارد خاطئة وتفصح جهلاً بلغة التوراة الأصليّة، وإسقاطها بصورة متعسفة على جغرافية فلسطين. دحض علم الاجتماع حكايات التوراة بصدد امبراطورية داوود، حيث الامبراطوريات القديمة ظهرت في مناطق الزراعة النهريّة، وفائض الإنتاج يكفي لتزويد الجيوش الضخمة، المجهّزة للاحتلال. وحسب المؤرخين الموضوعيين لم تقدّم التنقيبات مادّة جديدة؛ إنما اقتصرت المحاولات على إثبات نصوص التوراة في واقع مموّه؛ كانت النتيجة أن اهتزت الثقة بنتائجها في سبعينات القرن الماضي، وظهرت الشكوك في صحّة أصل التوراة. «تمردت بعض المكتشفات الأثرية على النصّ المقدس، غير أن علماء الآثار قاموا جرياً على عاداتهم، بحل المشاكل بطريقة تبريرية محكمة استنطقوا فيها المعطيات الصمّاء كما يحلو لهم ولأموها كي تتناغم مع الأصوات المتنفّذة القادمة من التناخ. [ساند: 155]

### التطهير

راودت فكرة تهجير العرب من ديارهم أذهان القادة الصهيونية منذ ثلاثينات القرن الماضي. «كانت رؤية الدولة القومية اليهودية المحضنة راسخة في صميم الإيديولوجيا الصهيونية منذ أن برزت الحركة أواخر القرن التاسع عشر» [بايه: 51]. وكتب يوسف فايتس في مذكراته، العام 1941، «أليس الآن هو الوقت الملائم للتخلص منهم؟ لماذا نستمرّ في ترك هذه الأشواك بيننا وهي خطر علينا؟ يجب ألا تترك حتى قرية واحدة ولا عشيرة واحدة» [المصدر نفسه، 72]. ومباشرة بعد صدور قرار التقسيم في 28 نوفمبر 1949، شرع بن غوريون ولجنته الاستشارية يتجاهلون حدود التقسيم. لم يشعر بن غوريون والمجموعة الصغيرة من الشخصيات المحيطة به، في أية لحظة بين تشرين الثاني / نوفمبر 1947 وأيار / مايو 1948 بأن مستقبل دولتهم في خطر، أو أن العدد الضخم من العمليّات العسكريّة التي يجب القيام بها يمكن أن يؤثّر سلباً في مهمة طرد الفلسطينيين. رسم قادة المجتمع في العن سيناريوهات مرعبة، وفي الوقت نفسه راحوا «يحذرون جمهورهم من 'محرقّة ثانية'» وشيكة. [بايه: 56]

راهن بن غوريون على اندلاع العنف المسلّح بئمة لتنفيذ عمليّات التطهير. بادروا في المعسكر

الصهيونيّ يناورون . راوغت القيادة الصهيونيّة فرحبت باعتدال ردود الفعل العربيّة؛ لكن «ردود الفعل اللامبالية والمتقاعسة (من جانب الفلسطينيين) تقريبا أزعجتهم» [بايه:61].

يتتبع المؤرّخ بشجاعة ونزاهة العمليّات العسكريّة والاستفزازات وأساليب الشحن التي اتبعت طوال العام 1948 حتى كانون الثاني 1949 لطرد العرب من ديارهم ومنع عودتهم . ولدى مهاجمة قرية الخصاص الصغيرة ذات المركز الاستراتيجيّ في 18 كانون اول /ديسمبر 1947 «راقب مراسل نيويورك تايمز نسف البيوت على أصحابها النيام ، فأصيب بالصدمة ، وتوجّه إلى القيادة العسكريّة يستفسر . أنكروا في البداية ، ولدى إصرار المراسل اضطرّوا للاعتراف بوقوعها . وأصدر بن غوريون اعتذاراً علنيّاً درامياً مدعيّاً أنّ العمليّة لم يكن مصادفاً عليها . لكن بعد نيسان 1948 أدرجت ضمن العمليّات الناجحة» [نفس المرجع:67]. يأتي المؤرّخ على وصف تفجيرات حيفا وإلقاء القنابل المتفجّرة وسط الحشود ، وطرد الناس تحت التهديد بالموت . في بداية الاشتباكات في يافا توجّه إلى منزل بن غوريون وفد من الموظّفين يشكون من تغيير موقف الهاغاناه من يافا ، إذ تم الاتفاق على تعايش يافا وتل أبيب ، وأن الجنود يطشون بالعرب دون أن يصدر عنهم أيّ استفزاز ، ويسرقون العرب ويصادرون الأملاك ويطلقون النار بقصد الإرهاب؛ وكتب بن غوريون في مذكراته أن احتجاجات مماثلة وردته من بيتاح تكفيا وريشون لتسيون ورحوفوت وغيرها . غير أن شهرا واحداً من تلك الممارسات العنيفة أعقبه توحيش عام؛ الجميع راوحوا يشاركون في ممارسات مماثلة . نفس الموظّفين الذين اشتكوا طالبوا «يجب أن نضرب يافا بكلّ وسيلة ممكنة» [المرجع:76].

ويذكر بايه أن غولدا مائير زارت حيفا بعد تهجير سكانها ، «وجدت من الصعب عليها أن تكبت إحساسا بالرعب عندما دخلت البيوت ، حيث الطعام المطبوخ ما زال على الطاولات ، والألعاب والكتب التي تركها الأطفال على الأرض ، وحيث بدت الحياة كأنها تجمّدت مرّة واحدة . . . ذكّرتها بطفولتها حين هربت عائلتها من روسيا ، والقصص التي سمعتها من عائلتها عن الوحشية الروسيّة ضدّ اليهود قبل عقود [107]. ثم مضت الأمور واستساعت غولدا مائير سفك الدم الفلسطينيّ ، لتجهر بالسؤال العنصريّ المشحون بعريّة القوة «أين هو الشعب الفلسطينيّ؟» .

أكاذيب غولباز استولت على التفكير الصهيونيّ . أجل هزمتهم الهتلريّة وسيطرت على عقولهم ، كما لاحظ أبراهام بورغ في كتابه «لنتحرّر من هتلر» . «أدركت القيادة العسكريّة كم كانت ضعيفة المقاومة الفلسطينيّة ، وصرّح بن غوريون لمستشاريه أن بالإمكان احتلال فلسطين بكاملها . ورغم ذلك كان يخاطب الجمهور اليهوديّ هذه حرب هدفها تدمير المجتمع اليهوديّ وابدائه» [أبراهام بورغ: لنتحرّر من هتلر: 82]. وفي جلسة اللجنة الاستشارية ، هي الوحيدة التي سجل محضر لها ، حفظ في أرشيف الهاغاناه ، اقترح فايتس خطة لترحيل الفلسطينيين من المناطق المنسوي احتلالها . «وغازر فايتس الجلسة ويبيده إذن بإنشاء زمرة تابعة له تحت الاسم 'لجنة الترانسفير'؛ وأتى إلى الاجتماع التالي ويبيده خطة تنفيذ الترانسفير» [بايه:73].

استخدمت أسلحة فتّاحة، وجرى تطوير أسلحة كيمياوية وأخرى بيولوجية، والفلسطينيون «غير مدرّكين لما سيطرأ على حياتهم من تغيرات دراماتيكية وحاسمة. ولم يكن لدى قادتهم أو لدى الصحافة الفلسطينية، أيّ فكرة عما كان يجري تداوله خلف الأبواب المقفلة في البيت الأحمر» (حيث تعقد الجلسات السرية للجنة الاستشارية في مبنى الهستدروت) [بايه: 84] وتتذكر شولاميت ألوني المجنّدة حينذاك برتبة ضابط كيف كان المفوضون السياسيون يأتون إلى الجنود ويحرضونهم؛ فيصوّرون الفلسطينين شياطين، ويستحضرون الهولوكوست وضرورة العمل على منع تكرارها في إشارة إلى العمليات المتوقّعة» [بايه: 94]

صدرت الأوامر بنسف مباني الشيخ جراح في نيسان / إبريل 1948؛ لكنّ البريطانيين أوقفوا تنفيذ الأمر. . «أظهر الموقف البريطانيّ كم كان معصير كثير من الفلسطينيين سيختلف لو أن القوات البريطانية تصرّفت نفس الشيء في أمكنة أخرى [بايه: 110]، فالقوات البريطانية وقفت تنفّرج على أعمال القتل الجماعي والتدمير في مدن حيفا ويافا وصفد وطبرية. «في الحقيقة، امتنع البريطانيون من القيام بأي تدخل جدّي منذ تشرين أول / أكتوبر 1947، ولم يحركوا ساكناً بوجه محاولات القوات اليهودية السيطرة على المخافر الأمامية، كما لم يحاولوا إيقاف تسلّل متطوّعين عرب بأعداد قليلة» [137]. لقد سمحت بريطانيا بحدوث تطهير عرقيّ جرى تحت سمع وبصر جنودها وموظفيها. . كما اعاققت جهود الأمم المتّحدة للتدخل بطريقة كان من الممكن أن تؤدي إلى إنقاذ كثيرين من الفلسطينيين. اما الأمم المتّحدة فلا يمكن تبرئتها من ذنب التخلّي بعد 15 أيار عن الشعب الذي قرّرت تقسيم أرضه وسلّمت أرواحه وأرزاقه إلى اليهود، الذين كانوا منذ القرن التاسع عشر يريدون اقتلاعه والحلول مكانه في البلد الذي اعتقدوا أنه ملك لهم» [138].

وفي وقت لاحق غصّ المراقبون من الأمم المتّحدة النظر عن عمليّات التهجير. ومن المتعذّر تفسير لماذا لم تبحث الأمم المتّحدة قط في مسألة الوضع القانوني لإسرائيل في المناطق المخصّصة للدولة العربية عندما أظهر المجتمع الدوليّ لفترة وجيزة اهتماماً بمصير فلسطين بعد الانتداب وبمصير سكانها الأصليين. [بايه: 203]. و«تحت بصر مراقبي الأمم المتّحدة الذين كانت دورياتهم الجوية تحوم في سماء الجليل، بدأت المرحلة النهائية من عملية التطهير العرقي في تشرين الأوّل / أكتوبر 1948، واستمرّت حتى صيف 1949. لم يكن بقدرة أيّ امرئ أن لا يرى جموع الرجال والنساء والأطفال، وهم يتدقّقون يومياً نحو الشمال. وكانت النساء والأطفال المرهقون العنصر الطاعني في هذه القوافل البشرية، إذ غاب الشبان بالقتل أو الاعتقال. قلوبهم تحجّرت؛ وإلا كيف نفسر القبول الصامت بمثل هذا الترحيل الجماعيّ القسريّ، الذي كان يجري تحت سمعهم وبصرهم. . . وظلت الأمم المتّحدة تتبنى بلا إبهام لغة أبا إيبان، مندوب إسرائيل في الأمم المتّحدة، الذي كان يتحدّث عن اللاجئين كأنهم «مشكلة إنسانية» لا يمكن اعتبار أحد مسئولاً عنها أو محاسبته عليها [بايه: 218].

ينقل الباحث باستغراب طقوسا رافقت عمليّات التطهير. في أثناء تطهير القطمون بدأ النهب والسرقه، وشارك فيهما المواطنون والجنود. اقتحموا البيوت وأخذوا الأثاث والملابس والأدوات الكهربائيّة والأطعمة [بايه:111]. وأتقن الجنود عمليّات التهديم التام لبيوت كل قرية يفرغون من تصفية الوجود السكاني فيها. «البكاء بصوت مرتفع بينما هم منهمكون في قتل وطرده أناس أبرياء كان واحدا من التكتيكات للتعامل مع المضامين الأخلاقية لخطة دالت [بايه:122].

في 24 أيار انعقدت جلسة اللجنة الاستشارية، ”بدا بن غوريون في مدونته بعد 24 أيار مبتهجا بالصر شرها إلى السلطة أكثر من أي وقت مضى: يجب إقامة دولة مسيحيّة في لبنان يكون حدّها الجنوبيّ نهر الليطاني . . . عندما نحطم قوة الفيلق ونقصف عمان سنقضي أيضا على (قوة) شرقيّ الأردن، وبعدها تسقط سوريا. وإذا تجرأت مصر على مواصلة القتال سنقصف بورسعيد والاسكندرية والقاهرة [بايه:156]. ثم راودته أفكار نقض الاتفاق مع الأردن والاستيلاء على الضفّة الغربيّة. ”انطلقت عمليّة يتسحق في 1 حزيران لاحتلال طولكرم وجنين وقلقيلية والاستيلاء على جسر الأردن؛ لكن الكنيّة العراقيّة نجحت في الدفاع عنها [يايه:177]. وقبل أن تدخل الهدنة الأولى حيّز التنفيذ سرّعت القوات اليهوديّة احتلال القرى الموضوعه على البرنامج، ولم يتوقف الاحتلال والتطهير أثناء الهدنة. وخلال الهدنة الأولى (بدأت في 8 حزيران) قام الجيش الإسرائيليّ بعمليّات تدمير لعدد من القرى وطرده سكانها، منها المزار في الجنوب وفتحة قرب بتاح تكفا وبيار عدس ومسكة وهوشة والسميرية والمنشيّة بالقرب من عكا. ودمرت قرى دالية الروحاء والطبمات وصبارين في يوم واحد [بايه:177].

شاور بن غوريون خمسة من أعضاء لجنته الاستشارية بصدد احتلال الضفّة الغربيّة في المستقبل. وينقل يتسحق غرينباوم الذي شيسغل فيما بعد منصب وزير الداخلية أنه أشار على بن غوريون، ”سيكون من المستحيل أن نعمل هناك ما فعلناه من تطهير عرقي. إذا قمنا باحتلال أمكنة مثل نابلس فسيطالبنا العالم اليهوديّ بالاحتفاظ بها وسنكرّر أعمال الطرد الجماعيّة [بايه:220].

”زار يغئيل يادين، نائب رئيس هيئة الأركان شفا عمرو في وقت لاحق من شهر تموز، ودهش لما رأى أهل البلدة لم يرحلوا، سكان المدينة يتجولون بحرية“ امر يفرض منع التجول والقيام بحملة تفتيش بالقرية [بايه:188]. أتت الهدنة الثانية في 18 تموز وكانت عمليّات التطهير على أشدها؛ جرى التسريع في الهدم والتهجير، كما جرى في قرى قوله وخربة الشيخ ميسر وأضيفت اللد والرملة و68 قرية أخرى إلى القرى ال 290 التي طهرها ودمروها [202].

أفحش الجرائم اقترفت لدى احتلال اللد والرملة. أدلى أسبير منير في مقابلة مع سليم تماري بمشاهداته لاحتلال اللد في تموز 1948. كانت اللد والرملة من أراضي الدولة الفلسطينيّة. عمل ممرّضاً مع الدكتور جورج حبش، و”شاهد الاحتلال والمجزرة في الجامع، والطريقة

التي اقتحم بها الجنود الإسرائيليون وراقب البيوت تنهب واللاجئين يسرقون قبل أن يؤمروا بالسير في اتجاه الضفة الغربية. [195]

راقب عدد من الصحفيين الجموع المتجهة شرقاً. و"كتب كيث ويلر من صحيفة شيكاغو صن تايمز عملياً كل شيء في طريقها (القوات الإسرائيلية) أدركه الموت. وتقع على جانبي الطريق جثث مثقوبة بالرصاص. وكتب كينيث بيلي من صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون" أنه شاهد جثث نساء ورجال وحتى جثث أطفال متناثرة هنا وهناك، في إثر هجوم متألق لا رحمة فيه. وقد ألف بيلي كتاباً عن هذه الأحداث عنوانه "نجمة جديدة في الشرق الأدنى"، نشر بعد عامين [196]. أهمل الصحفيان ذكر أعداد القتلى والجرحى والأسرى والمشردين. "كانت تقارير منحازة للأسف". أما صحيفة الإيكونوميست فكتبت "اللاجئون العرب جردوا بشكل منظم من جميع أملاكهم قبل أن يدفعوا إلى الرحيل. واضطروا للتخلي عن كل ما في بيوتهم ودكاكينهم وملابسهم [197]. قدر راين عدد المشردين بخمسين ألفاً [197]."

مع اقتراب عمليات التطهير من نهايتها كانت الأغلبية السكانية تصمد بشجاعة في الأيام الأخيرة من تشرين الأول، إلى أن تطرد بالقوة. وفي النهاية سمح لأهالي القرى ذات الكثافة السكانية العالية بالبقاء. وهذا يفسر لماذا لا يزال سكان ترشبحا ودير حنا وعيلبون موجودين إلى الآن. [210]

وفي بلدة الدوايمة، وهي من لواء الخليل آنذاك، كان السكان يقومون بأعمالهم المعتادة حين فاجتاهم وحدة قتالية. "قفز الجنود من عرباتهم وراحوا يطلقون النار دون تمييز. دخلوا الجامع وكان مكتظاً فأجهزوا على من فيه، ثم أجهزوا على الحشود المختبئة تحت عراق الزاغ. رجع المختار ليرى الجثث المتناثرة في الشوارع والمكدسة تحت العراق وفي الجامع. أظهر التعداد الذي قام به المختار فقد 455 شخصاً بينهم 170 طفلاً وامرأة. [224]

النظرة الثاقبة التي تحلى بها البروفيسور باييه، وكذلك الشجاعة والإصرار على كشف أكبر قدر من الجرائم دفعته إلى القول "إن مرويات التاريخ الشفهي التي زودت إلياس خوري بمادة من أجل روايته 'باب الشمس' تعزز الانطباع أن المادة الأرشيفية لا تخبرنا بالقصة كاملة؛ إنها مقتضبة فيما يتعلق بالوسائل المستخدمة" [125].

لم يكن غير التخطيط المسبق بالحصول على دولة موسعة نقيّة من الأغيار ما دفع إلى ارتكاب الجرائم. قبل نهاية الانتداب البريطاني لم يشكل المتطوعون العرب القادمون من الخارج ولا القوات شبه العسكرية في الداخل خطراً جدياً على المجتمع اليهودي؛ من شأنه أن يؤدي إلى خسارته المعركة أو يضطرّه إلى الاستسلام. . . غير أن الرأي العام الإسرائيلي والأميركي بصورة خاصة، نجح في تخليد أسطورة أن الدولة اليهودية المرتقبة كانت عرضة لخطر التدمير، أو "هولو كوست أخرى" [134].

## ولهم الدين مسخراً

أدخل بن غوريون الأحزاب الدينيّة في حكومته رغم أن حزبه امتلك الأغليبيّة المريحة التي تمكنه من الحكم . وكان بذلك يرمي إلى إدخال الدين في صلب التربية السياسيّة للمجتمع الناشئ . كانت نظرة بن غوريون بعيدة المدى ، ترمي إلى تغلغل إسقاطات التخيلات التوراتيّة في الوجدان الجمعي اليهودي ، وتحويلها إلى موجّه للممارسات العمليّة للمجتمع الآخذ بالتشكل . وقد حقق التوجه نجاحاً كبيراً يتجسّد الآن في موجة التعصب الفاشي التي تكتسح المجتمع بأغليبيته الساحقة .

يسترجع أوري أفيري في مقالة له انتقد فيها مطلب ننتباهو الاعتراف بـ «دولة يهوديّة» فيشير إلى أنه «قبل قيام دولة إسرائيل لم يتحدّث يهودي قط عن دولة يهوديّة؛ وكان المتظاهرون اليهود يرددون هتافات «حرية الهجرة، دولة عبريّة» . كان مفهوم «دولة عبريّة» وليس «دولة يهوديّة» هو الشائع في أدبيات تلك المرحلة . وأمام لجان التحقيق الدوليّة، قبل تأسيس الدولة، كان المتديّنون من اليهود الأرثوذكس يحرضون على تقديم الشهادات المناوئة للصهيونيّة . ثم يمضي إلى القول، «والتقاليد السيفارديّة أكثر تسامحاً بكثير من الأشكينازيّة، فالأولى تضمّ تعاليم مفكرين عابرة أمثال موسى بن ميمون، الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبي . وحظر السيفارديون على تلاميذ المدارس الدينيّة كسب مصادر عيشهم من أبحاثهم، وأوجبت العقيدة الدينيّة عليهم كسب المعيشة بالعمل . كان للسيفارديّين تقاليدهم وملابسهم وشعاراتهم . لكن تغيرت الأمور لدى القدوم إلى إسرائيل؛ حيث وضعوا أنفسهم في تبعيّة للأشكينايز وتبنوا عصبّيّاتهم . وتشكل حزبهم، شاس، خادماً للأرثوذكسيّة الأشكينازيّة، وراح زعيمهم عوفاديا يوسف يتذلل لحاخامات وفدوا من شرقي أوروبا (ويطلق عليهم الليثوانيون) .»

يفسر هذا الرضوخ من جانب زعيم شاس مقال يتتبع استثناء العنصريّة داخل دولة إسرائيل نشرته صحيفة هآرتس (31 كانون الأول 2010) جاء فيه: ”قررت إسرائيل منذ مرحلة مبكرة من نشوئها تفوق العنصر الأبيض . ومنذ أتى وُجلب إلى هنا من أصبحوا على مرّ الأيام «شرفيين» عاملوهم وكأنهم دون البشر، ولم يعرضوا عليهم ولم يمكنوهم من الاندماج في السلطة والأرض وأجهزة القوة ووسائل الإعلام . وقد أصبحوا سريعاً مواطنين لكن من الدرجة الثانية: معرّضين لعلاقة مذلة، وظروف أقل، ومبعدين عن الحياة العامة وحياة الثقافة الرسميّة، ويعيشون مع علم وتجربة دائمة للدونيّة، وفي انفصال في أحياء وعمائر مستقلة؛ ”فعندما يقرّر رب البيت والحاكم أن الأبيض حسن والأسود دون، تستدخل هذا المعيار وتكره نفسك قبل كل شيء لأنك لست أبيض . ويصبح معيار تفوق الأبيض والعنصريّة التي تأتي معه جزءاً منك حتى عندما تكون أنت الضحية، وأنداك توجه العنصريّة هذه نحو الآخرين، إلى من هو أكثر منك سواداً وأحطّ قدراً . زيدوا على هذا الضيق المعيشي وتحميس الغرائز التي يهيجها المهيجون الذين لا يضيعون فرصة لتهييج النفوس لتحصلوا على مظاهر العنصريّة الأخيرة . لان اليمين المتطرّف منذ كان ملاً الفراغ

الذي تركه اليسار الاجتماعي المهمل . لكن ينبغي الا نخطئ أن الكراهية والعنصرية كانتا هنا دائماً وهما تخرجان الآن إلى الخارج بصوت أعلى . » [ المصدر السابق ]

أجبر القادمون من بلدان الشرق على تصديق أنهم يحملون ثقافة متخلفة لا تليق بالبشر ، وعليهم مقابل العيش في إسرائيل أن يحجر عليهم داخل معازل إلى أن يستوعبوا الثقافة المتحضرة . من تداعيات التمييز العنصري ضد اليهود الشرقيين ”نسمح لأنفسنا بالعيش براحة كبيرة مع ورثة الشرير الألماني ، المريح ، النوعي ، الجمالي ، والتمتع بالفلسطينيين ككيس ضربات للتغيب عن شحنات العدوانيّة والغضب والتاريخ المخزونة فينا أكثر مما ينبغي . [ بورغ 128 ]

إذن تم إخضاع اليهود الشرقيين لمنطق أنهم وفدوا من ثقافة منحطة وعليهم أولاً التخلّص منها كي يكسبوا حقّ العيش مع الثقافة المتقدمة . ويمكن القول إن المؤرخ دينور (أول وزير معارف في دولة إسرائيل ومقرب من بن غوريون) جعل من الكتاب المقدس بعد أن جرّده من الميافيزيا الإيمانيّة ، بمثابة عقيدة قوميّة صرف . وبات باستطاعة قليلي العصب أن يقرأوا الكتاب (التناخ) بشكل موارب ، وأن يقفروا عن الفروض الإلهية مع البقاء مخلصين لفروض الحقيقة القوميّة فقط“ [ ساند: 145 ] .

في العام 1997 عقد حزب العمل مؤتمره في بلدة نيتيفوت . اختار إيهود باراك ، رئيس الحزب آنذاك ، البلدة البعيدة عن النخب الأشكنازية والساخطة على الأشكناز فأعطت في الانتخابات السابقة (1996) نسبة 86 بالمائة من أصواتها إلى ننتياهو ، و 11 فقط إلى منافسه شمعون بيريس . في ذلك المؤتمر ، الذي انعقد بعد مرور عام ونصف على اغتيال إسحق رابين ، وعام على هزيمة بيريس ، ألقى باراك كلمة تضمنت اعتذاراً بليغاً وحرّاً من اليهود الشرقيين ، فقال إن حزب العمل ينبغي أن يفاخر بأنه أسس دولة إسرائيل ونجح في كتم شمل المنفيين ، ولكنّ الحزب ينبغي أن يعترف أيضاً أنه أرسل هؤلاء المنفيين - المهاجرين إلى مناطق تنموية مثل نيتيفوت ، حيث جرى تمزيق معظم النسيج الاجتماعي ، وعانى المستوطنون من آلام سوف تظل محفورة في قلوبهم وفي قلوب أحفادهم . ثم ختم بالقول: في الاعتراف بتلك المعاناة وذلك الألم ، ومن منطلق التماهي مع المعدّيين وأحفادهم ، فإنني من هذا المنبر أطلب المغفرة باسمي شخصياً ، وباسم حركة حزب العمل التاريخيّة . عندما ”طلب باراك بصورة دراميّة صفح الطوائف الشرقيّة باسم حزب العمل على مرّ أجياله ، فقد واصل بذلك نهج الاستعلاء الفارغ ذاته ، الذي كان ينقصه التعاطف الحقيقيّ مع كل ما انهار وكل ما يسبّب الألم . وكان ينقصه أيضاً التفهّم العميق أن انهيار اليهوديّة العربيّة هو أمر مهمّ بالنسبة لإسرائيل وليس أقل ، وربما أكثر بكثير ، من انهيار يهوديّة أوروبا . لأن يهوديّة الإسلام التي انهارت كان بإمكانها أن تشكل جسراً بشرياً دافئاً وصادقاً بين إسرائيل وجيرانها“ . [ بورغ: 63 ]

ولم تكن هذه السيرورة ما توخّته الحركة الصهيونيّة . البديل كان ”جدران كبيرة مزينة برسومات



لكتابات عنصريّة من قبيل 'الموت للعرب' و'إذا لا يوجد عرب لا توجد عمليّات' والبلدية والشرطة وكل المسؤولين عن الواجهة الخارجيّة لإسرائيل لا يتكفلون حتى بمحو هذا الخزي الظاهر للعيان" [بورغ: 89]. "ما هي المادة اللاصقة، الدبق، التي توحد المجتمع الإسرائيلي؟ الحرب؟ كم مرّة قلنا لأنفسنا من حسن حظنا أنه يوجد عرب، لأنه بدونهم لكان الواحد منا قد افترس الآخر منذ وقت طويل. كم مرّة فكرنا أنه لو كان أعداؤنا يملكون العقل لألقوا أسلحتهم وطبعوا سيوفهم سكا ورماحهم مناجل، وانتظروا بصبر؟" [بورغ: 90]

مضى باراك على خطى بيغن، الذي تاجر بآلام السيفارديين في انتخابات 1977، بتجنيد اليهود الشرقيين وأقام برنامجه الاجتماعي-الثقافي على ذلك التناقض الصارخ بين "مليونير الكمبيوتر الناعس في حوض السباحة" و"الفقير الكادح في الضواحي وبلدات التنمية".

ولعل باراك فهم أنّ إيغال عمير، قاتل إسحق رايبين، ليس سوى أحد الساخطين ممن اعتذر لهم. وإذا كان عمير قد أعلن أنه اغتال رايبين لكي يغتال اتفاقات أوسلو، فإن ما أعلنته خليّات الفتى السوسولوجيّة والثقافيّة والنفسيّة والإثنيّة تشير إلى أنّ تنكيل نخب حزب العمل باليمينيين (معسكرات، تمييز عنصريّ في الدراسة والإقامة والعمل، اختطاف أطفال لإجراء تجارب صحيّة ونفسيّة وبيولوجيّة...). كانت تستقرّ عميقاً في روح عمير، وتُحرّك فيه نوازع الحقد على المؤسسة، وهي التي حرّكت إصبع يده حين ضغط على الزناد.

في الأيام الأولى للدولة كان الأشكيناز الأرثوذكس معتدلين في قضايا القوميّة رغم تشدّدهم في المعتقدات الدينيّة. لم يهملوا فحسب احتفالات عيد استقلال الدولة أو تحية علم الهراطقة الصهيونيّة؛ بل عارضوا المغامرات ذات الطابع القومي التي نفّذها بن غوريون ودايان وبيريس. شكّل لهم بن غوريون فرعاً خاصاً بهم في نظام التعليم. وبعد حرب حزيران عارضوا ضمّ المناطق المحتلة؛ لم تنشأ المعارضة عن توله بالسلام مع الشعب الفلسطينيّ، إنما التزاما بقوانين الهالاخا التي تحظر استفزاز الغوييم كي لا يلحقوا الأذى باليهود. وتشكّل من وسطهم غوش إيمونيم، النواة الإيديولوجيّة لحركة الاستيطان. وشيئا فشيئا تم استدراجهم لتأييد الاستيطان. شرع الأرثوذكس بإقامة المستوطنات تحذوهم الحاجة لتوفير السكن لأعدادهم المتزايدة، وليس بحافز إيديولوجي. منحتهم الحكومة أراضي سكنيّة رخيصة خلف الخط الأخضر. وحاليا تتبع أضخم المستوطنات للأرثوذكس: بيتار، إيليت، إيمانويل، موديعين إيليت، والأخيرة مبنية على أراض مسروقة من مزارعي بلعين. شكّل المستوطنون أقلية في الوسط المتدينّ وشاعت الكراهية بينهم وبين الشرقيين. وفي الوقت الراهن يدير شؤون هذا المعسكر حاخامات تنفث تعاليمهم سموم الفاشية. لم تعهّد دولة إسرائيل عناصر التواصل والتفاهم مع الجيران؛ إنما تعهّدت «مجموعات من المستوطنين تهزج بحرب أهليّة، تحرّض على رفض الخدمة العسكريّة، تقوِّض صلاحيات الدولة وتنفّي حقّها في تنفيذ رغبة غالبية مواطنيها - وكل هذا باسم حرية التعبير وحرية التنظيم.» [بورغ: 90]. الكل يدرس الطلبة في مدارس تاريخ الشعب اليهودي فقط (ويستند بالطبع إلى

الخرافات الدينيّة)، أما القرآن والانجيل فهما صميم الشرّ ويجب عدم لمسهما . وخلاصة القول إن «الأجانب» (ويقصد بهم العرب الذين أقاموا هنا منذ ثلاثة عشر قرناً على أقلّ تقدير) يجب طردهم ما لم يلحق ذلك الضرر باليهود . وفي أواخر شهر ديسمبر (كانون الأول) 2010 ثار الحاخام السيفاردي حاييم أمساليم على عوفاديا يوسف وحزبه مطالباً بالعودة إلى تقاليد التسامح السفارديّة . وحورب الحاخام المتمرد بالمقاطعة .

### جيش الثقافة

استعرض إيهود بن عزيز ، في دراسة تاريخيّة بعنوان «المسألة العربيّة وشخصية العربيّ في الأدب العبريّ» [العودة إلى الصحراء] تطوّر اتجاهات الأدب وتكامل مضامينه الصهيونيّة منذ «اكتشاف» الوجود العربيّ في فلسطين في العقد الأخير من القرن التاسع عشر» . قال الباحث «يمكن القول بوجود حقبة تاريخيّة مبكرة لم تتبلور فيها النوايا الإحلاليّة في الثقافة العبريّة . . . . وبعد ظهور مقالة كلاوزنر ، «باتت الصهيونيّة مقاتلة فعالة في التاريخ وصراعها مع العرب حتمي» .

عن رواية كتبها هيرتسل ، الذي زار البلاد مرة واحدة ، العام 1898 ، يقول المؤرّخ الأدبي (إيهود بن عزيز) إنها «تسيّطية إلى درجة الإثارة ، طوباوية ومنحازة بتجاهلها التام للمسألة العربيّة» . حقاً فلم يصدق هيرتسل في ما جهر به . كان باطنياً يطن للدولة اليهوديّة دور «واجهة متقدّمة للحضارة الأوروبيّة ضد الهمجية الإسلامية» . تحدّث نفاقاً عن تعايش وتعاون بين المستوطنين والسكان الأصليين . تخيل هيرتسل في روايته «الحركة الاقتصاديّة القوية ورأس المال اليهوديّ يغيّران وجه المجتمع العربيّ ، فلن يشكّلوا مسألة قوميّة . لهم كامل الحقوق ، بل إنهم شاكرون لليهود فضلهم في رفع مستواهم الحياتي . . . القرية العربيّة تحسنت ، ولم تمسّ ديانتهم أو عاداتهم بسوء ، ولم يكن هناك أي أثر لمسألتهم القوميّة!!

بعد إنشاء الدولة ، يواصل المؤرّخ الأدبي دان ميرون : «في دولة إسرائيل انتشر مفهوم 'جيش الثقافة لإسرائيل' ، كشف من خلاله الأديب إلى أي مدى يقبل في سريره بالتحوّل الحاد الذي أدى إلى تفضيل القوّة العسكريّة على القيم الروحية للإبداع» [العودة إلى الصحراء: 106] . حقاً غدت الثقافة تكمل مهام القطعات العسكريّة ، وبقيت ظلها التابع .

في إسرائيل والولايات المتّحدة نجحت السياسات المتبعة في إضعاف اليسار والقوى المدافعة عن مصالح الفئات الفقيرة المهّمّشة . تخلّى ما أطلق عليه اليسار الصهيونيّ عن مسؤوليته في «تقديم الحقيقة حول قضايا ذات أهمية إنسانيّة أمام جمهور قادر على فعل شيء في الأمر» ، حسب تعبير تشومسكي .

قضيتان تجاذبتا هذه الشريحة: القضية القوميّة أولاً ، ومحاولة إضفاء وجه إنسانيّ على ممارسات دولة إسرائيل ثانياً . إن طروحات جماعة «جيش الثقافة لإسرائيل» تماهت مع المؤسسة العسكريّة ،

واحترفت التزوير «لتبرير نهج العدوان والتوسع الاستيطاني». يتحدث الشاعر الإسرائيلي لاؤور عن اثنين من أبرز الكتاب في إسرائيل، وهما من مدعي اليسارية: إن الكاتبين «عاموس عوز وأ.ب. يهوشوع يدعيان اليسارية ويدعي كل منهما أنه لوحق وأسرته بسبب دفاعه عن حق الفلسطينيين... . . . . .» مقال أديب منعزل في النقب (نشرها عاموس عوز في الغارديان البريطانية) كاذبة وسطحية، لا تتضمن كلمة حول المياه والمستوطنات والعراقل الأكيدة والمحاولة الإسرائيلية في فرض تسوية شاملة دون التنازل عن المستوطنات في أهم مناطق الضفة (بيت لحم ورام الله)، ولا يشير إلى القدس التي لا تدخل ضمن إحصاءات النسب التي «يعطيها باراك للفلسطينيين» من ضقتهم؛ إنها القدس التي تكبر باضطراد وتصل تقريباً حتى البحر الميت. (. . .) مباشرة بعد انهيار المحادثات حرص عوز على نشر مقال في نيويورك تايمز متلون وشري وحتى عنصري. كان ذلك هو الإعداد للحرب. يجدر التنبه للفوارق الأسلوبية بين المقال وذلك الذي كتبه قبل ذلك بثلاثة أيام في الغارديان 2000/7/25، مهم أن نتبه كم كان البعد الدعائي محسباً: أجلس أمام التلفزيون في الصلاة وأرى ياسر عرفات يحظى باستقبال الأبطال في غزة، وكل ذلك لأنه قال لا للسلام مع إسرائيل. وفي نفس المقال يقول للفلسطينيين الحق بفلسطينهم مستقلة، لكن إذا كانوا راغبين في الحصول على إسرائيل أيضاً (بعودة اللاجئين إلى ديارهم) عليهم أن يعرفوا أنهم سيجدونني مستعداً للدفاع عن بلادي: إنني واثق أنها الفرصة الأخيرة. على الفلسطينيين أن يختاروا إذا ما كانوا يريدون صلاح الدين الجديد (عرفات) أو العمل بالفعل من أجل السلام.»

يمضي الشاعر لاؤور إلى القول، «عاموس عوز لا يهتم بالتفاصيل، ويرتكز على المفهوم ضمناً. إنه يبني فزاعة (انهارت القمة بسبب المطالبة بحق العودة). إنه يحول الفزاعة إلى إبادة دولة إسرائيل،». بعد هذا تأتي عريضة الأدباء (17 نوفمبر)، بعد سقوط القتلى تناقض ما قيل وتطالب بالرحيل عن الأراضي المحتلة، ليس بسبب جحيم حياة الفلسطينيين بل لأن الاحتلال يفسد حياتنا [العودة إلى الصحراء].

وطبعي بثقافة عنصرية تركز إلى تاريخ مختلف أن يقتنع الجنرال، وهو يعدّ لانتخابات 1999 بصويبة نصيحة بن عامي، القادم من طنجة، وأستاذ التاريخ المختص بشؤون وشجون اليهود الشرقيين. محاججة بن عامي كانت بسيطة بقدر ما هي صاعقة: ليس في وسع الحزب الفوز بالانتخابات إذا ركز على قضية السلام، وعليه العودة من جديد إلى صيغته الأولى كحزب اشتراكي - ديمقراطي، معني تماماً بمسائل التربية والصحة والعمل... . . الدين! أكثر من ذلك، أوضح بن عامي، أن التغيي بالمبدأ العلماني سوف يفقد حزب العمل ما تبقى له من قواعد في صفوف اليهود المتدينين، ولن يكسبه المزيد من العلمانيين المنخرطين في أحزاب أكثر وضوحاً أو راديكالية حول الديانة اليهودية. (على سبيل المثال، دافع الرجل عن فكرة الامتناع عن إشعال نار في مطبخ العائلة يوم السبت، ولكنه دافع عن حق أفراد العائلة في الذهاب إلى ملعب كرة قدم).

ولدى النجاح في الانتخابات رئيساً لحكومة إسرائيل، العام 1999، خطب في جمهوره ملوحاً بشروطه، تلك الشروط «الاستراتيجية» الكبرى، وهو يقصد القول لا وجود لطرف آخر في فلسطين التاريخية: القدس ستبقى موحدة وتحت السيادة الإسرائيلية إلى الأبد، لا عودة البتة إلى حدود 1967، لا جيش غربياً غرب نهر الأردن، وغالبية المستوطنين في يهوذا والسامرة سوف يواصلون الحياة في مستوطنات تحت السيادة الإسرائيلية. فماذا تبقى من فتات يلقى؟

جرت انعطافة باتجاه أوسلو في محاولة لبدء فصل جديد في العلاقات الفلسطينية - اليهودية، لكن سلطات الاحتلال لم تحدث أدنى تخفيف في إجراءاتها القمعية، بل سرعت بصورة نوعية. أقرّ الكنيسيت قانوناً يمنح الجيش والمستوطنين صلاحية استخدام السلاح الناري «في حال تعرض الفرد الإسرائيلي - للخطر». وسقط مئات الضحايا العرب لهذا القانون الفاشي ولم يجرم الفاعلون. وتساعدت أعمال نهب الأرض وتوسيع المستوطنات وتضاعفت عدة مرات أعداد المستوطنين في أراضي المزارعين العرب. كما شدد الحصار حول مدينة القدس العربية لفصلها عن الضفة وهوّدت عدة مواقع وفي الضواحي السكنية. وشرع في تشييد الجدار العنصري. لم تبدل حكومات إسرائيل المتعاقبة منذ توقيع اتفاق أوسلو أية محاولة لترطيب العلاقات مع الجماهير الفلسطينية؛ ولم تبد تصرفاً، ولو تلميحاً، يدل على رغبة في إقامة علاقات احترام وتكافؤ مع سكان فلسطين التاريخية. ظلّت النبرة الطاغية تعزز توجه العزل تمهيداً للتهجير. لم تتوقف ممارسات التصنيق على السكان الفلسطينيين وإشعارهم أنهم عنصر غير مرغوب فيه، الحل الوحيد المتبقي هو طردهم من «فلسطين الغربية» حسب قول بيغن. ركزت العناصر الصهيونية على التمسك بـ «إرث التقاليد اليهودية المشترك». عبّر ماكس نورداو صراحة عن ضرورة أن «تبقى أنماط السلوك وكلّ العادات اليهودية تهدف دون وعي إلى شيء واحد، الحفاظ على اليهودية، وذلك بعدم الاختلاط بالأغيار حتى نحافظ على المجتمع اليهودي، وليستمر في تكبير الفرد اليهودي بأنه سيفقد ويهلك إن هو تخلى عن شخصيته المتفردة» [د. عبد الوهاب محمد المسيري: 24 الأيديولوجية الصهيونية / دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، الجزء الأول، عالم المعرفة 60، الكويت، يناير 1978]

إن نظام الأبارتهايد المفروض منذ أن وطئت أقدام المستوطنين الأرض الفلسطينية، وشهر به الصهيونيّ أحد هعام، العام 1891، قد تجاوز نهر الرويكون، رغم توارد الدلائل على بطلان الخرافات المقنعة بلبوس توراتية.

العنصرية ضد العرب تعزز مواقف المتطرفين في إسرائيل، تماماً كما أن المحرقة استغلت لتأجيج الخوف من «الآخرين». اليهود في إسرائيل ظلوا يتلقون الدعاية من زعمائهم أن العرب (فالزعماء لم يأتوا مطلقاً على ذكر الفلسطينيين) هم أعداؤنا الأبديون، والسلام معهم مستحيل، ليس بسببنا، بل بسببهم. وهذا لن يفضي إلى حلّ الدولتين؛ لن يقبلوا تسليم بطن دولتهم إلى الفلسطينيين. في كتابه «الجدار الحديدي» اعتبر فلاديمير جابوتينسكي أن الجدار

الحديديّ فاصل أزلّي بين تاريخ العرب وتاريخ اليهود . ودأب شامير رئيس وزراء إسرائيل الأسبق ، على القول « العرب هم اليهود والعرب هم يهود البحر هو البحر ، والهوة الفاصلة بينهما يستحيل جسرها»

عام 1977 انتقل الحكم من خلال انتخابات ديمقراطية من حزب العمل إلى حزب حيروت ، وتسلم ميناخيم بيغن رئاسة الوزارة . تواصل الاستيطان والنظرة العنصرية تجاه الفلسطينيين تحرف المجتمع الإسرائيلي نحو التطرف اليميني . أسند ميناخيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل إلى أرييل شارون مسؤولة اللجنة الوزارية حول الاستيطان وكلفه بتحويل «يهودا والسامرة» إلى مناطق يهودية . كلفه تنفيذ المهمة بحيث تسدّ الطريق بوجه إمكانية إقامة دولة فلسطينية ، يعني تحويلها إلى بانتوستان . يقول جيف هالبر ، رئيس اللجنة الإسرائيلية ضد هدم بيوت الفلسطينيين ، في مقابلة نشرتها كاونتر بانث (23 آذار 2011) «إنها نفس المشكلة التي خلقت في جنوب إفريقيا . كيف تخلق ديمقراطية للبيض وسط أغلبية سوداء؟ وكيف تخلق ديمقراطية لليهود وسط أغلبية للفلسطينيين؟ لنأخذ مناطق باء وجيم ونشيد جدار الأمن ونفرض بالنتيجة بانتوستان فلسطيني» . وقد أنجز المشروع وسط إبهام العرب بأنهم يخوضون صراعا مسلحا لإنهاء الاحتلال . ان سياسة إسرائيل موجهة بقصد إنهالك الفلسطينيين ودفعهم لليأس ، حسب تعبير جابوتينسكي ، حملهم على اليأس من الحصول على دولة لهم - بحيث ضمن السياق الحالي - يقبلون بكيان بانتوستان . ونعود إلى جيف هالبر في مقابلته ، «أن تقديم الآخر على أنه المشكلة والاستخفاف بقيمة الحياة جزء من خطاب كولنيلّي عصري ، وهو نفس الخطاب الذي نزع صفة الإنسان عن السود في جنوب إفريقيا .»

### أعمدة سرايية

انقضت حقبة روّجت خلاها الرواية الصهيونية وتفاصيلها الملققة ، حتى تكشفت للبحث النزبه والعلم الموضوعي اختلالاتها وارتباكاتها . لم يمسك البحث الأثري بأي دليل مادي متعين يؤكد أيا من فرضياته اللاهوتية التي أسقطها على المسار المعاصر للدولة التي ستعيد إنتاج الدولة القديمة؛ بل على العكس من ذلك قدّمت نتائج الحفريات ما يدحض المتخيل التوراتي؛ فالحفريات حول أريحا أبطلت مفعول خرافة حرق المدينة وإبادة سكانها؛ والحفريات في عاي (دير دبان بالصفحة) لم تقدّم دليلا على ما ورد في التوراة . ورغم ثبوت فساد التخيلات التوراتية ظلت فلسطين وطن آباء إسرائيل وشعرائها وأنبياؤها ، وفلسطين هي ورشة العمل التي أنتج فيها اليهود ثلاث وسائل للثقافة: التوراة العبرية والعهد الجديد والناموس الثاني . والدين في عرف أصولي كل الديانات تصريح أو إجازة لعدم الالتزام بالقانون الإنساني الدولي ومبادئ حقوق الإنسان .

انطلقت عملية التآرحة أو الهستريوغرافيا حسب تعبير ساند ، من رؤية الحاضر وهي تستوحي أهدافه السياسية والاجتماعية . فهي عملية سياسية بامتياز . «تخيّل الماضي تم إسقاطه لإضفاء الشرعية عليه ولتبرير الحاضر . ومنطقها الداخلي تشييد ماض خيالي احتكر خطاب الدراسات

التوراتية، وهيمن على التاريخ الفلسطيني بل وأنكر وجوده في الأساس. لم يكتب تاريخ شعوب المنطقة بأغلبيتها الساحقة حتى الآن لأنه لم ينسجم مع مصالح واهتمامات البحث التاريخي في الغرب [وايتلام: 49].

بلغت الإيديولوجيا الصهيونية ذروتها في الانتصار المدوي في حرب حزيران. فسّر الانتصار بأنه البرهان على صحة مضمون التناخ واعتبرته الأصولية المسيحية إشارة اقتراب موعد عودة المسيح. اكتسبت الأصولية المسيحية داخل الولايات المتحدة ودعوتها التحالف الاستراتيجي بين إسرائيل والولايات المتحدة مزيداً من الزخم. في عقد السبعينات حصل مدد للمسيحية الصهيونية صعد عليه ريغان إلى الرئاسة الأميركية. كان كارتر يتبع الكنيسة الأنغليكانية؛ لكنه دخل في صراع مع خطط التوسع الاستيطاني لحكومة بيغن التي تسلمت الحكم، العام 1977.

في العام 1964 أصدر عالم الآثار البروفيسور أهروني أطلس كارتا لحقبة التناخ. رسم بدقة متناهية تحرّكات الشخصيات المركزية في التناخ: ترحال إبراهيم وترحال يعقوب والخروج من مصر، تسلل الجواسيس إلى أرض كنعان، تقاذف «تابوت العهد»، تحرّكات جيش داوود، طرق تجارة مملكة سليمان، مع المكتشفات الأثرية غير التناخية لترسم توأصلاً كرونولوجياً (ترتيب زمني) مددهشا. ولعله ليس غريباً أن يكون أهروني من أوائل الموقعين على أرض إسرائيل الكبرى، بعد حرب حزيران [ساند: 155]. الفرحة الغامرة لدى أهروني وزملائه بدأت تذوي مع تقدّم البحث، ففي مناطق الجبل المركزي، جبل منشييه وجبل أفرام، وفي محيط القدس وجبال يهودا اكتشفت معطيات أكدت بعض المخاوف والظنون [ساند: 156].

بعد ذلك جاءت علوم الآثار وبحث التناخ عقب حرب العام 1967 لتبدأ في التشكيك في حقيقة وجود هذه المملكة العظيمة التي انبثقت حسب التناخ بسرعة مع نهاية حقبة القضاة. الحفريات الأثرية التي جرت في القدس في سبعينات القرن العشرين، أي بعد قيام حكومة إسرائيل بتوحيدها «إلى الأبد»، كانت مربكة للخيال الماضي الفخور. لم يتمّ العثور في سائر المواقع المدسّنة حول الأقصى على بقايا أو آثار تدلّ على وجود مملكة مهمّة في القرن العاشر قبل الميلاد، وهو العصر المقدّر لحكم داوود وسليمان. لم يكتشف أيّ شاهد على بناء عظيم؛ ولم يكن هناك أسوار ولا قصور فخمة [ساند: 161].

توصّلت حفريات في أريحا خلال الفترة 1952-1958 ثم 1960-1961 إلى خلاصة جريئة، لقيت التحدي والمعارضة في البداية، نقضت الفرضيات القائمة على المعطيات التوراتية، وأثبتت بموضوعيتها خلافاً في النصّ التوراتي؛ إذ وجدت أن سور أريحا يعود إلى العصر البرونزي القديم، وهو سابق لحملة يوشع في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حين لم يكن يحيط بأريحا أي أسوار. أثبت علم الآثار الموضوعي الملتزم بمنهجية العلم أن الخريطة التوراتية لفلسطين، تضاريس وتاريخاً، هي مجرد صناعة وهمية صبغت بصبغة لاهوتية، خدمة لأغراض سياسية،

تجسدت في استعمار فلسطين ، ولا علاقة لها بعلم او حقيقة وجودية . وتوصل ليتش 1988 إلى أن التوراة «نصّ مقدس لا يعكس بالضرورة الحقائق التاريخية؛ التوراة عالم قصص خيالية تثير الشكوك حول تصورات تقليدية لحكم داود وسليمان». انطوت الرؤية على أهمية فائقة . «لن يكون بمقدورنا فهم وتحقيق وبحث تاريخ فلسطين في العصر الحديدي ، إلا عندما يتم الاعتراف بأن امبراطورية داود وهم لا أساس له من الصحة . [وايتلام: 271]

وطعن كاتب صهيوني في ادعاء إسرائيل احتكار وراثة الإسرائيليين القدامى . إنه آرثر كوستلر ، مؤلف كتاب «القبيلة الثالثة عشرة» ، وفيه يعرض أصول اليهود الأشكيناز من قبيلة الخزر التي لا تمت بصلة لليهود «المنفيين» من إسرائيل القديمة . ظهر الكتاب في عقد السبعينات من القرن الماضي ، بينما كانت إسرائيل تشرع في تنفيذ خطة طموحة للاستيطان الموسع في الأراضي الفلسطينية المحتلة . قبل كوستلر نشر دوغلاس دونلوب ، وهو باحث بريطاني ، بحثا معمقا في العام 1954 ، عن دولة الخزر ، دون أن يذكر شيئا عن مصيرها وكيف انهارت . كان كوستلر صهيونيا وترجمت كتبه إلى العبرية . ومن بين أسباب كتابته عن الخزر كما قال «رغبة جريئة في هزيمة هتلر وإرثه في معركة إيديولوجية مجلجلة» [ساند: 305] . وقال في الكتاب: «الأغلبية الكبرى من اليهود في العالم كله هم من أصل أوروبي شرقي ، ولعلمهم بالدرجة الأولى من أصل خزري . وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن أجدادهم لم يجئوا من الأردن ، بل من نهر الفولغا . أجل لم يجئوا من أرض كنعان بل من القوقاز التي اعتقد فيما مضى أنها مهد الجنس الآري . [آرثر كوستلر ، القبيلة الثالثة عشرة ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1991 ، 24]

لم يدرك كوستلر إلى أي مدى كانت مكافحة العنصرية واللاسامية ستلحق ضررا فادحا بالمتخيل المركزي الصهيوني ، فإسرائيل في سبعينات القرن الماضي كانت في أوج عملية استيطان ، ولولا وجود التناخ في يدها ، و«نفي الشعب اليهودي» في ذاكرتها لما وجدت أي مسوغ لعملية ضم القدس العربية والتمدد الاستيطاني بالضفة وغزة والجولان وحتى في سيناء» [ساند: 306] . اعتبر مؤلف كوستلر «معيبا ومخزيا ولا ساميا» في نظر الصهيونية . كان كوستلر شيوعيا في البداية ، ثم انقلب «احتجاجا على الستالينية» وانتسب للحركة الصهيونية قبل أن يصدر كتابه . «لم يقدر إلى أي حد سيكون الصهيونيون بعد حرب 1967 مشابهيين للستالينيين في عنف ردّة فعلهم؛ إذ اعتبر من قبل الجانبين خائنا لا وازع له» [ساند: 307] .

بدأت المحاولة الجادة لمعالجة بعض الصعوبات المنهجية التي تواجه البحث التاريخي حول تاريخ إسرائيل القديم بمنطلقات ميلر وهيز Miller and Hayes 1986 إلى آفاق أبعد . كان عملهما هذا نقطة تحوّل رئيسية في كتابة تاريخ إسرائيل من منظور توراتي ، فهما يعترفان بالمشاكل المتعلقة بالنصوص التوراتية والمرتبطة بمرحلة ما قبل الملكية ، حتى أنهما باتا غير مستعدين للخوض في هذه البناءات التاريخية لهذه الفترات [وايتلام: 64] .

برز التحديّ الأكبر للرواية المتعلقة بهجرة اليهود من مصر ، والمبنية على كون الدراسات التوراتية هي المرجع المفضّل والوحيد لدراسة هذا التاريخ الإسرائيليّ في كتابات ميلر وهيز Miller and Hayes ، العالمين الأثريين اللذين ركزا على أن التوراة بشكلها الحاليّ تساعد في أفضل الحالات على فهم فترة الهيكل الثاني (538-518 ق. م)؛ وهما يسلّمان بأن الدلائل الأثرية تدلّ على أن إسرائيل القديمة كانت تنتمي إلى فلسطين القديمة . أسهم موقفهما في إيجاد مناخ من الإرباك في هذا الميدان الأكاديميّ ، ما أدى إلى المطالبة بإدخال تغيير أساسي على النموذج المتبع في الدراسات التوراتية؛ ذلك أن المنقّبين أمسكوا بالتوراة بيد والمعزقة بيد ، ولم يخرجوا عن خارطة التوراة الوهميّة أو المتخيّلة .

تم التحول الجوهريّ عن التنقيب في مواقع أحادية؛ كما أبدي اهتمام أكبر بأعمال المسح الميدانيّة؛ ومن ثم شرعت الأبحاث الأثرية تقدم في الآونة الأخيرة معلومات عن الاستيطان في فلسطين في العهد البرونزيّ الأخير تساعد في دراسة نماذج وإيقاعات الحياة الفلسطينيّة على مدى العصور ، فالحضارات تنمو وتزدهر ثم تدبّل؛ ونتائج الاكتشافات المتراكمة سدّدت طعنة قاضية لعلم الآثار التوراتي . [وايتلام: 276] . والأحداث المثيرة في المنطقة (بداية العصر الحديدي المزامن لهجرة الإسرائيليين (حسب قول التوراة) ليست مرتبطة بالهجرة الإسرائيليّة ، ولا يوجد في السجل الآثاري وحده ما يدل على وجود كينونة اسمها إسرائيل . بات من غير المقبول علمياً استعمال تعبير ”إسرائيليّ“ في السياق الأركيولوجي للعصر الحديديّ المبكر لفلسطين ، فالمعلومات الأثرية تمدّنا بمعلومات قيّمة حول الديمغرافيا والمستوطنات والاقتصاد والتنظيم الاجتماعيّ للمجتمع الفلسطينيّ . إن تمثيل فترة العصر البرونزيّ المتأخّر على أنّها فترة انهيار حادّ للمدنيّة وللثقافة لتحلّ معها الثقافة الراديكالية الجديدة (تسلسل تاريخيّ يناظر تسلسل أحداث 1948) يبدو أنه يؤكّد ويعكس الأوضاع التي سادت خلال العقود المبكرة من القرن العشرين ، [وايتلام: 314] ، أي فترة هيمنة قبضة المدرسة الأميركيّة للتنقيب الأثريّ ، وإسقاط مؤثراتها على التاريخ القديم . هذه الملاحظات ذات الأهمية العامّة يتفق عليها عدد متزايد من الباحثين [وايتلام: 292] . ويورد المؤرّخ أن فلسطين خضعت آنذاك لحكم مصر ، ويتساءل: كيف يهرب الإسرائيليّون من مصر إلى أرض تحكّمها مصر؟ ثم ينقل [وايتلام: 293] عن عالم الآثار ليمحي [1985:391] قوله: ”ينبغي أن نتخلّص لأسباب تاريخيّة من فكرة الاستيطان التي وردت في العهد القديم؛ ففي إعادة بناء مسار الأحداث في نهاية الألفية الثانية ، ينبغي على المرء على أقلّ تقدير تجاهل تماما التراث التوراتي“

كذلك فإن كتاب ديفيز In Search Of Ancient Israel (البحث عن إسرائيل القديمة) أثار جدلاً واسعاً حول ما إذا كان التراث التوراتيّ يمثل رؤية للماضي مطابقة للواقع . من الواضح أن رؤيتنا للماضي هي شيء سياسيّ بالدرجة الأولى؛ كما أن لها تداعيات مهمة في العصر الحديث ، لأن هذه التمثيلات الذهنية تؤكّد الهوية الشخصية أو الاجتماعية أو تنكرها [وايتلام:



[36]. لا يوجد تفريق واضح بين سفر التكوين وما يليه حتى نهاية الكتاب المقدس أو حتى نهاية جزء (الملوك2)؛ وهكذا يستنتج هيوز Hughes (1990/96) في دراسته الحديثة حول التسلسل الزمني في سفري القضاة وصموئيل أنه خيال محض اخترعه اليهود في المنفى لكي يمدّونا بمشروع تاريخ عمره ألف عام يغطي تاريخ وجود إسرائيل في أرض كنعان. وهكذا لا يمكن الاعتماد على هذه الرواية لتزويدنا بتسلسل تاريخ إسرائيل [وايتلام: 58].

يَسِّم مؤرِّخ آخر، تونكين، أن التاريخ الشفوي لا يقل أهمية عن التاريخ المكتوب في أنه صمم بإتقان، وله شاعريته الخاصة التي ينبغي دراستها وفهمها بعناية. وهذا يرجعنا إلى دراسة الباحث العربي فاضل الربيعي، "فلسطين المتخيَّلة".

### ذبول التآرخة التوراتية

ظهر في علم الآثار الفرنسي توماس تومسون Thomas Thomson الذي نشر العام 1992 كتابه *Early History of The Israelite People From The Written & Archaeological Sources*، وفيه كشف تواطؤ علماء الآثار التوراتيين. ظهر توماس تومسون في ميدان الآثار ليفسد الرِّفَّة، وعارض التوراتيين التقليديين. قال في كتابه "التاريخ المبكر لشعب إسرائيل من المصادر الآركيولوجية المدونة": "إن مجموع التاريخ الغربي لإسرائيل والإسرائيليين يستند إلى قصص من العهد القديم تستند إلى الخيال". "باحثون غير إسرائيليين، وعلى رأسهم الفرنسي الجريء توماس تومسون، أدر كوا في مرحلة مبكرة جدا انعدام المنطق في هذه التآرخة المربكة. والكثير من الأسماء في سفر التكوين ظهرت في القرنين السادس والخامس. ومن المؤكد أن كتبة هذا السفر عرفوا بابل وآشور اللتين أقيمتا بعد "العليا" المقدرة في القرن العشرين قبل الميلاد بفترة طويلة [ساند: 159]. انكشف زيف الميثسة (الخرافة) التناخية، تلك القاعدة التي قام عليها هيكل الرواية الصهيونية؛ فأعمدتها سرايية، ضللت الباحثين ردحاً من الزمن قبل أن يتأكدوا من طبيعتها المراوغة. فصل العالم المتميز من منصبه كأستاذ علم الآثار في جامعة مار كويث في ميلووكي، العام 1992. قدّره عالياً نائب رئيس الجامعة "من أبرز علماء الآثار وفي طليعة المختصين بالتاريخ القديم لمنطقة الشرق الأوسط"، مبرراً قرار الطرد بأن "الجامعة تحصل على المساعدات المالية من الكنيسة الكاثوليكية". المهم في نظر الجامعة ليس أن "تأتي النصوص ذات قيمة تاريخية بل أن تتفق مع وجهة نظر نوايس العقيدة". واعترف جوناثان تاب Jonathan Tab، وهو من أعظم علماء تاريخ المنطقة العربية القديم في المتحف البريطاني بأن "طومسون دقيق جداً في بحثه العلمي الكبير، وشجاع في التعبير عما كان كثير منّا يفكر فيه حدساً منذ زمن طويل، وكانوا قد فضّلوا كتمانهم".

لكنّ هيكل التلفيق لا ينهار أمام زفرة عالم، ولو كان رفيع المقام. كان على قدر من الشجاعة والصدق العلمي، وهو المعترف له بالفضل كعالم مختصّ وأبرز علماء الآثار المختصين بالتاريخ

القديم للشرق الأوسط . إن مركزية «المبثة التاريخية» التناخية كامنة في الهندسة الأيديولوجية الصهيونية ، وفي اللاهوت المتمسك بصنموية النصوص ، وكذلك في اعتبارات الاستراتيجية الإمبريالية ، وفي التعبئة الأيديولوجية المكثفة لأجيال من المسيحيين المخدوعين بسياسات الإمبريالية والمتحمسين لحروبها العدوانية .

وبرز أيضا كيث وايتلام؛ أستاذاً للدراسات الدينية في جامعة «ستيرلينغ» في سكوتلاندا . أصدر كتابه «اختلاق إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ الفلسطيني» سنة 1996 . وفيه دعا إلى الاهتمام بالتاريخ الفلسطيني القديم . في عرضه للتاريخ القديم يشير وايتلام إلى هجرة اليهود إلى فلسطين في أوائل العصر الحديدي . استند إلى تحديدات ديفيز لمعالم التاريخ التي توضح كيف تصدع الإجماع من داخل الدراسات التوراتية في السنوات الأخيرة . واستخلص بعض النتائج العميقة التي تؤثر في بعض الدراسات التوراتية المستخلصة من الدراسات الأدبية الحديثة للتوراة العبرية ، والعمل التاريخي التصحيحي في أوائل وأواخر عقد الثمانينات من القرن العشرين .

إن إحدى النتائج الأساسية للبحث التاريخي كانت إيدانه بموت «التاريخ التوراتي» الذي يتسم استبداله بشكل تدريجي بالاعتراف بالتاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته . وهو فهم لتاريخ المنطقة يزداد ابتعاداً وانفصالاً عن الدراسات التوراتية ، حيث التقت السياسة البريطانية التهودية في فلسطين مع التوجهات الأمريكية لدراسة آثار فلسطين بل وشكلت الأساس القانوني والمادي لها .

صدر كتاب كيث وايتلام الجريء في فضح كل زيوف الآثاريين التلموديين . سطع نجمه في سماء علم الآثار؛ ونقلت صحيفة Times Literary Supplement تصريحاً للمفكر إدوارد سعيد في 21 نوفمبر 1996 حول أفضل كتاب قرأه ذلك العام فأجاب: "إنه كتاب كيث وايتلام ، عمل أكاديمي من الطراز الأول ، أسلوبه بالغ الدقة ، وكتابه يتمتع بجرأة كبيرة في نقده لعدد من الفرضيات حول التاريخ التوراتي ."

أخذ علم الآثار التناخي يشهد انحساراً متزايداً في مكانته المهيمنة . وظهر اتجاه نقدي أكثر انفتاحاً في الساحة الإسرائيلية العامة ، وهو ما دفع بعض الباحثين عن الآثار أيضا إلى إسماع صوتهم الأجهش علنا . فلغاية ذلك الوقت كانت حناجرهم مليئة بالتراب القومي المقدس» [ساند: 157] .

دلّت الآثار أن الفلسطينيين لم يظهروا في المنطقة قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وابتدأ ذكر الآراميين في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وقد تردّد ذكرهم كثيراً في التناخ ، ولم يصبح تواجدهم ملموساً سوى في القرن التاسع قبل الميلاد . الجمال غدت مشكلة كذلك ، إذ لم تروّض وتستخدم للحمل سوى في القرن الثامن [ساند: 157] .

أخيراً تهبّ المناخ الثقافيّ للمؤرخين الجدد في إسرائيل ، وهذا أفضى بدوره إلى البحث في منع الرواية الصهيونيّة بصدد صاحب الحقّ في فلسطين . وبرّز المؤرّخ شلومو ساند باحثاً موضوعياً تتبع منابع الفكر الصهيونيّ بقدر ما طالت إمكاناته البحثيّة ، فمن غير اللائق في نظر الباحث العلميّ عدم الاستناد إلى الوقائع المثبتة؛ ابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد .

قد يجوز التساؤل بصدد إغفال المؤرّخ ساند علاقة الصهيونيّة بمرحلة تشكّل الإمبرياليّة وغزواتها في المنطقه . إن التغييب التام لمرحلة الإمبرياليّة في التاريخ الحديث وإغفال الرابطة العضويّة بين الصهيونيّة والإمبرياليّة أمران ملحوظان في بحث شلومو ساند .

الخلاصة الجوهرية لبحث الدكتور ساند أنه عرض تاريخيّ مسهب يثبت أن اليهود الذين يعيشون اليوم في إسرائيل وفي أماكن أخرى من العالم ليسوا على الإطلاق أحفاد «الشعب العتيق» الذي عاش في «مملكة يهوذا» إبان فترة «الهيكل الثاني» . إن «ميثة (خرافة) الاستيطان الدمويّة ، والتي وصفت بحيويّة صارخة في سفر يوشع كواحدة من عمليّات الإبادة الجماعيّة الأولى في التاريخ ، تبيّن أن لا أساس لها من الصحة . جرى الرد على تلفيقات أولبرايت وكلّ من يستوحي سفر يوشع لتبرير المذابح البشريّة ، فإن احتلال أرض كنعان المعروف كان الميثة التالية التي هزمت تماماً بواسطة معارك علم الآثار الحديث [ساند:160] .

ويميضي بعيداً آلاف السنين كي يثبت أن الشعب اليهوديّ لم يتشكّل عبر مراحل التاريخ إلا ضمن تكوينات قوميّة معزولة ومؤقّته . أما العرق ذو الأصل المشترك ، فقد دحضته الأبحاث التاريخيّة العانية والمنزّهة عن الأهداف السياسيّة . معتقو الديانة إنّما هم خليط كبير ومتنوع لمجموعات بشريّة بعضها أنشأ ممالك أوسع بكثير من مملكتي يهوذا وإسرائيل . وبذلت جهود لطمس معالم هذه التجمعات وتغييب حضاراتها ، وذلك ضمن جهود لتزوير التاريخ وإضفاء مصداقيّة على المضمون الأيديولوجيّ للحركة الصهيونيّة . كما تصدّى لخرافة نفي اليهود بالإكراه من فلسطين .

يقول شلومو ساند: وربما لم أكتشف أيّ جديد في هذا الكتاب ، ومع ذلك فقد أزلت الغبار عن مواد جرى تهميشها ونظمت المعلومات بشكل نقدي . وقد اتهمني المؤرّخون الصهاينة بأنني منكر للشعب اليهوديّ . ورغم أن نيتهم غير الشريفة من استعمال هذا المصطلح هي التذكير بالجرم القبيح المسمى «إنكار المحرقة» ، فلا بدّ لي من الاعتراف بأنهم كانوا على حق . فعلى الرغم من أن مصطلح «شعب» فضفاض ، وغير واضح جداً ، إلا إنني لا أعتقد بأنه كان في أي زمن مضى شعب يهوديّ واحد مثلما لم يكن هناك شعب مسلم واحد . لقد كان هناك ولا يزال يهود ومسلمون في التاريخ ، وتاريخهم غنيّ ، متنوع ومثير . واليهوديّة ، شأنها شأن المسيحيّة والإسلام ، كانت على الدوام حضارة دينيّة مهمة وليست ثقافة - شعبية قوميّة .

وصف المفكر العالمي المعروف إريك هوبسباوم مؤلف ساند بأنه بمثابة «تمرين ضروري في حالة إسرائيل من أجل تفكيك الخرافة القومية التاريخية والدعوة إلى إسرائيل التي يتشارك فيها على قدم المساواة سكانها كافة». أما المؤرخ توني جادت فأشار إلى أن ساند «أعاد بناء تاريخ اليهود وقام بإدماجه في القصة العامة للبشرية، بدلا من أسطورة الأمة الفريدة والمصير الخصوصي - الشعب المطرود، المعزول، التائه، والعائد أخيراً إلى وطنه الحق».

### الرديف «العلماني»

«تبنى هنريخ غريتش، أبو القومية اليهودية، ثم موشيه هيس، الاتجاهات العلمية في عصرهما؛ ولا سيما الاتجاهات الأنثروبولوجية المادية، الممزوجة بهوية ذاتية مبتذلة. فقد ولد عصر الإمبريالية نظرات عنصرية أكثر تطوراً وأكثر خداعاً. والعنصرية هي تبريره الرئيس للكونيالية «تحضر الأجناس الملونة». ومن العنصرية الإمبريالية غرف الاستشراق تفسيراته وتحليلاته. «العلم العنصري الذي أخذ يتطور في مرحلة الإمبريالية في سائر مختبرات المعرفة في أوروبا، تغلغل في حيزات القومية المركزية الإثنية، وكذلك داخل مراحل الساحات العامة، وصار جزءاً من النسيج الإيديولوجي لحرركات سياسية جديدة، ومنها الحركة الصهيونية (. .) أحرز العلم البيولوجي نجاحاً ملموساً في الحركة. وكان العامل الوراثي إلى حد كبير شرطاً ضرورياً لتسوية مطلب السيادة على فلسطين (. .) الوعد الإلهي لم يكن مقنعاً بالنسبة للعلمانيين؛ أدخل ننان بيرناوم (1864-1937) مفهوم العرق. واللغة في نظره لا تفسر نشوء القوميات؛ إنما البيولوجيا [ساند: 334، 333].

أسهم نورداو، وهو من كبار المثقفين الصهاينة، ونصير متحمس لهيرتزل، في «تعزيز المنحى البيولوجي»، وركز على تقوية العضلات من خلال العمل الزراعي [335]. وبعده «ركز مارتين بوبر، الذي عمل سنوات رئيساً لتحرير مجلة (دي فيلت) التابعة للحركة الصهيونية وبدأ حياته كداعية لنسب الدم (تسلسل بيولوجي عبر الأجيال) ثم انقلب إلى داعية للصهيونية الثقافية وللدولة اليهودية - العربية (من أنصار آينشتين) [336]. واستوت النظرة العنصرية للصهيونية على ركائزها البيولوجية في فكر زعيم جناح المراجعة المتطرف زيف جابوتنسكي (مؤسس حزب حيروت، راعي الحركتين الإرهابيتين، إتسل وإرغون وشكل فيما بعد العمود الفقري لتيار الليكود). كان متعطشاً للقوة والعنف. روج لفكرة وجود دم يهودي مخصوص يميزهم عن الآخرين [ساند: 337]. (اليهود هم اليهود والعرب هم العرب والبحر هو البحر). فالوراثية تستعصي على التغيير في نظر الفكر العنصري».

برزت في هذا الميدان البروفيسورة نوريت كيرش. أكملت رسالة الدكتوراة بجامعة تل أبيب وخلصت إلى الاستنتاج بأن «علم الوراثة، كما علم الآثار، مجبر لخدمة الفكر الصهيوني، حيث سعت الصهيونية لإيجاد تجانس بيولوجي بين يهود العالم، منسجمين مع الميثا الصهيونية [ساند: 350].

في العام 1978 صدر عن دار نشر أو كسفورد كتاب ألفه فريق من الباحثين برئاسة آرثر مورانت عنوانه 'الخصائص الوراثية لليهود'، وقد اتى هذا المثقف البريطاني لطائفة اعتقدت أن البريطانيين هم أحفاد الأسباط العشرة المفقودين؛ وعلى غرار علماء الآثار التوراتيين "لأعلمه الأنثروبولوجي- الوراثي مع الرواية التناخية" [ساند:351]. وبالنتيجة خرجت الفكرة الصهيونية حول الشعب اليهودي العرقي إلى حيز الوجود كعلم أحياء واضح وموثوق. ومثلما فرض في الجامعات علم تاريخ لليهود صار هناك علم يدعى «علم وراثة اليهود» [ساند:352].

وفي العام 1981، وقع الاختيار على إسرائيل لاستضافة المؤتمر الدولي السادس حول علم وراثة الإنسان، واختيرت لسكترتاريا المؤتمر البروفيسورة بات شيفع بونا تامين، التي كانت قد نشرت مقالا عنوانه «نظرة جديدة على علم الوراثة لدى اليهود» [ساند:353].

ولفترة قصيرة شاعت بعد اتفاق أو سلو حكاية «اكتشاف» يثبت أن الفلسطينيين واليهود لهم آباء مشتركون؛ ثم سحبت من التداول. وشاعت بعد ذلك هلوسات هيمنت على الأبحاث البيولوجية. ثم ظهرت رسالة دكتوراة كتبها دورون بيخار، ونشرتها مجلة «أمير كان جورنال أف هيومان جينيستيكس». أشرف على الرسالة البروفيسور كارول سكورتسكي، وهو متدين انتقل من جامعة تورنتو الكندية إلى جامعة التخنيون في حيفا. قبل الانتقال اكتشف ما أسماه «بصمة الكهنة» أقنعته بأصله السامي؛ وبناء على طلب رئيس مركز الكهنة في القدس الحاخام يعكوف كلايمان، أجرى أبحاثاً حول أصل جميع الذين يحملون الاسم كوهين. ومن مهام المركز إعداد كهنة يخدمون في الهيكل الثالث بعد بنائه على أنقاض الأقصى. والحكاية انتشرت في ظل الهلوسات العرقية المنتشرة في نهاية القرن الماضي، واكتسبت هالة غير متوقعة، وولدت جمهوراً عريضاً من المؤمنين والمؤيدين لليهود في إسرائيل والعالم. أعد بحث سكورتسكي بمشاركة علماء من بريطانيا وإسرائيل وإيطاليا، ونشرت استنتاجاته في المجلة البريطانية المرموقة (Nature)؛ وقد أثبت البحث بما لا يدع مجالاً للشك أن الكهنوتية اليهودية تأسست في الواقع على يد أب قديم مشترك عاش قبل 3300 سنة، وهو ما سارعت الصحافة الإسرائيلية إلى نشره لتعم فرحة وراثية عارمة" [356]. لم تهتم الصحافة ومنابر الميديا بنشر الاعتراضات العلمية على الكشف العلمي المزعم. «إن أحداً من الصحفيين الإسرائيليين لم يعبا بنشر معطيات واستنتاجات البروفيسور عوزي ريتا، من قسم علم الوراثة في الجامعة العبرية، والذي فحص بصورة مختلفة الجزيئات 'الكاهنية' لكروموزوم Y، ولم يجد فيها أي تفرّد أو تميّز» [357].

وقد يثبت أن ما أسمي 'الجين الكاهني' غير يهودي، نظراً لأن كهنة عديدين تزوجوا منذ القرن التاسع عشر من نساء غير يهوديات. من المفترض أن يحل 'العلم' اليهودي الخالص في عصر العقل المتنور مكان العقيدة اليهودية التي عفا عليها الزمن، والتي تحفل بالآراء المسبقة. ومن

المفترض أيضاً أنه بعد انكشاف سرايية الأعمدة التي نهض عليها ببناء هيكل الأبارتهدارد أن يعاد النظر في جميع الأفكار العنصرية وما استلهمها من إجراءات سياسية ، كي تتحقق العدالة في فلسطين . غير أن هذه الإمكانية تعترضها حواجز العسكر والعسكرتاريا .

على كل حال ، فهذه الاكتشافات القيمة التي قدّمتها نראה البحث العلمي تمدّ الجبهة الثقافية في الصراع مع الائتلاف الصهيوني - الامبريالي بثروة نفيسة تجتذب إلى الحقّ الفلسطينيّ المزيد والمزيد من الأنصار والمتضامنين على صعيد العالم كله .

## مرافعة الصوت المكتوم

إذا كان التاريخ هو الماضي ، عندئذ لن تكون له أهمّية؛ ولكن التاريخ هو الحاضر: أنت وأنا، نحن التاريخ ، إننا نحمل تاريخنا ، إننا نصنع تاريخنا - جيمس بولدوين

.....

### التخيّل التوراتيّ المتهتك

الآثار دليل عراقه ، وإثبات أصالة في بطن التاريخ؛ وقد نجح البحث التراثيّ المستوحي للتوراة بصورة مؤقتة في تزوير التاريخ الفلسطينيّ ، وإسناد الرواية الصهيونيّة بصدد امتلاك فلسطين . كان الفكر الاستشراقيّ هو المبادر إلى التلفيق والاختلاق .

حمل إدوارد سعيد على الطابع السكوني للدراسات الاستشراقيّة ، على نقب الرؤى النقدية للنصوص ، حيث يتمّ تأويل النصوص الأدبيّة ، على سبيل المثال ، مرّات ، وفي كل مرة تخرج الدراسة برؤية جديدة . «إن موضوعاً مثل النصّ الأدبيّ ، ورغم صفته الخامدة نسبيّاً ، يظل خاضعاً للافتراض الشائع حول اكتسابه لبعض هويته من برهته التاريخيّة التي تتبادل التفاعل مع حالات الانتباه والأحكام والبحث العلميّ والأداء التي تصدر عن القراء . ولكنني اكتشفت أن هذا الامتياز لم يمنح ، إلا نادراً ، للشرق والعرب والإسلام ، حيث لجأ التيار الرئيس في الفكر الأكاديميّ إلى اعتبار تلك الموضوعات محصورة في الموقع الثابت الذي جمّدهته نظرة الإدراك الغربيّ في إيسار الزمان ، مرة والى الأبد» . [إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق / ترجمة وتحرير صبحي حديدي ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، عمان 1997 ، 37-38] . وبذا جاء تحدي الاستشراق والحقبة الاستعماريّة التي كان جزءاً عضويّاً منها بمثابة تحدّد لحالة البكم المفروضة على الشرق كموضوع .

كانت الخيارات مفتوحة لتاريخ فلسطين الحديث بديلاً للكوارث والصراعات الدامية لو أن السعي وراء الحقيقة هو الذي استأثر بالرعاية والسند . ولكن أنّى يكون ذلك والتزييف والانتقائيّة هما وسائل مقارنة المشروع الاقتلاعي المستند إلى الفكر الاستشراقيّ المسخّر للتوسع الكولونيالي؟! من المتمرّدين على التأويل الاستشراقيّ مثقف يدعى إسرائيل بلكيند (1861-1929) ، كان من أوائل المستوطنين ، واختلف عن التيار العام إذ آمن دوماً بالرابطة بين السكان القدامى وبين الفلاحين

المحلّين في أيامه . وعشية موته لخص موقفه في كتيب خاص كرس موقفه في هذه القضية؛ ونجد في عمله هذا جميع الفرضيات الفصائحية التي شطبت لاحقاً من أجندة المؤرخين الصهيونية . نقل البروفيسور ساند عن المفكرة: "اعتاد كتابة التاريخ اليهودي القول إنه بعد خراب أورشليم على يد تيتوس تبعثر اليهود في كل بلاد الكون . ولكننا نقف هنا أيضاً أمام خطأ تاريخي يجب إزالته وإبانة الأمور على حقيقتها". يواصل ساند التعليق على أفكار بلكيند، "من وجهة نظر بلكيند أن تمرد بار كوخفا وحتى التمرد في الجليل في بداية القرن السابع الميلادي تدل على أن معظم الشعب ظل موجوداً لفترة طويلة أخرى على أرضه . الذين غادروا هم الطبقات العليا والحاخامات وعلماء التوراة، الذين فضلوا الدين على البلاد، لكن الفلاحين ظلوا مشدودين إلى أرضهم".

وشخصية بارزة كان لها نفوذها الأدبي، توخت الحذر والاعتبارات الإنسانية . كان فرويد عالم التحليل النفسي المشهور، قد تلقى، العام 1930، رسالة من حاييم كوفلر، عضو "مؤسسة إعادة توطين اليهود في فلسطين"، تطلب منه، بحكم مكانته العلمية الرفيعة كعالم سيكولوجي، التوقيع على النداء الذي وجهه إليه من أجل دعم قضية الصهيونية في فلسطين، ومساندة حق اليهود في إقامة شعائرهم بحاائط المبكى . ردّ فرويد في الرسالة التي أقيمت مغيبة "كان من الأجدى، فيما يبدو لي، بناء وطن يهودي على أرض غير مشحونة تاريخياً . لكنني أعرف أنّ فكرة عقلانية من هذا القبيل لا يمكن أن تستدرّ حماسة الجموع ولا معونة الأثرياء . وأقرّ أيضاً، وبكل أسف، أنّ تعصّب مواطنينا غير الواقعي يتحمّل نصيبه من المسؤولية في إثارة الارتباب لدى العرب . لا يمكن لي أن أبدي أيّ تعاطف ممكن مع تدبّر مؤول بطريقة خاطئة".

واستعرض إيهود بن عيزر تطوّر الأدب العبري في بحث عنوانه "المسألة العربية وشخصية العربيّ في الأدب العبري"، اختتمها بإيراد دراسة نقدية كتبها عفنون عام 1963 عن أدب برينر، بمناسبة الذكرى الأربعين لاغتياله . وبرينر من أبرز الأدباء اليهود . هاجر العام 1907، بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد وتعزّز الآمال العربية في تحقيق الأهداف القومية، التي اكتسبت طابع المعارضة الشديدة للاستيطان اليهودي . جاء في مقالة عفنون: "قال برينر، تاريخنا بائس قبل الصهيونية، وهو بائس الآن . هكذا يمكن تفهّم مقدار الأذى والإهانة اللتين تسبب بهما برينر لأولئك الذين اعتبروا أنفسهم شركاء في هذه العملية التاريخية . يقول برينر في أرض إسرائيل الصغيرة يعيش 600.700 ألف عربي هم بالرغم من تدني مستواهم أصحاب البلاد قولا وعملاً . الكراهية موجودة بيننا، ويجب أن تكون". لم يكن برينر عنصرياً متطرفاً، بل إنه أشبه بنبيّ عبري قديم، حذر شعبه والغرباء، جيرانه، بنفس الحدة والقسوة الذاتية . لم ير غير الغربة والعداء التي ميّزت الصراع القومي بين الشعبين، هذا الصراع الذي سيزداد حدة في المستقبل المنظور".

وسياسيّ إسرائيليّ، هو إبراهيم بورغ، مضى شوطاً طويلاً مع صهيونية هيرتسل، وشغل مناصب هامة في الكيان الإسرائيليّ، حيث انتخب رئيساً للكنيست ورئيساً للوكالة اليهودية، ليخرج من تجربته بخيبة أمل ينشد الخلاص من خلال مشروع فكري لتحقيق إسرائيل المشتهاة . بث امتعاضه



في كتاب يحمل عنوانا ذا دلالة "لنتحرّر من هتلر" أقتبس منه العبارتين من صفحة 226: "أرغب في الافتراض أن إسرائيل كان يمكنها ولا زال في وسعها، أن تكون شيئا آخر مختلفا؛ دولة تأخذ على عاتقها مسؤولة أن تشكل شارة 'قف' عالمية كبيرة منارة لقيم عالمية إنسانية، إسرائيل كدولة، كمجتمع و كحضارة، تطمح إلى تغيير منظومات الأخلاق العالمية."؛ "وبذلك تكون محاكمة أيخمان (بقضاة من مختلف شعوب العالم ومكان غير إسرائيلي) 'هدية' الشعب اليهودي إلى العالم بأسره. محاكمة انفتاح لا محاكمة سجن ذاتي وانغلاق. من الجائز أن السير في هذا المسار كان بإمكانه أن يمنع المجازر والكوارث البشرية الرهيبة والممارسات البشرية المتوحشة المنفلتة، وأن يمنع محارق أخرى ليست لنا".

أما العالم المشهور البروفيسور البرت آينشتين، فقد داعبته الأماني طويلا وخرج ييأس لا فكاك منه. استغلّت الصهيونية نفوره من اللاسامية. أما إشكالية العلاقة بين العالم الشهير والصهيونية السياسية فتجلّت في العام 1952، حين رفض عرضا من بن غوريون لتسلّم منصب رئيس الدولة الجديدة إثر وفاة حاييم وايزمن. لم يكشف على العلن سبب العرض وسبب الرفض: "سيتعين عليّ أن أقول للشعب الإسرائيلي أشياء لا يحبّ سماعها". في تلك الأوقات فقد البروفيسور آينشتين الكثير من توهّجه، وانفضّ عنه الجمهور الذي غذ السير وراء التعصّب القومي. ومن الجانب المقابل برّر بن غوريون طلبه "اضطرت لعرض المنصب عليه لأنه من المستحيل أن لا أفعّل، ولكن إذا قبل فسنتقع في ورطة". انقضت فترة وجيزة وتُرك آينشتين وحيدا أعزل يذوي في النسيان. "سأظلّ مقيما هنا (بالولايات المتحدة) بقية حياتي، عازلا نفسي كليّة عن الآخرين قدر استطاعتي. إن كلّ ما أحاول عمله في المجال الإنساني يتدهور بشكل ثابت إلى كوميديا سخيفة" [جيرومي: 283]. ضغوطات ضخمة وعزلة باردة كابدتها آينشتين؛ والصهيونية لا يعرف عنها أنها تهادن معارضين، خصوصا أولياء نعمتها والعربانيين. الصهيونية وكلّ قوى اليمين على سعة الكون ليست في وارد الحوار الديمقراطي، ولم تمارس غير العنف والإرهاب الفكري والمادي.

ألقي الضوء على الكوميديا البائسة لنهاية آينشتين عالم الاقتصاد البريطاني ميساروش: "خاض آينشتين نضالا لسنوات طويلة ضدّ عسكرة العلم، ومن أجل نزع السلاح النووي. وأصيب بخيبة أمل نتيجة إلغاء مؤتمر لبحث هذه القضية؛ واستمرّ في النضال حتى وفاته متحدّيا التهديدات والتشهير العلني. تمكّن خصومه من عزله" [ميساروش: 52]

وقفت الصهيونية تتفرّج، بينما السياسيون والكتاب والعلماء ممن تسبخ ذهنيّتهم العلميّة تحت وهج المال، يسدّدون الطعنات نيابة عن التجمّع الصناعي - العسكري. واليد التي توقع الشيكات لا تعصّبها الصحافة. وبالنظر "لافتقاد حركة جماهيرية تردّد أصداءه وتسانده، حركة جماهيرية قادرة على مواجهة قوى رأس المال المدمّرة والمتمترسة، فتجرّدها من سلاحها من خلال رؤيتها البديلة للعملية الحيوية لتنظيم شؤون الإنسانية". [ميساروش: نفس المصدر].

أفصح آينشتين عن عدائه الصهيوني للمتطرفة ممثلة في حزب حيروت منذ إنشائه . ونشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر في الرابع من كانون الأول / ديسمبر 1948 رسالة موقعه من ألبرت آينشتاين ، مع عدد من المفكرين والعلماء ، تحذّر بشدة من خطر الفاشية في إسرائيل ، ممثلة بحزب بيغن (حيروت) . جاء في الرسالة عن حزب الحرية ، وكان رئيسه ميناخيم بيغن يقوم بزيارة إلى الولايات المتحدة: ” . . . حتى وقت قريب كانوا يبشرون صراحة بمذهب الدولة الفاشية . إن الحزب الإرهابي يفصح في أفعاله طابعه الحقيقي ، ويمكننا أن نحكم من أفعاله الماضية بما يمكن ان نتوقعه ان يفعل في المستقبل .

”إن سلوكهم في قرية دير ياسين العربية كان مثلاً صادمًا . هذه القرية التي تقع خارج الطرق الرئيسية وتحيط بها أراضٍ يهودية لم تشترك في الحرب ، بل أنها ردت أيدي عربية أرادت أن تستخدم القرية قاعدة لها . وفي 9 نيسان هاجمت عصابات إرهابية هذه القرية المسالمة التي لم تكن هدفاً في القتال وقتلت معظم سكانها ، 240 رجلاً وامرأة وطفلاً ، واحتفظت بعدد قليل منهم على قيد الحياة لتستعرضهم كأسرى في شوارع القدس . لقد فزع معظم المجتمع اليهودي من هذا الفعل ، وبعثت الوكالة اليهودية ببرقية اعتذار الى الملك عبد الله ملك شرق الأردن . ولكن الإرهابيين ، الذين هم بعيدون عن الشعور بالعار من فعلهم ، كانوا فخورين بهذه المذبحة ، ونشروها على نطاق واسع ، ودعوا المراسلين الأجانب الموجودين في البلد ليشاهدوا الجثث المكومة والفوضى العامة في دير ياسين . إن حادث دير ياسين يمثل طابع وأفعال حزب الحرية . إنهم يبشرون داخل المجتمع اليهودي بخليط من القومية المتطرفة والتزمّت الديني والتفوق العنصري . وشأنهم شأن الأحزاب الفاشية الأخرى ، اعتادوا على انتهاك الإضرابات وعلى ممارسة الضغط لتحطيم النقابات العمالية الحرة . . .“

ثم مضت الرسالة إلى القول: ”إن التجاوزات بين المزاغم الجريئة التي يطلقها بيغن وحزبه وإنجازاتهم في الماضي وفي فلسطين لا تحمل طابع حزب سياسي عادي . هذا هو الطابع الذي لا تخطئه عين لحزب فاشي يعدّ الإرهاب (ضد اليهود والعرب والبريطانيين على السواء) ، وإساءة تصوير الأمور ، كما يعدّ «الدولة القائدة» هي الهدف في ضوء الاعتبارات المذكورة فإن من المحتم أن تعرف الحقيقة عن السيد بيغن وحر كته في هذا البلد . وإن مما يزيد الأمور مأساوية أن القيادة العليا للصهيونية الأميركية قد رفضت شنّ حملة ضد محاولات بيغن ، أو حتى لفصح أخطارها على إسرائيل لأنصارها من وراء دعم بيغن“ . [سمير كرم: متى لم تكن إسرائيل فاشية؟ السفير اللبنانية 2010/12/31]

ماذا يقول آينشتين لو قام من قبره وشاهد فلسفة حيروت تقود السياسة الإسرائيلية بعنصرية مطوّرة ومتفردة في الحكم بلا منازع؟!

التحق آينشتين بتحالف السلام (برت شالوم) بعد أن اختلف مع قائده يهودا ماغنس ، رئيس

جامعة القدس ، بسبب إدارة الجامعة العبرية . تعاون مع الدعوة إلى المصالحة والتعاون بين اليهود والعرب [فريد جيرومي : ، 60]؛ كان من بين مؤلفاته كتاب يؤرّخ لسيرة حياة يهودا ماغنس ، الشخصية التنظيمية القيادية في حركة الصهيونية الثقافية ، والتي ماتت بصورة غامضة . [جيرومي: 62] . يحتفظ العالم بحسن الطوية متفائلا بمستقبل تعايش سلمي في فلسطين . لم يدر بخلده وجود ماكنة لتفريخ الكراهية العرقية والحروب المتواصلة .

ومن أتباع الصهيونية الثقافية ودولة ثنائية القومية في فلسطين مارتن بوبر ، أستاذ الفلسفة بجامعة القدس ، وكان يرى ان العلاقات مع العرب أمر حاسم بالنسبة للإنسانية اليهودية [جيرومي 133] . وشارك في معارضة إقامة دولة إسرائيل هنريتا شولد ، إحدى مؤسسات حركة هداسا للنساء . وقبيل إعلان دولة إسرائيل نشر يهودا ماغنيس مقالا في نيويورك تايمز بمثابة نداء للسلام في فلسطين . وعارض آينشتين وحثه أرندت إقامة الدولة؛ وفي شهر يناير 1946 مثل آينشتين أمام لجنة التحقيق الخاصة بفلسطين وحاجج في شهادته ضد إقامة دولة إسرائيل . نقل جيرومي من شهادة آينشتين ، الذي تحوّل إلى شوكة في حلق الحركة ، وأخفت عنه مخططاتها المضمرة لتجسير عرب فلسطين بوسائل دموية . قال في شهادته -بمصدق ثورة البراق العام 1929: «تمّ تحريض الجماهير العرقية بشكل منهجيّ ، بالإضافة إلى تدبير الاضطرابات التي شاركت حكومة الانتداب بنشاط في التحريض عليها . وفي ظل هذه الظروف لا يوجد هناك أمل في تحسين الوضع ما دام الانتداب في يد بريطانيا العظمى . إن اقتراحي هو شبيهه باقتراح ماغنس (حكومة ثنائية القومية تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة مباشرة) ، ورفض إقامة الدولة اليهودية باعتبار أن إقامة هذه الدولة أمر غير ممكن عمليا في ظل توزيع السكان الحالي» [جيرومي: 154]

نقل عن البرت آينشتين دعوته إلى استبدال أحكام الإعدام بحق الفلسطينيين الثلاثة الذين نفذ فيهم حكم الإعدام بسبب دورهم في ثورة البراق ، العام 1929 . طالب بإصدار عفو عن سجناء الثورة من العرب «لأنه كان يشعر بأن الشباب اليهودي اليمينيّ التوجه يشاركون في المسؤولية عن الأحداث» [جيرومي: 64] . وفي شهادته أمام لجنة التحقيق ، العام 1946 ، أشار إلى «مسئول بسيط في البوليس كان في اضطرابات 1929 ، ألف كتابين حول الواجبات التي كان عليه أدائها . اسم الرجل دوغلاس دوف واسم كتابه الأول 'سيوف للإيجار: قصة رفيق حرّ حديث' ونشر العام 1934» [جيرومي: 143] . آينشتين ، بخلاف فرويد ، استدرج للانضمام إلى الحركة الصهيونية متذعرا بالتهجمات اللاسامية في عشرينات القرن الماضي . أفلحت الحركة الصهيونية في استثمار سمعته العلمية ونفوذه الأدبيّ لأغراضها دون أن تفلح عواطفه الإنسانية في ردع التوجهات العنصرية للصهيونية ، فمن خطاب له ألقاه في فندق أميسادور في لوس أنجلس (16 شباط 1930) يتبين أنه وقع تحت تأثير مضلل ، إذ يقول: «لقد جرى الإعلان بوضوح أننا لا نسعى لخلق مجتمع سياسيّ ، وبأنّ هدفنا هو هدف ثقافيّ بأوسع معاني الكلمة ، وبما أنّ الأمر كذلك ، فإنّ علينا أن نحل مشكلة العيش بروحية الجيرة جنبا لجنب مع إخوتنا وأقاربنا العرب ،

بطريقة نبيلة وصريحة وكريمة» [جيرومي: 87]. وفي رسالة إلى صحيفة فلسطين نشرت في 1 شباط 1930، عبّر آينشتين عن الثقة «بأن الشعبين الساميين اللذين ساهم كل منهما بطريقته بشيء قيم في حضارة الغرب، سيكون لهما معا مستقبل عظيم، وبأنه يجب عليهما، بدلاً من مواجهة بعضهما البعض بعداء سافر وبعدم ثقة متبادلة، أن يساندا جهود بعضهما البعض القومية والثقافية». [جيرومي: 78].

بقدر ما كان عبقرياً في ميدان العلوم الطبيعية بدا ساذجاً في السياسة، غفل عن المياه العذبة التي سالت تحت الجسر حتى 29 نيسان 1938، حين أورد في مقال "الدين الذي علينا للصهيونية" [فريد جيرومي: 64]: "أفضل أن أرى اتفاقاً معقولاً مع العرب يقوم على أساس العيش معا بسلام بدلاً من إنشاء دولة يهودية (. . .). إنني أخاف من الأذى الداخلي الذي سيصيب اليهودية - بشكل خاص من نمو مشاعر قومية ضيقة بين صفوفنا، مشاعر اضطررنا إلى محاربتها بقوة حتى دون وجود دولة يهودية . . .". وفي رسالة عتاب إلى لويس راينوفيتش (17 مارس / آذار 1952) المتحمس لإقامة الدولة اليهودية، يتساءل: "ألم يخطر ببالك أن (الحجاج) الذين رحلوا من إنجلترا لاستعمار هذه البلاد (الولايات المتحدة الأميركية) قد أتوا لتحقيق مشروع مماثل لمشروعنا؟ هل تعرف أيضاً كيف أصبح هؤلاء الناس بعد فترة قصيرة استبداديين وعدوانيين وغير متسامحين؟"

كلّ هذه المواقف الواضحة بغير خداع أو مخاتلة وتكتب صحيفة نيويورك تايمز في مقال نشرته بعد وفاته بيوم واحد (19 نيسان / إبريل 1955) "إن إسرائيل التي ناضل آينشتين من أجل إقامتها كدولة . . .". ونقلت صحف عدة في الأيام التالية عن نيويورك تايمز تلك الأكدوبة في رثاء العالم ذي النزعة الإنسانية.

ومن لم يوفر آينشتين بتجنّياته يستحيل أن يوفّر إدوارد سعيد، حين وجّه النقد العلمي للفكر الاستشراقيّ وليستخلص من دراساته أن "خطاب الاستشراق لم يوجّه لقارئ شرقيّ، بل هو موجه لقراء ومستهلكين في عواصم البلدان الغربية"، ضمن عملية غسيل الأدمغة وتسهيل جهود التعبئة والحشد للمشاركة في الحملات الكولناليّة في المشرق العربيّ.

### فلسطين المتخيّلة

وجد التناقض الإشكالي بين النصّ التوراتي والتاريخ الفلسطينيّ حلّه في بحث علمي جرى خارج فلسطين؛ إذ استطاع باحث عربيّ إثبات التعسّف في إسقاط وقائع التوراة على المنطقة الجغرافية لفلسطين؛ بينما أحداث التوراة ووقائعها وأماكن وقوعها تنطبق على بقعة تتطابق مع جغرافية اليمن. فطبقاً لمنهجية الاستدلال على معالم الحضارات والربط المقارن بين النصّ التوراتي ونصوص أخرى ذات مصداقية، أمكن العثور على التوافق والانسجام بين السرد والمكان والزمان. أثبت

الباحث العربيّ، من العراق، فاضل الربيعيّ، في مؤلفه [فلسطين المتخيّلة]، أن وقائع التوراة وحكاياتها الأساس جرت في فضاء جغرافيّ غير فلسطين، وأن أحداث التوراة أسقطت بصورة تعسفيّة على الفضاء الجغرافيّ الفلسطينيّ، فتجلت متناقضة وبعيدة عن المعقول. وفي نفس الوقت تتطابق الأحداث والمطرح في منطقة سراة اليمن، المحاذية للبحر الأحمر. ومما لا شك فيه أنّ مادة الكتاب التي شغلت 1200 صفحة استنفذت جهودا مضنية. أثبت الباحث بالوقائع المتعيّنة أن حملة التوراة هم من نسل قبيلة حمير العربيّة، خاضوا حروبهم وبنوا حضارتهم في اليمن وليس في فلسطين. دارت حروب داوود ونشأت حضارة مملكة سليمان في تلك الربوع، وليس في فلسطين. كما جرت أحداث الغزو الآشوري في اليمن، وأخذ المسيّون من اليمن وعاد من عاد من نسلهم إلى اليمن، وهناك بنوا الهيكل الثاني على أنقاض الهيكل الأول. وهذا يعدّل الاعوجاج ويجبر الكسر لدى إسقاط روايات التوراة على جغرافيا فلسطين. كانت فلسطين خالية من معتقّي الديانة اليهوديّة حتى القرن الخامس قبل الميلاد.

### وقائع التوراة

أمضى الباحث الربيعيّ أكثر من عقد، وربما العقدين، في تعلم لغة «التناخ» ونقد الترجمة إلى العربيّة عن الآرامية واليونانية؛ ثم وقع بين يديه صدفه كتاب رحلات إلى اليمن محقق ومدقق أتاح له إجراء مقارنة عانية ودقيقة مع نصوص التوراة، ليتوصّل أخيرا إلى أن النصّ القديم للتوراة، وهو ما يعرف بـ «التناخ» جرت أحداث حكاياته في مناطق جغرافية لا تنطبق بتاتا على جغرافية فلسطين؛ إنما تنطبق على منطقة السراة اليمنيّة. وجدت التوراة في جزيرة العرب لدى العرب البائدة.

تعرف العرب قبل الإسلام على بقايا مملكة مزدهرة دان سكانها بدين اليهوديّة على ساحل البحر الأحمر، وهذه المملكة هي التي أرسل الرسول محمد إلى بقايا سلالتها الحاكمة في اليمامة. أمكن العثور على التطابق والانسجام ما بين السرد والمكان والزمان. أثبت الباحث في مؤلفه الصادر في مجلدين وستة أجزاء ضمن 1200 صفحة، أن وقائع التوراة وحكاياتها الأساس جرت في سراة اليمن، المحاذية للبحر الأحمر. لم يتطرق إلى كون حكايات التوراة قد تمّ نقلها شفاهة أم كتابة، وكيف سلّمت نصوص التوراة وبادت القبائل التي تداولتها. حملة التوراة هم من قبيلة حمير العربيّة خاضوا حروبهم وبنوا حضارتهم في اليمن وليس في فلسطين. «إن الالتزام بتحديدات القراءة الاستشراقية للمواضع المتخيّلة في فلسطين يقود إلى الفوضى إذا ما جرى التقيّد بها على أنها تحديدات جغرافية صارمة في فلسطين الحقيقية؛ وبالعكس تقودنا تحديدات يشوع والهمدانيّ والشعر الجاهليّ إلى الأماكن نفسها في أرض اليمن دون عناء أو تكلف». [فاضل الربيعيّ: فلسطين المتخيّلة - المجلد الثاني - الجزء الرابع، ص 435]. يشوع الوارد في النصّ هو كاتب السفر التوراتيّ المسمى باسمه؛ والهمدانيّ هو (الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانيّ) رحالة عربيّ عاش في القرن الثالث الهجري سجل مشاهداته في جغرافية اليمن والأحداث التاريخيّة التي مرّت

على أرضه ، وذلك في كتابه [«صفة جزيرة العرب» - تحقيق العلامة محمد بن علي الأكوخ - سلسلة خزانة التراث ، بغداد 1989]. توسعت الدراسة وفصلت بدقة في الجغرافيا ، خاصة منطقة السراة على ساحل البحر الأحمر ومناطق صنعاء وعدن وأبين . ناقش الباحث ، الربيعي ، في المجلدين النفيسين الزيوف المتعسفة والمتعمدة للتوراة ، فانتشلها من التناقض والاضطراب والشكوك في مصداقيتها ، إذ تم إسقاط مواقعها على الفضاءات الفلسطينية . «لقد سار الهمداني بنفسه هذه المرة وبعد مئات السنين على خطى النبي اليميني ، يشوع ، ليعيد توصيف سراة اليمن كما وصفها النبي من قبل ، وليسجل الأسماء نفسها وبالتسلسل نفسه؛ ولكن دون أن يعلم أي شيء عن هذا النوع المثير من التطابق ، ومن دون أي تلميح إلى أي ادعاء ديني للقبائل اليمينية التي عاشت وانقرضت في المكان نفسه . مثل هذا الادعاء لا يصدر إلا عن مخيلة استشراقية وجدت في التطابق الشكلي الزائف أحد مصادر الهيمنة على سرد الرواية التاريخية ، ومن أجل تليفق تاريخ إسرائيلي في فلسطين القديمة يلعب الفلسطينيون فوق مسرحها الجاهز دور غزاة متسللين من جزيرة كريت اليونانية؛ بينما يصبح المستوطنون الجدد أحفاداً لبناء امبراطورية إسرائيل القديمة ، ضمت ، إلى جانب فلسطين ، كلا من الأردن وسوريا ولبنان وشواطئ الفرات العراقي» [ الربيعي: 453 ] .

ترى هل سيجد البروفيسور وايتلام في هذا البحث الرائد مفتاحاً لـ «إثبات أصالة تستمد من بطن التاريخ المكون في باطن الأرض ، وهي سجل فكر وسجل تطوّر حضاري؟ وهل حقاً قدم الربيعي ما يسند استخلاصه بأن «التلاعب بالحقيقة التاريخية والجغرافية لم يكن عملاً بريعاً؛ بل كان مصمماً لتمرير أكبر عملية خداع في التاريخ البشري ، وذلك حين جرى تصوير المدن والقرى والمواضيع الواردة في أسفار التوراة على أنها ذاتها المواضع والقرى والمدن في فلسطين التاريخية؟»

ونعلم أن إعلان موت التاريخ التلمودي واقع ، وإهالة التراب عليه واقع آخر ، تفصل بينهما مرحلة ممتدة من الصراع الحاد والمريع؛ فالأوهام التي رسختها الدعايات التوراتية وأبحاثها وتعسف استخلاصاتها والمصالح العديدة القابعة خلف زيوفها تستقرّ طويلاً في أذهان الجمهور الذي لا يتابع النقاشات والاكتشافات ، وهو يتعرض لعمليات متواترة من غسيل دماغ وتعبئة الرأي العام وشحنه بالخرافات والأوهام بواسطة آلة إعلامية شديدة التأثير متخصصة في «صنع الموافقة» .

حجم الكتاب يشكل صعوبة في مطالعته واستيعابه من قبل الجمهور الواجب إطلاعه على حقيقة المكيدة الثقافية للاستشراق الغربي . ولكي يتاح إطلاع القارئ العادي على الحقيقة في هذا المجال يقتضى إصدار طبعة ملخصة ومكثفة لهذه الدراسة القيمة . حبذا لو أتيح للباحث الوقت كي ينجز العملية في وقت قريب .

جاء الربيعي مكتملاً لأعمال المؤرخين للتوراة ، ومستجيباً لتطلعات الغيورين على الحقيقة التاريخية

من أمثال البروفيسور وايتلام ، إذ عبّر عن الأمل بأن «الشروع بالأبحاث والتنقيب عن التاريخ الفلسطيني سيجعل من الممكن انتزاع التاريخ الفلسطيني وتحريره من قبضة المصالح التي ساهمت في إسكاته طوال المدة الطويلة من الزمن [وايتلام: 324] . وعلينا أن نقرّ بوجود تعارضات هنا وهناك مع حقائق أوردتها مؤرّخون آخرون . ولا بدّ أن تثور تساؤلات واعتراضات على بعض استخلاصات الباحث؛ الأمر الذي يفتح مجالات الدراسات اللاحقة .

يسمح قانون العودة في إسرائيل للملحدين والأدريين والمتحوّلين إلى ديانات أخرى الحصول على حقوق التجنس في إسرائيل ، بناء على الدم فقط . وحوالي ثلث سكان إسرائيل لأدريون أو ملحدون . وحتى العام 1970 لم يمنح قانون العودة الجنسيّة إلا لأبناء الأمهات اليهوديات (بموجب تعريف الهالاخا لليهوديّ). وفي العام 1970 عدل القانون ليسمح «لأي ابن أو حفيد يهوديّ أو لزوج ابن يهوديّ أو زوج حفيد يهوديّة بحقّ التجنس ، ما عدا فردا تخلى عن ديانتها اليهوديّة» . أما الحقيقة الصلدة فتقول إن يهود القرن الواحد والعشرين ليسوا بالضرورة من نسل أولئك الذين طردوا على أيدي الرومان من يهودا أيام التهجير . وبكل الاحتمالات بقي عدد كبير من هؤلاء في مجتمع متعدّد الأعراق يضمّ الأثوريين واليونان والرومان وغيرهم ، والعديد من هؤلاء يهود فلسطينيّون تحوّلوا فيما بعد إلى المسيحيّة والإسلام؛ يعني أن العديد من سكان يهودا لم يغادروا . إن مفهوم «إسرائيل حق الولادة» يتغذى من الأوهام العرقية .

كان الباحث العربيّ من لبنان ، الدكتور كمال صليبي ، قد توصل إلى استنتاج يؤكّد أن التوراة أصلها في جزيرة العرب . أوردت الدكتورة سحر الهندي تعليقا على جهود الدكتور صليبي ضمّنته هامش كتاب وايتلام المترجم (ص 227 ، 228) ، قالت فيه: «إن بحث الدكتور صليبي اعتمد على فقه اللغة (الفيلولوجيا) في تفسير التوراة ، وبالتحديد سفري صموئيل الأول والثاني في أصلهما العبريّ . ونظراً إلى أن القصص التوراتيّة المتعلّقة بمملكتي داود وسليمان قد وردت في معظمها في هذين السفريين ، فإن صليبي يرى أن على الباحثين التوراتيين أن يبدأوا بقراءة نقدية للتوراة العبريّة ، وذلك لتحديد ما تقوله هذه التوراة ، بل الأهم لمعرفة ما لا تقوله . ويرى عبث الاعتماد على النصوص الحاليّة للتوراة دون الرجوع إلى النصّ العبريّ؛ لأن التوراة التي بين أيدينا اليوم هي المعروفة بالترجمة السبعينية (نسبة إلى عدد مترجميها) ، والتي ترجمت من الآرامية (التي كانت آخذة بالحلول محلّ العبريّة القديمة) إلى اليونانية . وكان النصّ العبريّ قد تعرّض إلى الإغلال والتشويه في النطق . وهذه العوامل أدت إلى تشويه النصّ . لهذا يرى الدكتور صليبي أن التوراة العبريّة لم تقم لغويا بشكل صحيح حتى الآن؛ فلا بدّ من العودة إلى المعجم العربيّ؛ إذ العبريّة لغة سامية لها الأصول نفسها التي للغة العبريّة؛ وذلك لإعادة النظر في تفسير ما جاء في التوراة ، ولحلّ بعض المعضلات اللغوية . ويقول د . كمال صليبي أيضا ، إن الدراسات التوراتيّة أصبحت بشكل متزايد «مبحثا زائفا» من مباحث علم الآثار التوراتيّ . وهو زائف لأنه يبحث عما يأمل أن يجده ، وعلم اللاهوت المسيحيّ هو أيضا زائف لأنّ عقائده ليست مبنيّة على أرض صلبة .

”وضع صليبي مؤلفاً عنوانه ”تاريخية إسرائيل التوراتية“، دراسات في صموئيل الأول والثاني“ صدر عن Nabu Publications، لندن 1998. والكتاب غير مترجم إلى العربية. وللدكتور صليبي كتابان بالعربية يعالجان موضوعات مشابهة: الأول بعنوان ”خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل“ [دار الساقى ط2، 1991] والثاني ”حروب داود، الأجزاء الملحمة من سفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العبري“ [دار الشروق، ط1، 1990]. - انتهى الحديث عن صليبي.

وللدكتور صليبي أيضاً كتاب ”التوراة من جزيرة العرب“.

أما منهجية فاضل الربيعي فمغايرة، واستندت إلى الأدب المقارن. رجع إلى اللغة العبرية القديمة، وهي بعض لهجات عربية يمنية قديمة اندثرت مع اندثار العرب البائدة ممن حملوا التوراة القديمة. وتوفرت لديه وسائل تدقيق النص التوراتي وإظهار ما فيه من عيوب الترجمة، المقصودة والعفوية، وكذلك البرهنة على وجود أرض للتوراة في منطقة اليمن. ”وهي براهين لا تجعل الاستخلاص حقيقة تصمد أمام النقد أو التحامل والتجسّي، أو القناعات الكونكريتية المترسبة في الوعي والوجدان نتيجة التعبئة المتواترة“. اقتحم ميدان البحث الشاق في التوراة الباحث العراقي فاضل الربيعي، معتبراً كتاب صليبي ”فتحاً معرفياً عظيماً في الثقافة العربية“ [فاضل الربيعي: المجلد الأول، 17]. كان لا بد للباحث الجاد والموضوعي أن يبحث عن الحقيقة التاريخية، مسلحاً بمعرفة معمّقة بلغة التوراة القديمة كي يتغلّب على عيوب الترجمة إلى العربية، والإسقاط المختلّ للأماكن والأشخاص والتواريخ، ولكي يمسك بتلاوين التلفيقات والزيوف المتعمّدة، والتي خلطت بين الأفعال والأسماء، وتعمّست في ربط سيرورة الحوادث مع المواقع الجغرافية بحيث جاءت على نسق يتعدّر تصديقه. اعتمد الباحث أسلوب المقارنات بين نصوص التوراة ونصوص الشعر الجاهليّ القديم وكذلك نصّ الهمداني العائد إلى القرن الثالث الهجري. خرج الباحث بقناعة معدية أن أحداث التوراة ومواقعها هي بالاحتم غير منطبقة على الفضاء الفلسطيني؛ إنما يجوز القول إنها تنطبق على اليمن في المنطقة الساحلية الممتدة من جبال عسير. . . . الهيكل لم يبن في القدس قط؛ بل إن أسوار أورشليم التي أشرف نحميا على إعادة ترميمها لا وجود لها هناك أصلاً؛ وفوق ذلك ليس ثمة هيكل لسليمان تحت قبة الصخرة؛ فيما نجد الهياكل في السراة اليمنية كما وصفها الهمداني، بالتلازم مع ذكر أسماء القبائل اليمنية اليهودية [الربيعي: ج1، 13]

حول قصة الكتاب يقول الربيعي: ”بدأت حكاية الاكتشاف المثير عندما كنت أعيد قراءة الهمداني بعيد وصولي إلى هولندا بقليل. وأشدّ ما أثار دهشتي أنني وجدت الهمداني يسرد أمامي أسماء الجبال والوديان والهضاب وعيون الماء في اليمن، كما لو أنه يسرد الأسماء نفسها الواردة في التوراة، والتي أكاد أحفظها عن ظهر قلب [14]. وهي ذاتها وتاماً كما في نصوص التوراة دون أدنى تلاعب. (. . .). عثرت على مقالة (من كتاب عبد الرحمن الشهبندر (الأعمال



الكاملة، قضايا وحوارات النهضة العربيّة 12- دمشق 1993) يعود تاريخها إلى العام 1936، نشرتها مجلة الرسالة المصريّة (عدد 8، 192 آذار ص5)؛ وفيها إشارة إلى ما كنت أبحث عنه: الدليل على أن مملكة إسرائيل القديمة لم تكن قطّ في القدس؛ ومن ثم فإن التماثل والتطابق بين النصّين مصدره مسرح آخر للأحداث التوراتيّة غير المسرح الفلسطينيّ". يعود الربيعي إلى كتاب الرحالة السوري نزيه مؤيد العظم (رحلة في بلاد العربيّة السعيدة، سبأ ومأرب، الجزء الأول والثاني، مؤسسة فادي بريس، لندن الطبعة الثانية، 1985 ص140-141)، والذي استقى منه الشهبندر معلومته ويجد فيه نصا عن مقابلة مع الحاخام باليمن عام 1916م: "تقابلت في القاع- قاع اليهود في اليمن- مع عدّة أشخاص من كبار اليهود وغيوتهم وسألتهم أسئلة متعدّدة عن أصل اليهود اليمانيّين وعن أحوالهم وأشغالهم، وها أنا أنقل حديثا جرى بيني وبين حاخامهم الأكبر المدعو يحيى بن إسحق في داره. سألته ماذا تعرف عن أصل اليهود في اليمن وعن مدنيّتهم؟ فقال: «كانت لليهود مدينة عظيمة، وكان لهم ملك فخيم في شرقيّ صنعاء. وقد أسس ذلك الملك وتلك المدينة الملك سليمان بن داوود (. . .) وهل قامت تلك المملكة في نجران؟ لا أعلم بالضبط ولكنّي لا أشكّ أنها كانت في شرقي صنعاء ومن المحتمل أنها كانت في نجران» [الربيعي: ج1، 14-16].

يستشهد الربيعي بفقرة من كتاب الهمدانيّ (ص73) يقول فيها: «وأما سائر أجزاء هذا الربع الذي يلي وسط جميع الأرض المسكونة وما يقع فيها من مثل أرض سورية وأرض فلسطين وبلاد اليهوديّة العتيقة من إيليا، وتسمى بالعبرانية يروشلم، وتعربها العرب فتقول اوراشلم». ثم يسأل الربيعي: «ما معنى التمييز بين هذه البلدان؟ هذا المعنى يتمثل هنا أن بلاد اليهوديّة العتيقة التي دارت فيها أحداث سفر المكابيين ليست أرض فلسطين (. . .) وبكلّ تأكيد فإن هذا المكان الذي تم تمييزه بأنه أرض اليهوديّة العتيقة (أي البلاد التي ورثت مملكة يهوذا وتواصلت مع ديانتها حتى ظهور الملك الحميري ذي نواس، الذي أعاد بعث اليهوديّة في أرجاء اليمن في العام 524 م، كان يعرف عند الجغرافيين اليونانيين باسم يروشليم. ولو كانت يروشليم هذه هي ذاتها مدينة القدس العربيّة في عصر بطليموس اليوناني فمن غير المنطقيّ أن يميزها عن فلسطين. بل لا مبرر لتمييزها أصلا، ولتوجّب أن يقول، وهو الجغرافي الحاذق أن يروشليم في فلسطين. بيد أن هذا سيكون أمرا مخالفا لمنطق الجغرافية في عصر بطليموس. فهو يعرف أن يروشليم هذه لم تكن في فلسطين، ولم يكن اسمها القدس أيضا. والتاريخ المقبول من وجهة نظر هذا الكتاب -لبداية تدفق القبائل العربيّة العاربة، بما فيها بقايا قبيلة بني إسرائيل، من يهود اليمن وسواحل البحر الأحمر وتهامة ونجد اليمن واليمامة نحو جنوب بلاد الشام (فلسطين) لن يتجاوز حدود العام 200 ق. م.، إذ بدءا من هذا التاريخ تدفقت على شكل موجات متعاقبة وتحت ضغط الحروب والحملات العسكريّة المدمّرة، جماعات وقبائل وشعوب منهكة تقصّمت، وإلى حد كبير إمكاناتها القتاليّة والحربيّة، وأضحّت قدرتها على مواصلة التمرد محدودة وتكاد تكون معدومة.» [الربيعي: المجلد الثاني - ج5، 561]

## الفلسطينيون من كريت!؟

لقد كانت فلسطين وسكانها في العصر الحديث ضحية هوس الاستشراق الاستعماريّة . وأحد الأمثلة الصارخة للتزوير أن ما يدعى 'فلشتيم' ليس اسماً دالاً على فلسطين أو الفلسطينيين . [الريعي: المجلد الثاني - ج4:408] . الاسم الوارد (فلستيم) ، حسب السياق التوراتي ، وبناء على دلالات كتاب الهمداني ، أطلق على قبيلة يمنية قديمة كانت تعبد إلهاً بالاسم نفسه (فلس) ، واشتبكت مع القبائل اليهودية في معارك طويلة . «ولدت التوراة- وفي الأصل شريعة موسى - ككتاب ديني ينتمي إلى الطفولة الدينية واللغوية للعرب اليمنيين . كان موسى شخصية عربية يمنية لا أحد يعلم مبلغ الصدق فيما وصلنا من القصص حولها؛ كما أن تلميذه يشوع ، الذي وهب الأسباط أرض مستقرهم ، كان عربياً يمينياً كذلك . التوراة لا تروي شيئاً عن فلسطين أو الفلسطينيين» [الريعي: المجلد الثاني - ج3 ، 320] .

وفد الباحث الزعم بأن أصل الفلسطينيين جزيرة كريت أو بحر إيجه: «على هذا النحو جرى - في نظرية الأصول البحرية للفلسطيني - تغريب منهجي منظم للسكان الأصليين ، ونفيهم خارج التاريخ تمهيداً لنفيهم من الأرض وقطع كل رابطة لهم مع الفضاء الجغرافي الذي احتضن تجربتهم التاريخية . وللأسف لقيت النظرية التلقيفية تقبلاً لدى دارسين عرب معاصرين [الريعي: المجلد الأول - ج449 ، 2] . «ولأن الاسمين كرتيم - كرت وفلشتيم - فلتشت هما مجرد اسمين في قائمة طويلة من أسماء الشعوب والجماعات العربية الأولى الواردة في التوراة ، فإن التحقق من المعنى المباشر لهما لن يكون ممكناً بدون تفكيك ألغاز سائر الأسماء التوراتية وفك الارتباط بينها وبين القراءة المخيالية . لنلاحظ أولاً أن التوراة تشير إلى معارك داوود - عصر النبي صمويل دارت قبل جبل الرمة ، ولنلاحظ ، ثانياً ، أن هذه الأسماء لا وجود لها في فلسطين قط . فليس ثمة جبل يدعى الرما ، ولا وجود لواد يدعى الرمة . ولنلاحظ ، ثالثاً ، أن سكان أرض الفلّس (ءرص ها فلشتيم) يقصد بهم جماعة كانت تقيم قرب جبل أوبن آل العيزار (ءوبن ها عيزار) وأنها عرفت باسم معبودها الإله فلس معبود قبيلة طي اليمنية ، كما في الروايات التاريخية الموثقة . ولنلاحظ ، رابعاً ، أن الجماعة الوحيدة التي أقامت بالقرب منهم هي القبيلة اليمنية التي نسبت إلى مكان يدعى الفرش - فرشت . واسم المكان يكتب في النقوش اليمنية في صورة فرشت ، ولذلك فإن قلب الراء لاما ، وهو ما قام به المستشرقون ، هو تلاعب باطل . ولنلاحظ ، خامساً ، وأخيراً أن القبيلة اليمنية التي أقامت قرب هؤلاء وعرفت باسم واديها ، وادي كرت تنسب عادة في الأنساب العربية التي سجلها الهمداني إلى كرات بن هنوم . وتسجل التوراة نفس الاسم ، هنوم . يتضح من ذلك أن نظرية الأصول الإغريقية للفلسطينيين لا أساس لها سوى وجود كلمة كرت» [الريعي: المجلد الأول - ج2 ، 452] .

## من النيل إلى الفرات

ويعرّج الباحث على أصل خرافة الوعد ومداه ما يزعم أنه مملكة اليهود القديمة المترامية من النيل إلى الفرات ، ومن سيناء حتى صور . يستند الزعم إلى العبارة في التوراة ( م - نهر مصرم - عد - جبول نهر فرت) . عزّبت الترجمة العربيّة بـ«نهر النيل» (من نهر النيل حتى نهر الفرات) . أما المدقق والمطلّع على لغة التوراة فينفي أن مصرم جمع مصري ، بل هم «المُصْرِيُّون» ، القبيلة التي ورد اسمها مرارا في التوراة ، وخصوصا في مراثي أرميا وأشعيا . كما يورد الهمدانيّ (نهر فرة - فرت) عبارة عن منطقة تمتدّ على مساحة جغرافيّة من الساحل حتى البادية . وهي منطقة قبيلة كندة التي تضمّ المصريين [الريعي: المجلد الأول - ج 2 ، 469] . من غير الطبيعي أن يذكر النصّ التوراتيّ أولا نهر المصريين ومباشرة يتبعه بذكر نهر الفرات ، علما أن النيل اتخذ اسمه من زمن أبعد في القدم .

جرى تفسير العبارة التوراتيّة لتتنطبق إطلاقا على المنطقة التي فسّرها البحث الاستشراقيّ للتوراة [المجلد 1 ، الجزء الثاني ، 448] . كما يستند المفهوم الشائع والخطأ إلى ورود صور ، البلدة التي طلب داوود من ملكها أحشابا ونجارين مهرة لصنع سور حول القدس . لكن التفسير يفضح شهوة للاستحواذ على مياه الليطاني وتحويله إلى الأرض الموعودة للدولة المتخيّلة حينذاك . إنه يصمّر مخطّطاً قديماً لأن تمتدّ أطراف الدولة المنوي إقامتها استنادا إلى النصّ التوراتيّ حتى مدينة صور اللبنانية ، كي تستحوذ على مياه الليطاني ، ولتغدو بذلك دولة إقليميّة مهيمنة وسط محيط عربي .

ويعود [الريعي: المجلد الثاني - ج 5 ، 507] لتنفيذ التأميل الاستشراقيّ لـ «إسرائيل من الفرات إلى النيل» . يفضح الريعي النوايا الإمبرياليّة القابعة خلف خلط النيل والفرات في جملة واحدة والقفز عن بيت لحم . فالمدينة بناها اللخميّون ، وهم قبيلة يمنية بائدة . «يلتبس اسم ءفرة في النصّ العبريّ (ءفراة في الطبعة العربيّة من التوراة) في ذهن قارئ النصّ باسم نهر الفرات العراقيّ ، نشأ عن اللبس سوء فهم فظيع أدّى بدوره إلى نوع مثير من الدمج الماكر والمخادع ، تجلّى في أبشع صوره في تخيّل حدود مملكة إسرائيل القديمة - وهي لا وجود لها في التاريخ الفلسطينيّ - وقد امتدت من النيل إلى الفرات ( . . ) ، لكنّ شهادة الهمدانيّ ستكون حاسمة في هذا الميدان؛ فهو يصف النيل اليمنيّ في سياق توصيف الأودية ذاتها التي يسجلها نصّ يشوع ، ومنها مسيل وادي ءفرة . إن وجود اسمي النهرين العظيمين ، النيل والفرات في الكتاب المقدّس لليهوديّة هو مخيال استشراقيّ قامت أوروبا بتصعيده في سياق حمّى الاستيلاء على الأرض في الشرق في عصر الفتوحات .

«وما صلة الفرات أصلا بمدينة بيت لحم الفلسطينيّة؟ لماذا جرى القفز على هذا الاستدراك الواضح والقاطع ، والذي لا يقبل الجدل: (ءفرة هي بيت لحم)؟ التوراة في مرويّاتها عن حروب داوود تذكر اسم بيت لحم وءفرة في سياق أحداث تدور في مواضع لا وجود لها قطّ بفلسطين» وينسب داوود إلى ءفراة .

## هوذه ومملكة حمير

يكمل الربيعي في مؤلفه القيم ، ويعزّز مرويات الدكتور شلومو ساند في كتابه «اختراع الشعب اليهودي» ، ويختلف معه في تأريخ المملكة الحميرية ، حيث يرجعها إلى ما هو أبعد من القرن الثاني قبل الميلاد ، دون أن يحدّد لنا التاريخ الحقيقي لحروب شاول وداود واستقرار الملك لداود . يتوسّع الربيعي في تتبع تجربة تاريخية غنيّة للعرب ، في مملكة حمير العربية المعتبرة للعقيدة التوحيدية اليهودية بصورتها البدائية . جرى إغفال دولة حمير مع من أغفل من الدول التي أنشأها يهود من غير سلالة الإسرائيليين في بلاد البربر شمالي إفريقيا حتى قبيل الفتح العربي ، وفي بلاد الخزر في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . الأبحاث التوراتية المعرّضة تركت هذه التواريخ تضيع كي لا تلحق التصدّعات والثقوب المثيرة للريب في النصوص التوراتية المؤولة .

كيف ناقش الربيعي أضاليل الاستشراق التي ألّبت فلسطين القديمة ثوب التوراة فجاء مهلهلا مضطرباً كما اتضح لدى عدد من المؤرّخين الباحثين في التوراة؟ إن منهجية البحث التي اتبعها الربيعي وفرت له وسائل الاستدلال ، التي أثبتت التاريخ الحقيقي لقبائل عربية دانت باليهودية وعمرت البلاد وأنتجت حضارة باد جزء منها وسلم جزء آخر وصل عصر التدوين ، واتصل بالثقافات الأكثر تطوّراً ، الفارسية والهلينية؛ فاكسب بذلك ميّزة الانتشار الواسع . استطاع الربيعي من خلال عمله القيم كشف أنماط التزوير والتلفيق التي اتبعها المستشرقون الأوروبيون ، ممن أسقطوا أسماء مدن ومواقع جغرافية وردت في التوراة تماثل من حيث الاسم مدناً فلسطينية ، لكنّها ضمن سياق النص التوراتي والمواقع المرافقة لها تختلف بشكل جلي .

فقد حملت التوراة أسماء مدن فلسطينية وعربية اتكأت عليها التفسيرات الاستشراقية لدعم الزعم بأن التوراة تحكي تاريخ فلسطين القديم: القدس ، بيت لحم ، حبرون ، اللد ، أشدود ، غزة ، عكا ، الجولان ، جرش ، يافا ، دورا ، أريحا ، وادي عربة ، عمواس الخ . ننظر كيف أنّ الباحث يمسك المستشرقين متلبّسين بجريمة التزوير المتعمّد ، مغفلين تارة مواضع مجاورة في الفضاء الجغرافي ، أو عبر تزييف المعنى المترجم ، أو مستغلّين غرائب وتعقيدات اللغة القديمة . وفي كل الحالات نجد إغفالاً أو تجاهلاً لكون الأقوام العربية هاجرت من اليمن تحت ضغط الظروف المتدهورة وغزوات الرومان المدمرة للقيم والحياة . هاجروا إلى الشمال ، لما ضاقت بهم الأحوال ، وحملوا معهم أسماء المواقع ، وعلى مثالهم تصرّف المهاجرون الأوروبيون إلى العالم الجديد .

ظهر آخر ملوك اليهود في اليمن ، وهو هوذه السحيمي الحنفي . ومن قبله برز ملك يهودي اسمه يهوذا خاض معارك ضدّ الغزاة الرومان ، عرفت بحرب المكابيين (160 - 143 ق.م) جرت في منطقة اليمامة . وهناك معتقد يمني قديم تردّد في الكثير من الأشعار عن وجود اتصال مباشر لليمنيين بشجرة هود النبي (يهوذا) ، الذي تعدّ حضرموت موطنه الأصلي . إن الكشف عن قيمة هذا المعتقد وأهميته في بحث من هذا النوع تتجلى في الفكرة التالية: إن اليمنيين انتسبوا ذات يوم

إلى أب أعلى هو هود - هودّة - بإسقاط الياء اللاصقة (اللغة اليمنية القديمة تصنف الياء ، وكذلك الميم في بداية الاسم للتعريف) . [الريعي: المجلد الثاني - ج 4 ، 525 ، 526] .

أما التوراة فهو « كتاب إخباري ديني عربي قديم تركته الجماعات البائدة من العرب العاربة في اليمن . روت فيه العرب في عصر مبكر من عصور التوحيد تاريخ هجراتها ومنازلها ومعاركها وأخبارها في سراة اليمن؛ ولا صلة لفلسطين بهذا الكتاب . أما شاول ، مؤسس الملكية في إسرائيل التوراتية فيدعى شاول بن قيس ، وهو من سبط يامن . في هذا الإطار يشير الهمداني إلى ما يلي: إن يُمنون هي من مدن قبيلة الصدف؛ وهؤلاء هم من البدو الرحّل الذين أقاموا في منزل شهير من منازل اليمن يدعى صيعر - صيعر . (في قائمة منازل يهوذا رقم 55) . تكمن أهمية هذه الإشارة في أن صيعر اليوم تدعى ريدة صيعر ، وهي من أعمال مخالف (مملكة قبيلة) ذي السفال ، وهي ما يتوافق كل التوافق مع نص يشوع» . [الريعي: المجلد الثاني - ج 4 ، 427] .

### أورشليم

أورشليم التي عاد إليها المنفيون وباشروا أعمال البناء في أسوارها المهدامة ، هي من غير شك مدينة لا صلة لها بالقدس الفلسطينية ، إذ لا وجود فيها لأي مكان من الأمكنة الواردة في الوصف . وسوف تتجلى المفارقة الكبرى حين ندقّق في قائمة أسماء القبائل والجماعات التي شاركت في بناء المدينة؛ فهي قبائل عربية يمنية دانت بدين اليهودية لا تزال آثارها هناك في السراة اليمنية وليس في فلسطين . [الريعي: م 2 ، ج 3 ، ص 72] . يتتبع الباحث جولة نحما النبي على القبائل اليمنية يدعوها للمشاركة في البناء؛ كما يصف عمليات البناء وهندستها إلى أن يقول «لسوف يكون بوسعنا ، ونحن نتبع الأسوار سوراً سوراً وهي تبنى هناك ، أن نعرف على المكان الحقيقي لما يدعى الهيكل؛ وبذلك تكتمل صورة المدينة وتتساقط الأوهام الاستشراقية . ها هنا جبل الهيكل في سراة اليمن وليس في فلسطين» [الريعي: م 2 ، ج 3 ، ص 89] .

يعزو الريعي الخلط في الأماكن على تهجئة مغلوبة للأسماء وافتراسات مبنية على النصوص التوراتية ، وليس على نتائج البحث الأثري ، التي لم تبين قطّ حدوث المعارك على أرض فلسطين . وسبق أن بينت التنقيبات الأثرية في بداياتها أنها تمت بأساليب المسح الجغرافي - تحديد المواقع بناء على إحداثيات متخيلة للنص التوراتي ، شأن أولبرايت . مثال ذلك أن «رفح المدينة التي دار فيها القتال ثم امتد إل قو ، وقرقر ، وحمة - التي تحيلها الغريون مدينة حماة السورية ، هي ذاتها رفح القرية تماما من بيت بوس - أورشليم؛ بينما لا توجد رفح فلسطينية قرب القدس إذا ما سلّمنا جدلاً أن القدس هي أورشليم . بالضدّ من ذلك هناك جبل قدس - قدس إلى الجنوب من تعزّ ، على مقربة بالفعل من رفح هذه» [المرجع السابق: 200]

واستخدم الاستشراقيون بدهاء وجود أسباط إسرائيلية عتيقة حصلت من موسى النبي على حق تملك عربيّ أردم ، وأولوا ذلك الضفة الغربية في فلسطين ، كما هو الحال مع الجولان السوري -

خولان التوراة. «النصّ يورد لفظة الأرديم -الأردم ، ولا يشير إلى أن الاسم يخصّ نهرا، وليس ثمة دليل لغوي أو جغرافي أو ثقافي يدعم التصوّر». [المرجع:213]

### حروب المكابيين

تجتمع أسماء الجليل و يردن وأريحو وغيرها في النصّ التوراتي المتعلّق بحروب المكابيين . نقدم نتفا مختصرة من سردية الباحث للنصّ التوراتي لمعارك المكابيين مع الرومان: نهض المكابيون يقارعون الغزو الروماني المنطلق من مصر في عهد البطالمة واحتلال يروشلیم (أورشليم) . بعد نحو اثنين وثلاثين عاما من بداية الحملة أصبح يهوذا المكابي ملكا على بلاد اليهوديّة ، وذلك عام 166 ق . م . وبدأت منذ ذلك الحين معارك وصدّامات دامية أجبرت القبائل العربيّة العاربة على الهجرة نحو حاضرة الامبراطورية الرومانيّة آنذاك ، بلاد الشام .

أولا ، قارن الباحث العربيّ في التوراة الأسماء الواردة أعلاه مع نصّ الهمذانيّ ، كما قارب ابن العبريّ ، ثانيا ، (المولود عام 1226م وعاصر احتلال هولاءكو لبغداد) عن يهوذا المكابي وبلاد اليهوديّة . (نقل الباحث عنه ما كتب: وولّي أمر اليهود يهوذا المقيبي ، وجمع بين المُلْك والكهنوت ، ونفى نواب أنطيوخوس من أرض يهوذا وصار اليهود يحاربون ملوك الروم) . وثالثا ، قارب نصّ السفر التوراتي مع وصف الجغرافيّ اليوناني بطليموس ، الذي نقل الهمذانيّ شهادته ، ورابعا تحدد المكان الذي أعطى ليهوذا لقبه الذي عرف به (المكابي) فجاءت جميعها تؤكّد الفضاء اليمني للأحداث الواردة في النصّ التوراتي ، كما استخلص الباحث:

«لا وجود في فلسطين لمكان ينسب إليه المكابيّ؛ بينما يمكن العثور في منطقة اليمامة الساحلية على (كاب)، حيث الميم في مستهل الاسم تفيد التعريف كما في مكمس (كمس) ومنوب (نوب) . وقد وصف الهمذاني في كتابه (295 - 296) هذه الأماكن حيث توجد دان -مدان التي ولد فيها يهوذا ، وهو على مقربة من الجليل -الجليل في النصّ العبريّ ، وقرب حدد - حدد التي دارت فيها إحدى أهم المعارك . وعلى مقربة تماما موضع ءنبطة -ءنبطة حيث انتقم يونانان من قبيلة بني يمرء (امرئ) لشقيقه يوحنا المغدور . وهي تقع قرب بيت إيل حيث وقعت معركة أخرى ، بل وقرب حسم - حشم ، الذي استمدّ الحشمونيون منه اسمهم .

يضاف لذلك أن من «الصعب تخيل حدوث المعارك في فلسطين لأن بلاد الشام كلها خضعت للرومان ، لكن اليمن استعصت عليهم ، وطوبوغرافية اليمن تتيح إمكانات الصمود والتصديّ؛ بينما فلسطين لا توجد بها الجبال المنبوعة والأماكن التي يمكن التحصن بها . ( . . ) ولا تتضمن التقسيمات الإدارية لفلسطين أي اسم وارد في النصّ التوراتي . في هذا العصر سجل الرومان بدقة كافية كل ما يتعلق بالتقسيمات الإدارية لفلسطين وبلاد الشام؛ ولم يتركوا أي إشارة ، ولو عابرة ، إلى الأسماء الواردة في السفر التوراتي . [الرابعي: مجلد2، 536]

وفي القرآن الكريم ورد صراع الفرس والرومان ، حيث انطلقت حملات الرومان من بلاد الشام . لم تتوقف الحملات الحربية الرومانية ضد القبائل اليمنية حتى عشية الإسلام ، حيث تركوا للحيشة ، وكيلتهم ، مهمة احتلال اليمن عام 524م . ويأتي الهمداني على ذكر وادي حسيده [الريعي:مجلد2، ج4، 540] ، حيث أقامت جماعة «الحسيديون» ، وهي جماعة متشددة تعاونت مع يهوذه المكابي نسبت إلى الموقع .

ولد يهوذه المكابي ، حسب قول كاتب السفر التوراتي في مكان يدعى مدان لأب كاهن يدعى متنيه بن يوحنين بن سمعان (مثنى بن يوحنا بن سمعان) من قبيلة بني يريب (والياء يستهل بها الاسم فالاسم ريب ، ومنهم الشاعر مالك بن الريب ، وعلى غرارهِ سمي الفارس المشهور عمرو بن معدي يكرب وغدت كرب) . حشد الرومان جيشاً ضخماً لإخماد حركة المكابين ، ودفعوا جيشهم باتجاه بيت صور؛ فاعتصم يهوذه في حصن جبل صهيون . عمل على توسيع ملكه وإخضاع القبائل . اشتبك مع جيش الرومان بقيادة طيموتوس وتمكن من هزيمته ، الأمر الذي شجع القبائل على مناصرته . شنّ حملة على الجليل لطرد اليها الروماني وأوكل لشقيقه سمعان مهمة قيادة القبائل المحاربة بينما اختار السير مع شقيقه الأصغر ، يوناتان نحو جلعاد . عبر منطقة ها يردن بعد ثلاثة أيام من المسير في العربة ، وسمع من القبائل المترحلة في المنطقة أن الرومان استولوا على بصرّة وباصر ومناطق أخرى وأن القبائل الموالية حوصرت أو استسلمت . اضطر يهوذه إلى تغيير خطته الحربية . وتقول الرواية التوراتية إن الرومان فاجأوا المكابي ودارت معركة في بيت بسان انتصر فيها المكابي وصعد إلى حصن صهيون . زحف يهوذه على سراة دنب - سراة جنب وحبرون واجتاز مريشه - مرسه قبل أن يصل إلى أشدود - عشدد ، وكانت إحدى أهم معاركه تلك التي وقعت في كفر سلامة وفي بعروت - برة ، إذ أمكن مطاردة القوات الرومانية حتى حصور - حضور . كما يأتي الهمداني في الصفحة التالية من مجلده على الأماكن الوارد في السفر التوراتي (الريب ، أعماس ، المراء موطن بني يمرؤ)

يخرج الباحث من جماع ما أجراه من مقارنات ومقاربات أنه قد «جرى تليفق تاريخ روماني في فلسطين ، وتمّ حشر جماعات وعصور وأماكن داخل مشهد جغرافي يعج بالتناقضات . . .» [الريعي: مجلد541، 2] .

من ناحية أخرى شهدت فلسطين تقسيمات إدارية يصعب تنظيمها في فترة حرب؛ علاوة على أنه كان حوالي العام 160 ق . م . حاكم روماني على بلاد (مدينة) السمرا ، وكان ولاية عسكريون في المناطق الممتدة حتى وادي حورون ، حيث جرت معارك هزم فيها الرومان وفرّوا باتجاه البحر كما يقول السفر التوراتي ، وحيث اغتيل يوحنا ، شقيق يوناتان . ولا وجود لجبال ووديان قرب مدينة اسدود (أشدد في السفر التوراتي) الفلسطينية قرب البحر ووقعت فيها معارك ، ولا وجود لواد بالاسم في فلسطين على مقربة من البحر . وهذه جميعاً ذكرها الهمداني ضمن فضاء

جغرافي واحد باليمن . أما عمواس (عم أوس) التي تحدّث عنها ياقوت الحمويّ قرب الرملة في فلسطين ، فلا يوجد بقربها بقية الأسماء الواردة في سفر المكابيين و"الرسم العبريّ هو عماس ، وهي سلسلة جبال صغيرة تتجمّع في أسافلها المياه القادمة من قرية السدة ، وعلى مقربة تماما من عزلة أرباب وأدم ، أي بالضبط قرب سائر الأماكن التي يصفها السفر التوراتي" [الريعي: مجلد2، ص 551]

### أور بلدة إبراهيم

ثمّ يفند الباحث الادعاء بقدم إبراهيم من العراق . فهو «من موضع يدعى (بين) قرب جبل شعر . كل هذا سيحيلنا إلى مسألة اور الكسديم في مروية سفر التكوين ، والتي تتحدّث عن مجيء إبراهيم منها . جرى تخيلها أور الكلدانيين في العراق . في الواقع تثير مسألة تحقيق التوراة التي أشرف عليها علماء ومتخصّصون مشهود لهم بالكفاءة ، مشكلات عويصة أمام اليهود المتدبّنين . فإذا كانت كسديم تعني كلدانيين - مع أن هذا مستحيل من الناحية اللغوية الصرف - وهي في الآن ذاته موطن النبي إبراهيم ، فما الذي جاء بهم إلى هذا المكان؟

كلّ المواقع التوراتيّة وبالأسماء ذاتها تؤكّد حقيقة أن تلفيق فلسطين التوراتيّة لا سند له لا في الأدلة اللغوية الاستشراقية ، ولا في الوصف الجغرافي المتخيّل لفلسطين؛ إذ ليس ثمة دمونة ولا صيغر ولا يافع؛ كما لا وجود لمئات الأسماء الأخرى الواردة في التوراة والتي سنقوم بوضعها بين أيدي القراء» . [الريعي:المجلد الثاني - ج4 ، 427].

يتتبع الريعي الأحداث المتعلقة بمدن ومواقع جغرافية تماثل أخرى تقع في الفضاء الفلسطينيّ . يورد النصوص التوراتيّة ويعقد المقارنات مع مؤلف الهمدانيّ والشعر العربيّ القديم للبرهنة على أن المقصود مواقع في الفضاء الجغرافي لليمن ، وليس فلسطين: على الصفحة 57 (الجزء الأول) يورد النص التالي: حسب الرسم العبريّ للاسم (ر . ق . م) فإن الضبط العبريّ الصحيح له هو رقم وليس راقم كما ورد في الطبعة العربيّة من التوراة . إننا لا نعرف موضعاً في فلسطين التاريخيّة قرب عمق وقصص وسيل كتاف والكفيرة . ومع ذلك عملت القراءة الاستشراقية على تلفيق هذا الموقع عبر ضمّه إلى فلسطين خياليّة من اختراعها . بيد أن هذه القراءة التي لم تتقيّد أصلاً بقواعد العمل العلميّ ، وجدت نفسها أمام معضلة غير قابلة للحل؛ إذ ليس ثمة بديل لغوي يمكن استخدامه لتبرير الأجواء التلقيفية ، وما من حلّ آخر سوى إثارة الشكّ حول دقة رسم الاسم . في هذا الإطار فإن الشعر العربيّ القديم قد ترك لنا منذ العصر الجاهليّ وصفاً رائعاً لمنازل قبليّة يسن جرش اليمنيّة ونجران هي منازل قبيلة تميم . قال ذو الرمة (غيلان بن عقبة ، توفي عام 171 هجري في أصفهان ، معجم 923):

على ظهر جرعاء العجوز كأنّها سرية رقم في سراة رقام



وقال أبو صخر الهذلي

لمن الديار تلوح كالوشم بالجابتين فروضة الحزم  
فبرملي قردى بذى عشر فالبيض فالبردان فالرقم

إن جميع المواقع التي تأتي قصيدة الهذليّ على ذكرها هي منازل قبيلة معروفة ذكرها الشعر العربيّ كما ذكرتها التوراة، ومنها وادي بيض - بيص في التوراة (العبرانية القديمة تنطق الصاد وليس الضاد)، ووادي عشر فضلاً عن وادي رقم. وسوف نرى ذلك حين نحلل الأسماء الأخرى في قوائم منازل أسباط اليهود وبعضها بين بلاد تميم ووادي الضمان. «ولكن إذا ما عدنا إلى نصّ يشوع من أجل فحص تحديدات السفر التوراتيّ فسوف نجد موضع رقم هذا قرب الكفيرة والموض - الموصة». أسماء المواقع هذه تتكرر في النصوص المتعلقة بحروب داوود، وغزوة البابليين لأراضي قبيلة حمير اليهوديّة.

وعلى الصفحة 104 من المجلد نفسه يسرد الباحث أسطورة مفارقة إسماعيل لقبيلته وضياع سبط من قبائل اليمن. إن وجود أب أعلى لقبيلة يدعى سُمع - سمع ءيل الأب الأعلى للعرب - ينتسب لقبيلة قحطان الجنوبيّة وليس إلى شجرة أنساب العدنانيّين. ولما كان جبل سمع من الجبال الشهيرة والقديمة في اليمن (سمع عند يشوع) فإن هذا يعني ببساطة أن السبط أخذ اسمه من الجبل أو أعطاه الاسم الذي سيعرف به، على غرار ما فعل سبط ابن يامن حين أخذ أو أعطى اسمه لجبل بن يامن. والمثير للاهتمام أن التوراة تتحدّث عن هجرة هذا السبط شمالاً، أي صوب مكة حسب المرويّات العربيّة الكلاسيكيّة وتنظر إليه باعتباره سبطاً ضائعاً.»

### الكرمل وحبرون

والجهل نفس والتعسف في الصاق خارطة فلسطينيّة لسجلات التوراة يكشف الباحث على الصفحتين 224 و225 من الجزء الثاني (المجلد الأول) التضييل في موضحة جبل الكرمل: «إذا ما سرنا غرباً على خطط يشوع بين هذه المواضع قاصدين جبل الكرمل الفلسطينيّ فهل نجد عم - عد هناك؟ وهل تصادفنا شحر ولبنى، وهل نشاهد وادي مثال؟ وهل نعبر - مثل داوود وادي الملك؟ وإلى أين ستقودنا هذه الطريق إذا ما سلكننا قاصدين جبل الكرمل كما وصفه يشوع؟ حسب هذا الوصف سنكون في بلاد طيّ القديمة، وليس في فلسطين، التي رأينا فيما سبق أنها أقامت في بيجان وامتدّت منازلها إلى جُرش. وجبل الكرمل هذا من جبال طيّ التي اشتهرت بمياهها العذبة. قال زيد الخيل:

فسيري يا عدّي ولا تراعي وحلي بين كرمل فالوجيد

إلى جزع الدواعي ذاك منكم معان فالخمائيل فالصعيد

هنا جبل كرم ل لقبيلة طي حيث تقع حلي بينه وبين جبل الوحيد . يحدّد الهمدانيّ منازل طي في بيجان إلى الجنوب من مأرب؛ وهم عباد الإله (الفلس) ، ومنهم قوم عرفوا بالفلسطين ، الفلس ، الذين توهم المترجمون أنهم الفلسطينيون . وربما يكونون الأصل العربيّ لجماعات الفلاشا التي اكتشفت في الحبشة .

كما ينقل الباحث أقوال محقق الهمدانيّ ، العلامة الأكوغ ، في معرض شرحه لمفردة حُبر الواردة في النص التاريخيّ للهمدانيّ ما يلي: حُبر بلدة مشعّة حولها أنقاض كبيرة مما يدل على أنها كانت واسعة ، وإليها تنسب الثياب الحبرية (المخطّطة) وتقع في أعالي جبل الشوافي . ما تقوله هذه الملاحظة الثمينة هو التالي: إن موضع حبر - حبر والأثري والخرب اليوم - كان مكانا هاما لا لجهة اتساعه ووجوده في أعلى الجبل فحسب؛ إنما كذلك لارتباطه بصناعة الثياب المخطّطة ، أي ما يعرف بثياب البجاد . ان هذا وحده ما يحيلنا ، فوراً ، إلى الروايات الكلاسيكيّة العربيّة التي كانت تربط بين موضع حُبر هذا والملك داوود ، بما يعرف بنسيج داوود أو دروع داوود ، في الشعر العربيّ القديم والمرويات التاريخيّة ، هو هذا النوع من الثياب الشفافة والجميلة ، وليس الدرّوع بمعناها الحربيّ - العسكريّ . لا يتعلّق الأمر هنا بمجرد مصادفة لغويّة أو جغرافيّة؛ بل بحقائق تاريخيّة وأدلة أثريّة؛ إذ أية مصادفة هذه أن يتفق صموئيل والهمداني على تسمية المكان حُبر - حبرون ، وأن يشتهر بصناعة الثياب المخطّطة المرتبطة في قصص العرب وأشعارها بالملك داوود؟ [الريعي: المجلد الأول - ج 2 ، 268] . على أن هذا الموقع ليس مدينة حبرون الواردة في التوراة . فهذه تتموضع في جهة أخرى من ديار حمير .

### حملة نبوخذ نصر

ويكرّس الباحث فصلا كاملا يستقصي أخبار حملة نبوخذ نصر على يهودا وسي عدد من زعمائها - حملة نبوخذ نصر على بني إسرائيل في نجران (المجلد الأول - ج 2 ، 388 - 447) . خط سير الحملة يتطابق مع فضاءات جغرافية تقع في اليمن وليس فلسطين . يدحض في تحريّاته الزعم بأن السبي البابلي حدث في فلسطين . يقول الباحث: ولسوف يكون مثيّر للاهتمام والجدل أكثر من كل هذا أن يبرهن الكتاب على أن حملة نبوخذ نصر لم تتجه إلى فلسطين قط؛ بل إلى السراة اليمنيّة لتأديب القبائل العربيّة البائدة ، ومنها قبيلة بني إسرائيل . وما يدعى بالسبي البابلي - وهو حدث تاريخي لا شك فيه - لم يقع على أرض فلسطين ، كما أوهمنا المؤرّخون؛ إنما وقع في نجران وعدن وصنعاء . كما سيثير القسم الثاني من الكتاب مسألة فتح أريحا على يد يوشع بن نون ، مثلما قصتها التوراة ، ليبرهن أن أريحا هذه ليست سوى أريحا اليمن؛ وأن الوصف الذي يقدّمه محرّرو النصوص التوراتيّة للمدينة لا ينطبق على أريحا التاريخيّة كما عرفها القدماء والمعاصرون ولا بأي صورة من الصور» .

ويواصل القول: كما لا وجود لأيّ مكان من الأماكن الواردة في هذا الوصف قرب أريحا الفلسطينية التي أطلق عليها الاسم المهاجرون من جنوبيّ اليمن ، وأن معركة (العي) التي يتحدّث عنها يشوع لا وجود لها في التاريخ الفلسطيني؛ بل هي معركة دارت في جبال ومرتفعات اليمن . «وإذ صار أمراً مألوفاً في السرديات العربيّة التاريخيّة رؤية حادث السبي البابلي بوصفه الجزء الأهمّ في هذه الحملة الحربيّة فقد جرى امحاء لمعالم المسرح الحقيقيّ الذي جرت فيه الأحداث . ومن المؤلم أن السرديات العربيّة لا تزال حتى اليوم تغرف من خزّان الرواية التوراتيّة - الاستشراقية رؤيتها وفهمها للأحداث ، ومن تصوّراتها للمواضع التي سار نحوها الجيش الآشوري ، ومن دون إمعان النظر في غرائب الأسماء أو انعدام إمكانيّة العثور عليها داخل فلسطين» [الريعي: م 1- ج 2، 393].

جرى استبعاد سفر يهوديت - يهوديّة من قائمة الكتب الدينيّة والقانونيّة المعترف بها من جانب المتدينين . لقد اتسمت معالجات بعض المشتغلين في الكتاب المقدس من المستشرقين وعلماء الآثار ، وبقدر فظّ من الاستخفاف بهذا السفر تحديداً ، لا لسبب إلاّ لأنه يعطي أسماء مواضع الحملة الحربيّة لنبوخذ نصر على نحو لا يتوافق مع القراءة الاستشراقية . أي أن السفر لا يصادق على الدعاية الغربيّة القائلة بأن نبوخذ نصر اتجه نحو فلسطين . وهذا هو المغزى الحقيقيّ لاستبعاد السفر الذي ينظر إليه عادة على أنه من كتب الأبوكرافيا ، مثله مثل الأسفار المتأخّرة الأخرى . كتب سفر اليهوديّة في الأصل باللغة الكنعانيّة القديمة واليونانيّة ، وهو يصوّر على نحو ممتاز المواضع التي سارت إليها جيوش الآشوريين» [الريعي: م 1- ج 2، 396].

عرف القدماء أريحا بوصفه اسم حيّ من العرب واسم مكان معلوم ورد ذكره في الشعر العربيّ القديم بوصفه ميدان معارك بين القبائل العربيّة - اليمنيّة البائدة . لأجل كلّ ذلك سعى الكاتب إلى إعادة تركيب التاريخ التوراتيّ ليبرهن على أن الدعاوى الاستشراقية التوراتيّة السائدة والمنتشرة بكثافة وقوة لا أساس لها - أصلاً - في التوراة ذاتها؛ لأن التوراة لم تذكر اسم فلسطين أو الفلسطينيين ، ولم تأت على ذكرهم بأيّ شكل من الأشكال ( . . ) كلّ ما ورد من أسماء لأماكن ومواضع وشخصيات وأسماء قبائل لا وجود له البتّة في التاريخ الفلسطينيّ . إن الهمدانيّ الذي يعيد الكتاب اكتشافه وتقديمه للقراء المعاصرين ، هو من وصف - قبل مئات السنين من مولد مؤلّف هذا الكتاب - وبدقّة متناهية - كل ما ورد من أسماء أماكن باعتبارها أماكن القبائل العربيّة اليمنيّة التي دان بعضها في وقت من التاريخ بدين اليهوديّة .

ها هنا يستخلص البحث العاني أين توجد المواقع والشخصيات الواردة في التوراة ، الأمر الذي يضع النص في نسق منسجم ويكشف حقيقة من تاريخ الديانة اليهوديّة ومنشئها بين قبائل عربية عملت الثقافة الاستشراقية على تحويرها وخلطها كي تلائم أغراضا استعماريّة .

## صهيون

وفيما يتعلق بالاسم صهيون ، فإن من مفارقات القراءة الاستشراقية للتوراة أن سقوط حصن صهيون يرتبط في التوراة بسقوط أورشليم بيد داوود . ليس في التوراة أية إشارة على أن صهيون جبل في فلسطين؛ إن بيت بوس قرب صنعاء كانت تدعى أورشليم أيضا . والبمئيون والعرب عرفوا ثلاثة مواضع باسم قدس . اثنان منها قرب وادي شليم - وادي سليم ، والثالث جبل شهير إلى الجنوب من تعز يعرف حتى اليوم باسم جبل قدس . وفي معركة احتلال أورشليم سقط حصن صهيون بيد داوود؛ فبادر هذا إلى زيادة تحصينه والدفاع عنه . والاسم الحقيقي للجبل هو صيون والهاء بالوسط تضاف في اللغة العربية البدائية على غرار بريق - بهريق . مهد الاستيلاء على الحصن الطريق للاستيلاء على ربة ، وليس في فلسطين مكان بالاسم على مقربة من صهيون . وبعد احتلال أورشليم البوسية طلب داوود من ملك صور تزويده بأخشاب ونجارين لتحسينها . وامتدادات السور في التوراة تتضمن أماكن لا وجود لها إلا باليمن . «ولكن إذا ما تتبعنا خطى صموئيل والهمذاني ووصفهما المنمق لبيت بوس وحصن صهيون وصور والربة في فضاء جغرافي واحد فإن الرواية ستبدو ، آتذ ، مقبولة ومنطقية تماما .» [الريعي: المجلد الأول ، ج 2 ، ص 326].

ومثال آخر نوره عن القدس . في الفضاء الجغرافي أمثلة متكاملة ومتداخلة على صفحة من تاريخ القبائل العربية في اليمن . «إن وجود مدينة السلام لا يقصد به حصر المكان نفسه في التوراة . فمدينة السلام صفة تطلق على مدن عدة تيمنا بحلول عصر تنعدم فيه الحروب . إن أورشليم ، بلاد اليهودية العتيقة التي اجتاحتها نبوخذ نصر كانت مع ذلك مكانا بعينه . في هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى أن قدس وأورشليم ووادي شليم على التوالي ، بوصفها أماكن بعينها قصدتها الوفود (أرسلها ملك بابل لتنذر القبائل المتمردة ، قبل أن يحرك جيشه للغزو)؛ ثم اتجه الجيش الآشوري لتدميرها ( . . . ) . و قدس غير بعيدة عن وادي عنة - بيت عنوت في سلسلة جبال السريح اليمينية إلى الجنوب - اليوم - من مدينة تعز ( . . . ) يقع وادي عنة على مقربة من زبيد (وهي ليست الزبداني السوري) ، وفيه تصب مياه حوالي خمسين واديا مجاورا لتجتمع أخيرا في سيل يصب في البحر الأحمر . وهذا سرّ ازدهاره كمملكة يمنية قديمة وسرّ خصوبة أرضه ، ونشاط قبائله . . . . وعلى غير بعيد من هذا المخلاف تقع صيدا اليمينية ، وهي بلد ساحلي تماما كما وصفته التوراة . ولذلك يبدو مفهوما قول كاتب السفر إن سكان صيدا على الساحل ارتعدوا وهم يسمعون أخبار الحملة الحربية؛ إذ لا توجد صيدا ساحلية في فلسطين . والسائر في وادي عنة من زبيد على الساحل متوجها صوب صنعاء سوف يصل إلى بيت بوس - بيت بوس في حروب داوود ومنازل يهوذا ، والتي تصفها التوراة بأنها أورشليم وليس قدس . بل إن السائر في هذه الوديان متبعا خطا الهمذاني ويشوع و صموئيل وكاتب السفر المجهول سوف يصل إلى وادي العرب - ها عربه وريمه - رمه ، قبل أن يعطف باتجاه بلدة صيدا مارا بالمملكة اليمينية القديمة ، مخلاف حضور - حضور . هذه الخريطة المثيرة لا يمكن ممانلتها مع الخريطة الفلسطينية [الريعي: المجلد الأول - ج 2 ، 418].

«إن جبل القدس ، هذا الذي تخيّلته القراءة الاستشراقية على أنه مدينة القدس في فلسطين ، لا يحمل من عناصر التماثل معها سوى التطابق الشكلي في الاسم . أما وصف المكان ، كما في نصّ يشوع ، فإنّه يتناقض كليّة مع منطوق النصوص التوراتية؛ لأنّ قدس التوراة ، وإن كانت تقع قرب وادي وجبل حضور (بينما تقع القدس الفلسطينية قرب تلّ صغير يدعى حاصور) فإنّها ليست قرب جبال شمير بكلّ تأكيد . إن الالتزام بتحديدات القراءة الاستشراقية للمواقع المتخيّلة في فلسطين يقود إلى الفوضى إذا ما جرى التقيّد بها على أنها تحديدات جغرافية صارمة في فلسطين الحقيقية . وبالعكس تقودنا تحديدات يشوع والهمدانيّ والشعر الجاهليّ إلى الأماكن نفسها في أرض اليمن دون عناء أو تكلفة .» [الريعي: م 2، ج 4، 435]

### قبر راحيل

دحض الباحث [الريعي: م 1- ج 2، 456] خرافة وجود قبر راحيل قرب بيت لحم الفلسطينية، ويورد: «جرى مسح شاوول على إسرائيل ملكاً قرب قبر راحيل؛ هذا ما تقوله التوراة . وهذا يعني أن قبر راحيل المزعوم في فلسطين ليس سوى خرافة . تقول الرواية التوراتية إن «صموئيل استدعى شاوول وصبّ قارورة الزيت على رأسه عند مدفن راحيل في حدود بن يامن ، في صلح . يقول التوراتيون لا يعرف معنى الكلمة ، صلح؛ أما الحدود فهي بن يامن وأفرائيم ( . . ) إنه التقليد القديم عن قبر راحيل الذي حدّد مكانه بالقرب من بيت لحم حيث يرى إلى هذا اليوم التلقيح الاستشراقيّ . إذن لا يعرف كلمة صلح ولكنه يستطيع الجزم بأنها موضع يقع في حدود بن يامن . هذا يعني أن القراءة المخيالية للتوراة استندت إلى مطابقة عشوائية بين أسماء مواضع في فلسطين لا سياق لها في التوصيف الجغرافي ، وبين أسماء وردت في التوراة . في الواقع توجد صلح على مقربة من جبل يامن ، ولكن الهمدانيّ يضبطها وفقاً لشكل نطقها في عصره في صورة قرية الشبه صلح . وهذا الموقع غير بعيد عن جبل حمر في سلسلة جبال السرو قرب نجران [الريعي: م 1، ج 2، 456 - 457]

### إلى فلسطين من اليمن

تعرّف العرب قبل الإسلام على بقايا مملكة مزدهرة دان سكانها بدين اليهودية على ساحل البحر الأحمر ، وأن هذه المملكة هي التي أرسل الرسول محمد إلى بقايا سلالتها الحاكمة في اليمامة . ما يقوله الاقتباس من الهمدانيّ وبطليموس (التصورات الفلكية - الجغرافية) ببساطة أن بلاد اليهودية العتيقة هي جزء من الجزيرة العربية ، ولها مكان بعينه في فضاء جغرافيّ محدّد لا صلة له بفلسطين . ولذلك فإن الخطأ الشائع الذي يروّج له الاستشراقيون ، والقائل إن فلسطين عرفت باسم إيليا - إيلياء هو خطأ قابل لأن يندرج بسهولة في سياق التضليل [الريعي: م 1- ج 2، 408] .

بدأت الهجرة إلى فلسطين من اليمن قبل العام 200 ق. م؛ وتفيد الدراسات التاريخية أن حاكم اليهودية هيرودوس كان إيدومياً عربياً متهوداً، تزوج من ابنة أحد ملوكهم وبنى معبداً، هو المسمى «هيكلاً»، في مدينة القدس لإرضاء كهنة البلاد المسيطرين على مختلف الطوائف «الموحدة»، وعلى مر التاريخ ارتأى الحكام أن مما يقرب السكان منهم تشييد أفخم المباني الدينية. «والوثائق المكتشفة عن طريق التنقيبات الأثرية تغطي حقب حياة الكنعانيين ولا تشير إلى مملكة داوود وسليمان. ورد أول ذكر لليهود أنهم بدو رحل يتعاطون إلى جانب الرعي بالتجارة في تاريخ مدون على ألواح تل العمارنة [د. عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية- عالم المعرفة، 13].

وذكر المؤرخ سترابو أن العرب سكنوا الأجزاء الغربية من فلسطين قروناً قبل الميلاد. وكانت البادية شرقي الأردن، التي لجأ إليها المسيحيون الأوائل في عصر الاضطهاد الأول، نبطية عربية تمتد من الفرات إلى البحر الأحمر. وكذلك كانت مملكة دمشق التي مر بها الرسول بولس عربيّة صريحة. وكانت مملكة حمص عربيّة، ومملكة مدينة الرستن أيضاً. بل إن المؤرخ الروماني بلينيوس أدخل الرّها (في تركيا اليوم) في جملة أراضي العرب، منذ القرن الثاني قبل الميلاد. وينسب المؤرخ ابن العبري إلى ملك الرّها العربيّ الأبحر، أنه راسل السيد المسيح.

ويقول جون سينسر ترمينغهام، المؤرخ البريطاني في كتابه «المسيحية بين العرب في العصور السابقة للإسلام»، إن الجموع التي كانت تحتشد حول السيد المسيح وهو يبشر كانوا عرباً، وإن أول المهتدين خارج نطاق الرسل الأوائل كانوا عرباً كذلك. «قبل الإصلاح اعتبرت فلسطين الوطن المقدس الذي أورثه المسيح لأبناء المسيحية، ولم تكن القدس توصف بأنها صهيون اليهودية، بل مدينة العهد الجديد المقدسة» [ريجينيا الشريف: 21 الصهيونية غير اليهودية - ترجمة أحمد عبدالله عبد العزيز / عالم المعرفة عدد 96 / 21، 1985]

في مقالة كتبها إبراهيم بولاك، وهو صهيونيّ، مؤسس قسم تاريخ الشرق الأوسط بجامعة تل أبيب، لم يورد أن جميع الفلسطينيين هم الأحفاد المباشرون أو الوحيديون لـ «اليهودانيين». أدرك أنه على مدار مئات وآلاف السنين لم تكن هناك تقريباً مجموعة سكانية في العالم، خاصة في ممرّ ضيق كالبقعة بين نهر الأردن والبحر المتوسط، إلا واندمجت مع جيرانها، مع محتليها أو الخاضعين لاحتلالها. أتى على المنطقة في مراحل تاريخية مختلفة يونانيون وفرس وعرب ومصريون وصلبيون، وجميع هؤلاء اندمجوا أو ذابوا دائماً في السكان المحليين. غير أن بولاك افترض أن احتمال تأسلم اليهودانيين كبير للغاية. وبالتالي كان هناك تواصل ديمغرافي في الوجود المستمر والطويل لـ «فلاحى البلاد» منذ الزمن القديم وحتى الآن... كل ما لم ترغب فيه كتب التاريخ للصهيونية حذف ببساطة. ومن هنا لم تهبّ أي هيئة بحثية ولا جامعة إسرائيلية لمساعدة بولاك [بروفيسور شلومو ساند: 238]

يذكر الربيعي أن المؤرخ هيرودوس، الذي جال في المنطقة في القرن الخامس قبل الميلاد،

وكتب ملاحظاته، لم يسمع، ومن ثم لم يسجل كلمات تشير إلى أي من «أورشليم»، «يهوذا»، «إسرائيل» «السامرة» أو هدم «الهيكل» ولا «السي». وتفيد الوثائق القديمة أن اسم فلسطين ورد ذكره في الكتابات اليونانية والرومانية القديمة.

ويؤكد البروفيسور وايتلام أن إسرائيل لم تكن سوى لحظة عابرة في مسيرة التاريخ الحضاري لفلسطين القديمة؛ وعلى النقيض من هذه الحقيقة فإن نظرة سريعة في النشرات الإعلامية الصادرة عن أقسام الآثار في أميركا وأوروبا وإسرائيل وكتيبات هذه المؤسسات تدخل في إطار دراسة التوراة العبرية من وجهتي النظر اليهودية والمسيحية. والشيء ذاته ينطبق على الجامعات «العلمانية»، التي تحتوي على أقسام للدراسات الدينية (بدلاً من كليات اللاهوت).

تضمن وثيقة تعود للعام 853 ق. م خير قيام تحالف بين ملك يهودا، إهاب، وملوك سوريا وفلسطين ضد ملك آشور. وصيغة العبارة تفشي تباينا بين فلسطين وسوريا ومملكة يهودا. احتفظ الآشوريون بوثيقة عن المعركة التي جرت في كر كر بسوريا، أجلت زحف الآشوريين، دون أن تهزمهم. لم تختلف مملكتنا يهودا والسامرة ثقافياً عن بقية الممالك في المنطقة؛ كما تشير الموجودات الأثرية إلى أن الناس قدموا أضحيات لآلهة أخرى غير يهوه. كانت القدس بلدة صغيرة، هي أفقر وأصغر مما صورتها التوراة. لم تظهر قط كلمة يهودي، وحيثما ظهرت كانت تعني سكان يهودا، المنطقة المحيطة بالقدس، لكن أي قدس، وفي أي فضاء جغرافي؟

ينفي البروفيسور وايتلام اعتبار تاريخ فلسطين خلال خمسة قرون (القرن الثالث ق. م حتى القرن الثاني الميلادي) خلفية لتاريخ إسرائيل ويهودا، أو فترة الهيكل الثاني [وايتلام: 25]. ويمكن أن نجد الحل لهذه الإشكالية في تقديرات الباحثين في التاريخ القديم للشرق الأوسط إذا ما وضعنا في الحسبان أن اليهود في فلسطين ظلوا منذ أن وطأت أقدامهم أرض فلسطين في زمن أبكر قليلاً من هذا الزمن كانوا قبائل عربية هاجرت من الجزيرة العربية بعد تدمير مراكزها في جنوبي اليمن وحملت معها التوراة نصاً شفاهياً. وهناك القبر المكتشف قرب حيفا، العام 1936، وعليه ما يشير إلى طائفة يهودية من حمير. وهناك ما يشير إلى وجود قبائل سامية قدمت من الجزيرة العربية أطلق عليها اسم قبائل عربية، ولا وجود، بالمقابل، لقبائل هاجرت من فلسطين على اليمن.

## ومتخيل النفي

قضيتان رئيستان ركز عليهما الأدب التوراتي وتوجهان الدراسات التوراتية وفق أهداف الصهيونية؛ والقضيتان تستوحيان حاجات الصراع الدائر في العصر الحديث من أجل الهيمنة والسيطرة: القضية الأولى تكريس الوحدة القومية للشعب الضاربة جذوره في التاريخ حتى العصر البرونزي المتأخر؛ والثانية ان هذا الشعب أكره على النزوح من أرضه. والقضيتان تولى دحضهما المؤرخ البروفيسور شلومو ساند. يثبت الباحث أولاً أنه لم تحدث هجرة جماعية لليهود من

فلسطين . فبعد انهيار تمرّد بار كوخفا ، العام 132م نقل المؤرّخ في العصر القديم عن كاسيوس خبير إعدامات وتدمير مبالغ فيهما ، دون أن يذكر عمليّة نفي . لم تحدث عمليّة نفي جماعيّة لليهودائيين (سكان منطقة يهودا) عام 135م . وبعد سحق التمرد حدث نهوض اقتصادي وثقافي في فلسطين . وبعد ستين عاما حدث تمرّد آخر تمّ إخماده؛ كما حدثت ثورة في شمالي فلسطين في القرن السابع الميلادي .

المنفى يناقش قيام ثورة كبرى بعد حوالي ستين عاما من خراب الهيكل من جانب نفس الجماعة اليهودائية التي قامت بالتمرّد الأول . والمدّش أنه لم يكتب عن حدث (النفي) حتى الآن ولو بحث شامل وجذريّ واحد [ساند: 193] . في ذلك الزمن شكل اليهودائيون والسامريّون الأغلبية العظمى لسكان المنطقة . وهم كما سبق وقيل من أصل عربيّ؛ وكانت اليهوديّة هي الديانة التوحيدية الوحيدة . وازدهرت أوضاع الفلاحين بعد إخماد الثورة . وحدثت نهضة ثقافيّة واكبت التطوّر الاقتصاديّ . وفي سنة 220 ميلادية انتهت عمليّة جمع ، تحرير وختم فصول الميشناه الستة . وهو حدث أكثر أهميّة من تمرّد بار كوخفا من حيث تطوّر الهوية والعقيدة اليهوديّة من ناحية تاريخيّة . [ساند: 182] .

أثبت حايم ميلكوفسكي ، الباحث في جامعة بار إيلان ، بناء على شهادات عدد من «الثنائيم» (الفقهاء) أن مصطلح جلوت (منفى) وصف في القرن الثاني والثالث للميلاد عمليّة استبعاد سياسيّة وليس عمليّة اقتلاع من البلاد . أما يعقوب يوفال ، المؤرّخ من الجامعة العبريّة ، فقد سعى لإثبات أن ميشة النفي صمّمت عمليا في فترة متأخرة نسبيا ، وذلك ردّا على الميثولوجيا المسيحيّة التي تحدثت عن نفي اليهود قصاصا من الربّ على صلب المسيح . وفي القرن الرابع الميلادي أخذت الخرافة تنضفر في الديانة اليهوديّة . لاحقا تحوّلت خرافة النفي في الكبلاه إلى السمة المركزيّة للألهيّة ، فالوجود الإلهي ذاته متواجد في النفي المتواصل .

تحوّلت منطقة فلسطين إلى منطقة تحت الحماية المسيحيّة عام 324 ميلادية . عقب ذلك تنصّر قسم كبير من سكان أورشليم ، وتأسست فيها الطائفة اليهوديّة الأولى من يهودائيين محليين منذ القرن الميلادي الأول . وتحولت قيسارية إلى مركز مسيحيّ رئيس . وبحسب قائمة المشاركين في مؤتمر الكنسس الأول في نيقيا سنة 325م يستدلّ أن أتباع المسيح ازدهروا أيضا . لم تتعرّض فلسطين لاجتياح موجات مهاجرين من صحارى الجزيرة العربيّة ليقوموا بطرد السكان المحليين . كذلك لم تؤدّ سياسة من قبل المحتلين إلى نفي أو طرد جماعيّ لعمال الأرض اليهودائيين . سواء ممن آمن بيهوه أو الآخرين الذين أخذوا يضيفون إلى يهوه يسوع المسيح او يسوع الرب [شلومو ساند: 234] .

أول من ألقى تبعة النفي على الفتح الإسلاميّ في القرن السابع الميلادي هو المؤرّخ الإسرائيليّ بن تسيون دينور . عين وزيراً للتعليم في حكومة بن غوريون . التهمة لا تخرج عن اختلاق فرية تبرّر



الممارسات الراهنة، وبالذات التحضير لتهجير العرب الفلسطينيين. ينقل المؤرخ ساند عن دينور قوله: «طبقاً لما ذهب إليه المؤرخان الإسرائيليان باعر ودينور فإن قدوم العرب هو الذي أدى إلى الهزّة الديمغرافية التي اقتلعت الكثير من اليهودانيين وحوّلت بلدهم إلى موطن الغرباء. بدلت البلاد أسيادها بسبب تسلل أبناء الصحراء المستمر إلى البلاد، وبسبب اندماجهم في مجموعة واحدة مع العناصر الأجنبية (السوريين والآراميين) وبسبب رهن الزراعة للمحتلين الجدد ومصادرة أراضي اليهود لحسابهم [ساند: 233].»

يستشهد البروفيسور ساند بوثيقة إسرائيل ولكنكند المشار إليها في بداية هذا الفصل، وفيها يؤكّد أن معظم الشعب ظلّ موجوداً لفترة طويلة أخرى على أرضه، بينما الذين غادروا هم الطبقات العليا والحاخامات وعلماء التوراة، الذين فضلوا الدين على البلاد. لكن الفلاحين ظلّوا مشدودين إلى أرضهم [ساند: 239].

ثم إنّ الزعيم اليساريّ بار بورخوف، المعارض الصلب للتوجّه الصهيونيّ اليمينيّ، قارب نفس التوجّه، فقال: إن السكان المحليين هم قرييون من اليهود حسب المكوّن العرقيّ أكثر من أيّ شعب آخر. وقد ظهر أن الفرق العرقيّ بين يهود المنفى وبين الفلاحين المقيمين على الأرض ليس كبيراً أكثر من الفرق بين اليهود الأشكيناز واليهود السفارديين.

يمضي البروفيسور ساند في مرافعته الكاشفة لدخائل "الأقانيم السرية" في الفكر الصهيونيّ فيقدّم رأياً نسهه إلى بن غوريون في فترة شبابه. وهو رأي يخالف ما ذكره المؤرخون لسيرة حياة الزعيم الصهيونيّ من أنه منذ نزل ميناء يافا اعتراه شعور القرف من العرب. نقل الباحث ما كتبه بن غوريون في مؤلّف يقال إنه وضعه بالتعاون مع بن تسفي أثناء وجودهما في نيويورك، ونشر الكتاب في نيويورك - حسب قول ساند - وكان عضواً بحركة بوغالي تسيون شاباً متحمّساً مع يتسحق بن تسفي "تعاطفاً مع الظروف العلمانيّة لبورخوف وبيلكند". [ساند: 240].

ورد في كتاب بن غوريون وبن تسفي "أن حدودها (فلسطين) امتدّت من العريش جنوباً وصور شمالاً وتشمل شرقيّ الأردن. وفي الكتاب يقول بن غوريون في فصل عن السكان إنهم "ليسوا من المحتلين العرب الذين سيطروا على أرض إسرائيل وسوريا في القرن السابع. المنتصرون العرب لم يبيدوا السكان الزراعيّين الذين وجدوهم في البلاد؛ كذلك لم يعبأ العرب بالاستيطان ولم يزاولوا في أماكن إقامتهم السابقة العمل في الأرض [ساند: 241]. عبّر الكاتبان عن اعتقاد بأنّ الدين الإسلاميّ، خلافاً للمسيحيّة، ديمقراطيّ، لم ير في جميع المتأسلمين إخوة فحسب، بل ألغى جميع القيود السياسيّة والمدنيّة، وسعى إلى محو الفوارق الاجتماعيّة. وأكد المؤلّفان أن منظومة المصطلحات التناخيّة لأرض إسرائيل ما زالت حيّة كما كانت على أفواه الفلاحين. وتحمل 210 بلدات أسماء عبرية واضحة [ساند: 242].»

ثم تكسرت مجاديف الاندماج مع السكان المحليين إثر ثورة البراق والثورة الفلسطينية في منتصف الثلاثينات من القرن الماضي، كما أورد ساند، أغرقت أنشودة الحياة المشتركة لليهود والعرب في مستنقع الصراعات بعد أن انتقل بن غوريون إلى الموقف النقيض.

يفسر ساند فرية المؤرخ دينور بأنها تأسيس لخرافة الوعد الإلهي ولارتباط اليهود بـ «أرض الميعاد». «الحقيقة راوغ المؤرخ الإسرائيلي دينور كثيراً، إذ توجس من أن النفي الطوعي يضعف الحق في المطالبة بالوطن» [ساند: 189-190]

كان أحد عوامل قوة الجيش الإسلامي يكمن في موقفه اللبيراليّ إزاء عقائد الخاضعين لاحتلاله. وقد أمر النبي محمد بمعاملة اليهود والمسيحيين كأهل كتاب. لا غرابة في أن اليهود، وإزاء الملاحظات القاسية التي تعرضوا لها تحت حكم البيزنطيين، استقبلوا المسلمين بترحاب وحتى بحماس. وهناك شهادات يهودية وإسلامية تؤكد المساعدة التي قدمها اليهود للجيش العربي المنتصر [ساند: 235].

يرى بعض المؤرخين أن الفتح الإسلامي كان مشتركاً ساهم فيه اليهودائيون النازحون من اضطهادات المسيحيين. «قد يكون الوصف المثاليّ للاحتلال المشترك مبالغاً فيه؛ لكن مصادر أخرى تشهد على أن أعداداً من اللاجئين اليهودائيين الذين هربوا سابقاً من اضطهادات البيزنطيين عادوا مع الجيش المنتصر. كذلك فإن سياسة الضرائب التي اتبعتها الحكام الجدد كانت فريدة من نوعها. جرى استقطاب أعداد كبيرة للدخول في الإسلام، حيث المسلم لا يدفع الجزية [ساند: 236]

كان لاشتغال اليهود بالتجارة دور في الهجرة الطوعية إلى الخارج. يركز الدين اليهودي على الدنيا ولا يشجع على الزهد ولا يعير اهتماماً بالآخرة؛ والدارس للتلמוד يجد أنه يمنح التجارة مركزاً سامياً بين المهن ويعتبر الإقراض «هبة من الله» [المسيري: 17]. وقد تهوّد ملك الخزر عندما أرادت قبيلته الاشتغال بالتجارة [المسيري: 17].

استطاع اليهود في العصر الوسيط أن يشكّلوا صلة وصل بين الممالك الإسلامية والممالك المسيحية. والتجارة الدولية نشاط تخصص فيه اليهود وكادوا يحتكرونها حتى القرن الحادي عشر؛ وعملوا بصفقتهم تجاراً صلة وصل بين الممالك المسيحية والممالك الإسلامية [المسيري: 13]. وجدت جماعات تجارية يهودية في مدينة الاسكندرية وروما وفي كثير من أنحاء أوروبا. وتزايدت أهمية اليهود في التجارة بعد أن حرّم مجلس القانون الروماني على الشيوخ وأبنائهم استثمار أموالهم في التجارة. ولغة البيديش لغة تجارية، [المسيري: 15]. ومن جهة ثانية حرّم مؤتمر لا تورن الثالث تعاطي الربا وانفرد اليهود بمزاولته. وأوجب نظام الإقطاع على الإقطاعي أداء قسم الولاء المسيحي، فتعدّر بذلك على اليهودي الارتقاء في سلم المراتب الاجتماعية العليا في العصر الوسيط. وحرّم على اليهود استئجار أرقاء مسيحيين، فغدت

الملكيّة الزراعيّة غير مثمرة بالنسبة لليهوديّ . [المسيري: 16] وأثناء وجودهم في بابل تهيأ مناخ للاشتغال بالتجارة؛ وجد اليهود عند البابليين علاقات اقتصاديّة متطوّرة للغاية أكسبتهم بسرعة خبرات هذه المهنة . [المسيري: 14]

الواقع أنه عاشت في بابل منذ القرن السادس قبل الميلاد جالية يهوديّة لم تسع قط للعودة إلى الديار المقدّسة حتى حين قامت فيها مملكة الحشمونثيم القويّة . وبعد تفكك مركز الثقافة اليهوديّة في بابل هاجر اليهود إلى بغداد وليس إلى أورشليم ، على الرغم من أن المدينتين خضعتا لنظام الخليفة ذاته [ساند: 185] .

حدث أن صرّح كورش بعودة اليهود من المنفى ، ولم يعد سوى قسم بسيط من المنفيين وذراريهم؛ وآثر الباقون البقاء والعيش والازدهار في مركز الثقافة الزاخرة بالحياة في الشرق المزدهر حيث طوّرت النخب الثقافيّة هناك تقاليد دينيّة غنيّة ستنشر في أرجاء العالم القديم . تأسست هناك مؤسسة الكنيس اليهوديّة ، كما أن التلمود البابليّ الذي انبثق عنها كان يحظى بتقدير واحترام أكبر من التلمود الأورشليمي . والسبب أنه أنشئ في مجال ثقافيّ أرقى [ساند ، نفس المصدر ، 194] .

إن تجربة اليهود في ظلّ الدولة الإسلاميّة طوال قرون العصر الوسيط تختلف عن تجربتهم المريرة مع الدول المسيحيّة . ولحق الاضطهاد باليهود أثناء حملات الحروب الصليبيّة؛ حتى المسيحيّون لحقت بهم مذابح صليبيين . مثلما شاركو المسلمون اضطهادات ما بعد انهيار الحكم العربيّ في الأندلس .

هاجر بعض يهود الأندلس (السفاريين) إلى الأقطار الإسلاميّة فاحتضنتهم وأتاحت لهم فرص الازدهار الثقافيّ؛ وبقي فريق انطوى على عقيدته سرّاً طوال قرون ، تجاوزوا خلالها محاكم التفتيش وصنوف الملاحقات إلى أن كشفت عن نفسها طائفة سيفارديّة على السواحل الشرقية والجنوبيّة من فرنسا متطوّرة اقتصاديًّا وثقافيًّا تنظر بسخرية إلى طائفة اليهود الأشكيناك الوافدة من شرقيّ أوروبا . في كل بلد من منطقة الشرق الأوسط استقرّ يهود عرب اندمجوا في بيئاتهم وحفظوا تراثهم .

بقيت الطوائف اليهوديّة ، حيثما استقرّت في الأقطار العربيّة والإسلامية جزءاً من قوميات المنطقة ، خاصة العربيّة والفارسيّة والتركيّة . في المغرب أقامت إحدى قبائل البربر دولة يهوديّة تصدّت ملكتها للفتح الإسلامي وأوقفت زحفه لمد خمس سنوات ، استجمع الفاتحون القوى وأعادوا الكرّة؛ دارت معركة حامية قتلت فيها ملكة البربر . تولّى أبنائها التصالح مع الفاتحين الجدد . ومن الوسط البربريّ انطلق طارق بن زياد يفتح الأندلس؛ ولا شك أن من بين جنوده كان أبناء البربر من معتنقي اليهوديّة . ومن هؤلاء تطوّرت بيئة ثقافيّة يهوديّة تفاعلت مع البيئة الإسلاميّة ، اغنت وأغنت .

## تنوع الأصول العرقية لليهود

تجربة قبيلة الخزر ودولتها جاءت أقوى من أن تطمسها أساليب الحظر. كانت أكبر دولة لشعب يدين بالديانة اليهودية. نشأت في القرن التاسع الميلاديّ جنوبيّ روسيا، شرقيّ منطقة القفقاس، حيث سكنت قبائل الخزر. تناقل أخبارها رابنة اليهود عبر قرون عدة؛ ولما تشكلت الحركة الصهيونية انتابتها الرعدة من مجرد ذكر الاسم فأمرت بشطبها من صفحات التاريخ. وإذا كان محو الماضي فيما يتعلق بالحميريين والبربر من الوعي العام الواسع كان محو تاما تقريبا، فإن صنع صفحات بيضاء من النوع «غير المرغوب فيه» فيما يتعلق بالخزر كان أمرا أكثر إشكالية وتعقيدا [ساند: 279].

وقبل الخزر احتضنت اليمن الديانة اليهودية وتشكلت في مرحلة تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد دولة حمير اليهودية. كان ذو نواس آخر ملوك اليهود باليمن. «اليهوديّ الحميريّ الأخير» (..). تم العثور على شهادات وافرة حول قوة وجبروت الملك اليهوديّ، وكذلك حول قسوته وملاحقته البشعة للمؤمنين المسيحيين. وهناك أيضا مصادر عربية كثيرة تؤكد هذه الروايات، وإن كان ذلك بحماس أقل عداء لليهود» [ساند: 259]

يذكر البروفيسور ساند كتابين صدرا عن يهود اليمن، مؤلف يسرائيل بن زئيف (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية و صدر الإسلام) في نهاية عشرينات القرن الماضي، ثم وسعه عام 1957؛ أما الثاني فقد تعمق في تناول الممالك الحميرية وألفه زئيف هير شبرغ، وهو مشبع بالشعور القوميّ وبه مبالغت. غير أن تاريخ هذه المجموعة ظل مهملًا ومغيبًا، نظرا لأنه يكذب دعاية العرق اليهوديّ الواحد الضارب في جذر التاريخ. «ظلت الفترة المتعلقة بالحميريين المتهودين مهملة وبتيممة على هامش الطريق الهستوريوغرافي لجهاز التعليم في إسرائيل، والذي لا يعرف خريجو المرحلة الثانوية شيئا عن وجود هذه الفترة في التاريخ» [ساند: 263]. هذا على الرغم من اكتشاف مخطوطة تحمل كتابات توحيدية في قرية بيت الأشوال بفلسطين مع أسماء يهود حميريين.

والمجموعة الثانية عاشت وشكلت دولها اليهودية في شمال إفريقيا. «أين اختفى البونيون، أي الفينيقيون الأفارقة، الذين سكنت أعداد كبيرة منهم على امتداد شواطئ البحر؟ هناك عدد من الباحثين، على رأسهم المؤرخ الفرنسي مرسيل سيمون، طرحوا في السابق تقديرا مفاده أن جزءا كبيرا منهم تحوّل إلى اليهودية. واكتشفت قبور ليهود يحملون أسماء يونانية أو لاتينية وكنيس في تونس.» يمكن الافتراض أن المؤرخ ابن خلدون قدّر أن جزءاً من البرابرة على الأقل سكان شمال إفريقيا القدماء يعود أصلهم إلى الفينقيين القدماء أو من قبائل كنعانية أخرى قدمت من أرجاء سورية واعتقت اليهودية (في مكان آخر يأتي بقصة تتحدث عن الأصل الحميريّ لجزء من البرابرة. . . يعود ابن خلدون في أماكن أخرى إلى رواية مقاومة الاحتلال الإسلاميّ التي ترعمتها ملكة جبال الأوراس، داهية الكاهنة.» [ساند: 267] صدّت الزعيمة البربرية الحملة

الأولى؛ لكنّها قتلت وهزم جيشها في مقاومة شرسة خاضها ضدّ الوافدين ، العام 693م . اعتنق أنباؤها الإسلام وتعايشوا مع الحكم الإسلامي . نقل البروفيسور ساند عن مؤرّخين عرب تحدثوا عن الملكة البربرية ومقاومتها منهم الواقديّ والبلاذري . . . إلى أن يقول [ساند:275] «إن طارق بن زياد والحاكم المسلم الأول في شبه الجزيرة الإيبيرية ، كان بربرياً؛ وقد وصل إسبانيا ومعه سبعة آلاف مقاتل ، وسرعان ما ازداد تعداد جيشه ليصل إلى خمسة وعشرين ألفاً وذلك في إثر انضمام سكان محلين إليه . وبحسب ما رواه دينور فقد كان عدد اليهود كبيراً بين هؤلاء . واضطرّ المؤرّخ الصهيونيّ ، معتمداً في استنتاجه على باحثين إسبان ، إلى الاعتراف على مضض بأنه كان ثمة بينهم أيضاً من ادعوا أن جميع البربر الذين شاركوا في فتوحات العرب في أسبانيا كانوا من المتهودين' .» . والمؤرّخ دينور عمل في سرية الآثاريين المحيطين بين غوريون لدى تأسيس الدولة . وقد رفض بن غوريون الاعتراف بحقيقة «التهويد» أو بوجود يهود غير إسرائيليين .

بقيت تجارب الدول اليهودية أقانيم سرية يحظر البحث فيها أو حتى تداول الحديث بشأنها . وعلى الرغم من عدم وجود لاهوتيين يمدحونها ويخلدونها (يقصد مملكة الخزر) كمؤلفي التناخ، إلا أنه توجد حول تاريخها مصادر خارجية أكثر تنوعاً وغنى من تلك التي توفرت حول مملكة داوود وسليمان . في الواقع كانت مملكة الخزر أوسع بما لا يقاس مقارنة مع أي مملكة أخرى قامت في أرض يهودا . [ساند: 277]

في منتصف القرن العاشر الميلادي ، العصر الذهبي اليهودي في إسبانيا ، أرسل حسداي بن شبروط (915-975) وهو طبيب وسياسي ذو شأن عمل في ديوان الخليفة عبد الرحمن الثالث في قرطبة ، رسالة إلى يوسف بن أهرون ملك الخزر ، بعد ما انتشر نبأ قيام امبراطورية يهودية قوية على الحدود الشرقية لأوروبا ، حيث ازداد الفضول والتفاخر لدى النخب اليهودية في أوروبا . وردّ ملك الخزر على الرسالة ، وتعدّدت نسخ الرسالة الجوابية . فصلّ الملك بأسلوب قصصيّ ممتع عملية تهويد الخزرين وعدّد أسباب تفضيل يهودية آباءه على الديانتين التوحيديتين الآخرين [ساند: 276] .

اقتنع الحاخام يهودا البرشلونيّ بوجود الرسالتين المتبادلتين . ومن المؤكّد أن الحاخام يهودا اللاوي في القرن الثاني عشر كان مطلعاً على الرسالتين . وكتب الحاخام أبراهام بن دافيد أحد مؤسسي الكبله في بروفانس ، والذي يصغر يهودا اللاوي بعشرين سنة ، « كانت هناك شعوب خزرية تهوّدت وأن ملكهم يوسف بعث برسالة إلى الحاخام حسداي بن شبروط أخبره أنه وشعبه على دين الحاخامية [ساند: 278] .

تساءل المؤرّخ اليهوديّ ، دوفنوف في عام 1892 في أحد مؤلفاته المبكرة من أين جاء اليهود إلى روسيا وبولندا لأول مرة - من بلاد الغرب أم من بلاد الخزر والقرم؟ [ساند:308] . وهذا السؤال اعتبر من المحرّمات؛ غير ان التجربة وذيلها وبقاياها اقتحمت كتب المؤرّخين .

لم تكن مقولة قدوم اليهود إلى روسيا من القفقاس تثير الضجيج أو المخاوف ، ولم يكن معاديا للسامية مثلما رسخ في الأذهان منذ أوائل سبعينات القرن الماضي [ساند 310]. وجدت الصهيونية في مملكة الخزر وشكل الأصل العرقي غير الإسرائيلي ليهودها لغماً يكفي لتحطيم أشرطة المركب الصهيوني .

كان أبراهام هر كايي من أوائل المؤرخين اليهود في روسيا؛ عيّن رئيس قسم الآداب اليهودية والمخطوطات اليهودية الشرقية في المكتبة العامة القيصرية . كان باحثاً مثابراً ، ألف كتاباً عن تجربة الخزر ، لم يترجم إلى العبرية . كانت مراسلات حسداي - يوسف قد اكتشفت في المكتبة . وشجعت السلطة السوفيتية في بداية عهدها البحوث في مسألة يهود الخزر . كتب يهود عديدون عن المملكة اليهودية الخزرية ومنهم أبراهام بولاك ، الذي أخذ عنه دينور . عين بولاك رئيساً لقسم الشرق الأوسط بجامعة تل أبيب في خمسينات القرن الماضي ؛ ونشر عدة مؤلفات عن العالم العربي . ومنذ ذلك الحين لم يصدر كتاب واحد عن تاريخ الخزر [ساند: 298]. قدم بولاك تفسيراً مقنعاً أكثر من غيره لتداول اليديشية بين اليهود الخزر ، فقال ان الكولناليّة الألمانية التي توسعت شرقاً في القرنين 14 و 15 جنبا إلى جنب إقامة مدن تجارية وحرافية ناطقة بالألمانية أدت إلى انتشار اللغة أيضاً بين الذين عملوا كوسطاء بين مراكز القوة الاقتصادية وبين مجتمع الفلاحين والنبلاء الذي واصل التحدّث بلغاته السلافية . ولم تحوّل ميزات أو طلبه من أجل التعمق في بحث هذه المسألة المزعجة . [ساند: 311].

وليس من قبيل الصدفة المحضه شحّ الأبحاث السوسولوجية واللغوية والإثنوغرافية المتعلقة بأنماط الحياة البعيدة المدى في بلدان بولندا وليتوانيا ، أي أبحاث ذات طابع تاريخي محدث وليس مجرد انشغال سطحي بفولكلور محض ، تماما كما هو الأمر فيما يتعلّق بانعدام أعمال تنقيب أثرية على مستوى رفيع في روسيا الجنوبية وأوكرانيا للكشف عن بقايا مملكة الخزر [ساند: 315]. «في مركز البلدة اليهودية يتواجد الكنيس ذو القبتين على شكل الباجوردا والتي كانت شرقية بشكل واضح؛ واللباس اليهودي في شرق أوروبا لم يشبه أبداً لباس اليهود في ألمانيا وفرنسا . إن هيرمولكا ، وهي كلمة تركية أيضاً ، والشتراميل (غطاء الفرو الذي يرتدونه فوقها) يشبهان أكثر سكان القفقاس ومتجولي السهوب وليس تلاميذ الحاخامات من ماغنيستا أو التجار من فرميرا . تفاصيل هذا اللباس ، مثل معطف الحرير الطويل الذي ارتدي بالأساس يوم السبت ، تختلف عن صفات فلاح روسيا البيضاء أو الأوكرانيين . لكن كل ما ذكر من هذه المسائل وغيرها من أمور ترتبط بالمورفولوجيا الثقافية الملموسة للحياة اليومية وللتاريخ المرتبط بها لم يثر إلا اهتماماً ضئيلاً للغاية في أوساط جمهور الباحثين المنشغلين في اختلاق التاريخ «الأزلي» لـ«شعب إسرائيل» . فقد كان من الصعب عليهم الاعتراف بالحقيقة المزعجة التي تؤكد أنه لم تنشأ ولم تظهر قط «ثقافة شعب يهودية» وإنما «ثقافة يديش شعبية» مشابهة لثقافات جيرانهم أكثر بكثير من كونها مشابهة لأنماط ثقافات الجاليات اليهودية في غرب أوروبا أو في شمال إفريقيا . [ساند: 314]

وهذا ما أثار غضب الأكاديميا الإسرائيلية والمشهد الثقافي الصهيوني والاستشراقي عموماً. طالما أن القانون يعبر عن الإجماع الشعبي العام، فيجب أن يبقى ساري المفعول. لا يهم بالنسبة لرموز الصهيونية إن كانت الواقعة حقيقة إلهية أم لا؛ بل المهم هو أن تنغرس الأسطورة في الوجدان اليهودي: قومية منغلقة على خرافات مرتكزة على أصل ضارب في القدم ذات جوهر إنسي صلب وراسخ لا يتغير على مر التاريخ، وعن شجرة أنساب متسلسلة لـ «شعب» قديم متميز، تستبعد الانفصال عن الأمة مهما نأت به الترحالات. أو لم ترشد القاعدة سياسات بن غوريون التي أرسى بها نهج دولة إسرائيل؟

تجلى التنوع في الأصول العرقية لليهود في شتى مظاهر الحياة الاجتماعية، وهو يطل برأسه بعفوية وتلقائية أوقات الأزمات. بين الجماهير العربية تعاطف يتوتر أثناء أي أزمة تحل بأحد الأوطان العربية. أجل تفاعلت الشعوب العربية كافة، أكثر من غيرها تعاطفاً جماعياً مع أحداث تونس الأخيرة ومع أحداث مصر التي تبعتها. لا شك أن هذا دليل قيام رابطة قومية. إنها عاطفة متبادلة تعبر عن وحدة الثقافة القومية والتاريخ المشترك، علاوة على اللغة والجغرافيا المتشابكة، وتعكس وحدة الآمال والأشواق، خصوصاً وهي تكابد نفس الأوضاع المريرة جراء تماثل نهج الحكام. هي أساس تقوم عليه وحدة قومية تغالب القطريّات وتفصح عن ذاتها في أوقات الأزمات؛ بينما في التجمعات اليهودية، داخل إسرائيل وخارجها، فإن «الكشف عن أنماط الحياة وأشكال الاتصال لدى الطوائف اليهودية في الماضي من شأنه أن يبرز أكثر حقيقة بسيطة آثمة»، فكلماً ابتعدنا عن الأعراف الدينية وتقدمنا من ناحية بحثية في اتجاه ممارسات وعادات يومية متنوعة سنجد أنه لم يكن أبداً بين المؤمنين اليهود في أنحاء آسيا وإفريقيا وأوروبا أي قاسم مشترك إثنوغرافي علماني. فاليهودية العالمية كانت على الدوام ثقافة دينية مهمة تتألف هي الأخرى من تيارات منفصلة، وليس أمة غريبة ومشتتة ومشردة. [ساند: 315].

### التوراة في مرحلة التثوير

حتى نهاية العصر الوسيط، لم تظهر دراسات تاريخية أو أدب رحلات من قبل اليهود، على غرار الدراسات الإسلامية والمسيحية. والبروتستنتية هي التي شرعت البحث في التوراة بعد أن دمجت العهد القديم بالديانة المسيحية. «منذ ظهور بيارق القومية في العصر الحديث استخدمت نصوص التناخ وسائل لاسترجاع الماضي، ففي مرحلة ما قبل البروتستنتية الإنكليزية، وخصوصاً لدى البيوريتان المستوطنين في أميركا الشمالية وجنوب إفريقيا، بواسطة مفارقة تاريخية معقدة بخيال منجنح إلى ما يشبه النموذج المثالي لصيرورة المجموعة الدينية - السياسية العصرية. وإذا كان المؤمنون اليهود لم يتعمقوا تقريبا بشكل مباشر في الماضي، فقد أخذت قراءة المثقفين العلمانية للكتاب تتسع بالذات في عصر النهضة الثقافية والحركة التثويرية في أوروبا [ساند: 169].

لم يطلع المسيحيون على التوراة قبل عصر الإصلاح ، ولم تكن النظرة ودية تجاه اليهود ، بل اتهموا بقتل المسيح . ومنذ القرن السادس عشر كان البروتستنت بالذات هم الذين أضفوا على العهد القديم هبة وقيمة إضافية تعاضمتا بشكل خاص لدى الكنيسة الأنغليكانية والمنشقين عنها . [ساند: 100] تطوّر الاهتمام بالتوراة بعد ان دمجتها البروتستنتية بالتوراة وأسماها «العهد القديم» . أصبح العهد القديم هو المرجع الأعلى للسلوك والاعتقاد» [ريجينيا الشريف: 13] . ومع قراءات العهد القديم باللغات القومية «أصبح ما ورد في العهد القديم من تاريخ ومعتقدات وقوانين العبرانيين وأرض فلسطين التي حكموها (على الأقل ألف عام) أموراً مألوفة في الفكر الغربي . عرفت قصص وشخصيات وغدت مألوفة وراح البروتستنتيون يرددونها عن ظهر قلب» [ريجينيا الشريف: 24] . في عصر النهضة والإصلاح الديني تضافرت الجهود لإحياء خرافة عودة المسيح ، وأعطى الدور بذلك لليهود ، حين يعودون إلى الديار المقدسة .

وفي عصر النهضة اشتغل المثقفون اليهود بالتاريخ اليهودي وبالمسألة اليهودية . عبرت التحولات التنويرية عن نفسها بالإصلاح الديني والفكري والفلسفة الإنسانية ثم الفلسفة العقلانية في القرن التاسع عشر . أما الفكر المضاد للتنوير فقد برز في بلدان أوروبا الشرقية وتطوّر واكتسب أهميته الاستثنائية مع تشكل الاحتكارات الرأسمالية . وخضعت الأقليات اليهودية لنفس التغييرات واندمجت مع الحراك الاجتماعي الذي فتت التكوينات الطبقة السابقة . تراخت قبضة الكنيسة واللاهوت على العقول ، وسطع النور الكاشف للعلم والمعرفة العقلانية . في عصر التنوير والحدثة برزت الطبيعة البشرية ، طبيعة إنسانية جوهرية عاقلة . مصدر المعرفة كامن في الإنسان ، والمعرفة الإنسانية أساسها الإدراك الحسي . والإنسان قادر على الوصول إلى الحقيقة لو نفّض عن نفسه غبار الأساطير والأوهام ، ورفض الاعتماد على الحجج والمسلّمات والعقائد واتبع المنهج السليم والعقل المنطقي . نظر الفكر التنويري إلى الإنسان بأنه «لا ينطوي على الشر» لأن الشر ليس جزءاً من الطبيعة البشرية؛ وبذا أسقط فكرة الخطيئة الأولى التلمودية ، وبين أنها لا تستند إلى أساس محسوس . الإنسان ظاهرة سوسولوجية نسبية والحضارة والمجتمع ليسا معطيات مقدّسة بل نتاج التاريخ . «عملت الحدثة على إقصاء الحقيقة المطلقة الإلهية من مكانتها الرفيعة وانحسر تقديس الحقيقة ليدور منذ الآن قصص التناخ التي تحدثت عن حكايات البشر» [ساند: 99] .

انطلاقاً من هذا الحصاد المعرفي ظهرت فكرة الليبرالية والعلاقة التعاقدية بين البشر . وانقسم الموقف الثقافي تجاه تحرّر اليهود ووجودهم القومي ، نظراً لتباين النظرة القومية بين أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية . «استمدت القومية زادها من إرث النهضة وعصر التنوير ، وقامت مبادئها على الفردية والليبرالية ، من الناحيتين القانونية والسياسية . والطبقة الحاملة لرسالة القومية هي البرجوازية العلمانية الواثقة بنفسها ، جنحت القومية في كنفها إلى الانفتاح والدمج» [ساند: 73] وتفاعلت النظرة القومية مع الديمقراطية؛ فكلاهما وليدة عصر التنوير . اليهودية



الإصلاحية المتأثرة بالتنوير اندمجت في القوميّات الناشئة؛ بينما اليهوديّة المتوجّسة من التنوير ارتدت بالتوراة. رفض الفكر المعادي للتنوير فكرة القانون الطبيعيّ والحقوق الطبيعيّة والحقيقة المجردة التي تتجاوز المكان والزمان ورفض فكرة الجوهر التي تعلو على التنوع والتعدد، ويمكن للعقل أن يصل إليها عن طريق إعمال عقله ومن خلال الملاحظة والتجريب. هكذا «في روسيا وبولندا فقد طبعت القوميّة بطابع غير عقلاني ورجعي، وسمت التوجهات السياسيّة بالغيبيّة والاحتقان القومي المنغلق» [ساند:74]. وحيث أن الثقافة تتأثر بمحيطها الاجتماعيّ والسياسيّ، فقد عقدت ثمرة الوعي القوميّ اليهوديّ شرقي أوروبا على رؤية عنصريّة تهرب من الحداثة، وتنكفي إلى كهوف التاريخ. «إن غياب الثورات القادرة على ضخ عناصر مثقفة ديناميّة أبقى خارج اللعبة السياسيّة في المراحل الأولى من تكوين الدولة المثقفين غير المنحدرين من طبقة النبلاء، وبالتالي خارج تشكيل الإيديولوجيات القوميّة الرئيسة وصوغها»، [ساند:87].

وبالنتيجة «انطوت نظرة القوميات المنغلقة على ميثاق (رؤى خرافية) مرتكزة على أصل ضارب في القدم ذات جوهر إثنيّ صلب وراسخ لا يتغيّر على مر التاريخ، وعن شجرة أنساب متسلسلة لـ 'شعب' قديم متميّز، تستبعد الانفصال عن الأمة مهما نأت به الترحالات» [ساند:77]

هدمت سيرورة التحديث في أوروبا الغربيّة الفواصل بين المراتب الاجتماعيّة وفيما بين الطوائف والأقليات العرقيّة. هدمت جدران الغيتوات وأنشأت السوق القوميّة ووحدت الهيكل القانونيّ وحققت الاندماج الحضاريّ بين كلّ أعضاء المجتمع. ومع تقدم المجتمع وظهور النشاط التجاريّ أو المصرفيّ المحليّ ظهرت المسألة اليهوديّة. وظهرت المسألة في الأقطار الشرقيّة، حيث تعطلت عمليّة التحرّر الاجتماعيّ. أطلق على دمج اليهود في مجتمعاتهم اقتصاديًّا وحضاريًّا حركة الانعتاق [المسيري:64]. وشملت الحركة الأقليات الطائفية والعرقيّة. متحدث باسم الثورة الفرنسية قال: «كل شيء مباح لليهود أفراداً وليس كجماعة، فحن ليس عندنا أمة داخل أمة» [المسيري 65]. وفي العام 1791 منح الدستور الفرنسيّ اليهود الجنسيّة الفرنسيّة والحقوق المدنيّة كاملة. وفي العام 1797 تمّ إلغاء الغيتو في إيطاليا. وفي العام 1812 أعلن ملك بروسيا فريدريك وليم الثاني اليهود مواطنين بروسيين.

سكن في شمال فرنسا يهود أشكينااز قدموا من شرق أوروبا، وسكنها يهود سيفارديون من أصل اسبانيّ ينتمون إلى التشكيل الحضاريّ للبحر الأبيض المتوسط. كانوا الأغنى ومارسوا تجارة الجملة وأنشأوا مشاريع صناعيّة وسكنوا في المدن الساحليّة، فكانوا بذلك الأكثر ثروياً حضاريًّا، ونظروا بسخرية إلى إخوان الدين من الأشكينااز وتهكموا على «الطقوس الخرافيّة المضحكة التي يمارسها الأشكينااز».

ومع النهضة التنويرية طفق المثقفون يبحثون في التاريخ القديم، وكان للمثقفين اليهود مساهماتهم في البحث في تاريخ التوراة للتنقيب عن التاريخ اليهوديّ. يلفت النظر أن بدايات الكتابات التاريخيّة

بعثت الاسم الأصلي لليهود باسم «الإسرائيليين». «في العام 1820 ظهر الجزء الأول من كتاب المؤرّخ الألمانيّ اليهوديّ، إيزاك يوست، (1793-1860) وأسماه تاريخ «الإيزرائيليتيم منذ أيام المكابيين وحتى يومنا»، وهي التسمية التي أطلقها على أنفسهم ألماني وفرنسيون من أتباع موسى. وقائع التاريخ مغلقة واستعصت على مداركه فأغفلها. وشأن معظم الباحثين التوراتيين كانت الحقبة الأولى غير واضحة، «قفز من حقبة التناخ إلى فترة الحشمونيين» [ساند: 100]. في تلك الأزمنة استلهم المؤرّخون أفكار التنوير والتطلع للاندماج في القوميات الآخذة بالتشكل ويرتبون كمكوّن عضويّ في تلك القوميات. «في نظر يوست ليست الجماعات اليهوديّة أجزاء مختلفة لشعب واحد بما هم من أصل واحد. إنهم مختلفون تماما من مكان إلى آخر في ثقافتهم ونمط حياتهم وكل ما يجمع أو يوحد بينهم هو عقيدة إلهيّة خاصّة. فليس ثمة كيان قوميّ يفصل ما بين اليهود وغير اليهود» [ساند 104].

### المتخيّل والحداثة

إلى جانب التوجه الاندماجيّ، تمايزت نظرة عنصرية تتمسك بالمتخيّل؛ أحيانا تجلت الازدواجية لدى المؤرّخ الواحد. «كمثقفين كان التراث اليهوديّ جلّ رأسمالهم، ولم يكونوا مستعدّين للتنازل عن الخصوصيّة الثقافيّة، بل مالوا للمحافظة على أفضل ما فيها، ومع ذلك كانوا متعطّشين للاندماج في ألمانيا الجديدة الآخذة في التكوّن» [ساند: 101]. وجّهت الانتقادات للتوراة من منطلق الدراسات الفيلولوجية والاجتماعيّة. «أغلب أنصار الإصلاح في القرن التاسع عشر، ومنهم أبراهام جينجر (1810-1874) وجّهوا النقد إلى التوراة وأدركوا المفاهيم والمصطلحات اللغوية الجديدة وتقبّلوا عن طيب خاطر. سلطت أضواء الثقافة التنويريّة على الطبيعة المتناقضة في التناخ، فتبيّن انه كتب في أزمنة متأخرة كثيرا عن الوقائع التي يصفها؛ كما أنه دون في عهود مختلفة». أدر كوا أن الكتب الدينيّة قد كتبت في أزمنة مختلفة على أيدي مؤلّفين مختلفين ولا توجد لنصوصها ثبوتات خارجيّة. ونظراً للغموض، فلا يمكن أن تشكل أساساً لبحث تاريخيّ ذي مغزى وأهمية. فضلا عن أن العبريين لم يختلفوا عن الأقوام الوثنيّة المحيطة بهم رغم نزول التوراة عليهم. ومن ثم استخدم التناخ كنصّ مشكل لهوية وعقيدة بعدما حرّر ونشر في وسط جماعة المؤمنين التي كانت وبحق في أمسّ الحاجة إليه. غادر بنو إسرائيل مصر وهم وحوش وجهلة، تعلم اليهود في بلاد فارس واكتسبوا من الفارسيين وجهة نظر دينيّة جديدة ونمط حياة لغة وعلمًا [ساند: 103].

وفي العام 1882 عالج باحث التناخ المعروف يوليوس ولهاوزن في مؤلفه «مقدمة لتاريخ إسرائيل» تراكيب قرابة مائة عام من النقد الذي حاول حلّ لغز مواعيد الكتابة المختلفة لسفر الأسفار. فمن خلال تحليل فيلولوجي بارع بدا يشكك في جزء من قصص التناخ كتبت بعد مرور زمن طويل على الأحداث الموصوفة فيه. فصيرورة الديانة اليهوديّة كانت، حسب رأيه، عملية متدرّجة

وتطوريّة، وأن كل جزء من الأجزاء الخمسة يعبر عن مواعيد فترات مختلفة. هوجمت أفكار ويلهاوزن من قبل المتعصبين اليهود وعلى رأسهم هاينريخ غريتش (1818-1891). وكان ما أعاظهم قول المؤرخ إن التناخ كتب بعد العودة من السبي الأول [ساند: 125]. ومن جانبه بين عالم الآثار، فيليب ديفيس Davies، أن إسرائيل القديمة المذكورة في الدراسات التوراتية هي من اختراع عقول العلماء، وأن هذا الاعتقاد بني على فهم خاطئ للتراث التوراتي، بل إنه بعيد عن الحقيقة التاريخية. [وايتلام: 36].

تجاوب اليهود مع التحديث وانخرطوا في الحركة العقلانية (الهكسلاة) ومعناها التنوير. عبرت حركة التنوير عن نفسها بفصل الدين عن الدولة وفي زيادة الاعتبارات العلمانية والعملية في الحكم، وفي تبني منظور اقتصادي واع لكل الظواهر، حتى ظاهرة الأقباليات. «الأفكار المسيحية ساعدت الإصلاحيين على تخلص التراث اليهودي من قبليته ومن تاريخيته. انفتحت الإصلاحية اليهودية على التاريخ الإنساني. [ساند: 67]. تطوّرت الحركة الإصلاحية من 1750 إلى 1880، ونادت بالحقوق المدنية الكاملة عن طريق الاندماج بالمجتمع، وأن يكون الولاء الأول والأخير للبلدان التي يعيشون فيها. وركز دعاة التنوير والتحديث على الدراسة العلمانية. «كان موسى مندلسون أول دعاة التنوير اليهودي؛ أنكر أن اليهودية دين سماوي بل مجموعة قوانين أخلاقية. ترجم أسفار موسى الخمسة إلى الألمانية كي يطلع عليها اليهود العاديون، وكتب تعليقا مستنيرا عن الكتاب المقدس. [ساند: 63]؛ كما أصدر مجلة ثقافية تنشر ثمار الثقافة الإنسانية بالعبرية، وطالب بمنح كل فرد حرية العقيدة ليعمل ما يشاء حسب ما يميله عليه ضميره الأخلاقي [ساند: 64]. حاول مندلسون تحرير وعي اليهودي من تأثير الجمود المطبق. أحد التيارات الأساس في الفكر الإصلاحي هو وضع المعتقدات الدينية اليهودية في إطار تاريخي. رأى الإصلاحيون أن الوحي ليس شيئا خالصا؛ بل اختلط بعناصر تاريخية زمنية. ذهب مندلسون إلى حدّ القول إن الديانة اليهودية ليست ديناً مرسلا من عند الله؛ وإنما هي مجموعة من القوانين الأخلاقية المنزلة، وأن الله عندما تحدث مع موسى في سيناء لم يذكر له أي عقائد بل ذكر طريقة للسلوك يتبعها الأفراد في حياتهم الشخصية. [ساند: 64]

بلغ التيار الإصلاحي أقصى مداه في قرارات مؤتمر بيتسبرغ (1885)، الذي قرّر أن الكتاب المقدس ليس من صنع الله، بل هو وثيقة من صنع الإنسان. وتضمنت فكرة الإصلاح استبعاد العناصر القومية من الدين اليهودي، التي تؤكد انزعال اليهود. أنشأ بعض الإصلاحيين الهيكل للصلاة بعد أن كانت كلمة «هيكل» مقصورة على ذلك الموجود في القدس. ركزوا على الجوهر الأخلاقي للتلمود. نادى ابراهام جينجر بحذف كل العبارات التي تشير إلى خصوصية الشعب اليهودي من الطقوس والعقائد والأخلاق والأدب، وطالب بإلغاء الطقوس الدينية وطقوس العقيدة والأدب والأخلاق والتخلي عن فكرة الشعب المختار كلية. رفض الإصلاحيون فكرة

عودة المسيح ، وأحلوا بدلها فكرة العصر المشيخاني ، حيث يحل فيه السلام والكمال . سيأتي العصر المشيخاني من خلال التقدم العلمي والحضاريّ وسيؤدّي إلى خلاص الجنس البشريّ كله [ساند: 66] . يلاحظ هنا تأثير المسيحيّة بروحها الإنسانيّة . اعتقد هولدهايم أن الدين أداة أبدعها الإنسان من أجل تطوير المجتمع البشريّ؛ وهو كأى أداة لا بدّ أن يواكب التطوّر ، وأن يعدل من آونة لأخرى . كانت تقاليد اليهوديّة ولاهوتها ملائمة للماضي؛ لكنها فقدت صلتها بالواقع الراهن ، ولا بدّ من تطويرها [ساند: 65]

هكذا تمايزت في البحوث التوراتيّة نظرتان متناقضتان: اندماجيّة منفتحة على التنوير وأفكاره الإنسانيّة ، وعنصريّة توغل في الزمن القديم تستمدّ منه نسغ قوميتها المدعّاة . ظهرت ازدواجيّة في موضوع استخدام التناخ وقصصه كجزء من تاريخ اليهود .

راح ينحسر التيار الإصلاحيّ أمام اندفاعه التيار الصهيونيّ؛ وكان للتحوّل أسبابه ومقدّماته . أولا ظلت شرائح من رؤساء الأسباط وأخرى يحركها طموح السيطرة ، ظلّت تأمل وتعمل ضد تيار الاندماج كي تبقي جماهير اليهود تحت وصايتها واحتياطيّ قوة تحت الطلب . ثم ظهرت البرجوازية الاحتكاريّة اليهوديّة تطمع في احتلال مركز بين المصالح الطامعة في التوسّع والبحث عن أسواق جديدة . وثالثا واصل أغلبيّة اليهود في النمسا وفي روسيا وشرق أوروبا التمسك بذهنية محافظة ترفض التغيير . واصل يهود شرق أوروبا البقاء على جمودهم فرفضوا إدخال أطفالهم إلى مدارس علمانيّة جرى إغلاقها فيما بعد . وفي روسيا طرح نظام تعليمي علمانيّ وأطلق اسم مدارس التناج على المدارس الناشئة آنذاك؛ رفض الحسيديون (الصوفيّة) الامتثال وردّوا بهجوم مضاد . برزت اليهوديّة الأرثوذكسيّة حركة محافظة تؤمن بقدم المسيح المخلص ولا تؤمن بالتطور والتغيير ، وتقبل المقولات التقليدية والأساطير القديمة بكل لاتاريخيّتها ، فالعقيدة اليهوديّة ، في نظر الأرثوذكسيّة عبادات ونظام دينيّ يغطّي كل جوانب الحياة اليهوديّة . وتؤمن بصورة شخصيّة للمسيح المخلص وبالعودة إلى فلسطين . واليهوديّة المحافظة لا تختلف كثيرا؛ أكد رئيسها زكريا فرانكل أنّ كلّ تغيير أو تطوير يجب أن يأتي من داخل العقيدة وليس من خارجها . ويؤمن فرانكل بأن الدين اليهوديّ تعبير ديني من روح الأمة اليهوديّة ، وهو بمثابة إجماعها الشعبيّ العام . لذا يجب أن لا تثار مسألة ما إذا كان القانون من أصل سماويّ أو أرضي؛ طالما أنّ القانون يعبر عن الإجماع الشعبيّ العام ، وأنه يجب أن يبقى ساري المفعول . موقف فرانكل يتماهى مع موقف بن غوريون من أسطورة الوعد . فلا يهمّ بالنسبة له إن كانت الواقعة حقيقة إلهية أم لا ، بل المهم هو أن هذه الأسطورة مغروسة في الوجدان اليهوديّ [المسيحي: 92] .

نشأت خلال حقبة الإصلاح طبقة من الأثرياء التجار قاموا ببناء الطرق الحديدية وفتح المناجم وتأسيس البنوك . وظهرت شرائح البرجوازية المتوسطة أطباء ومحامين ومهنيين وصحفيين . طرحت المسألة اليهوديّة في روسيا وبولندا حيث فرضت قوانين جائرة بحق اليهود [المسيحي: نفس المصدر 69]

منذ إيزاك يوست ، مروراً ببعض المثقفين الذين التحقوا في المرحلة الثانية لـ "علوم اليهودية" وانتهاءً بظهور غريتش ، (المجدد الكبير) ، أخذ العهد القديم يشكل نقطة انطلاق في محاولات التأريخ الأولى في عملية اختراع مدهشة لـ "الأمة اليهودية". كتاب يوست لاءم وجهات نظر المثقفين اليهود ، العلمائين وغير العلمائين ، ممن انخرطوا في العملية التحريرية . غير أنهم لم يسعوا إلى البحث عن جذورهم في الزمن البعيد . ظلت اليهودية طائفة دينية ولم تكن قطعاً شعباً مشرّداً أو قوميةً أجنبية . ولم يكن رجال الدين اليهود معيّنين بالتاريخ القديم . انتقد غريتش ضيق أفق المؤرخين قبله ممن "حكّموا على اليهود بتعريف أنفسهم كجزء من حضارة دينية فقط وليس كقبيلة وشعب أزلي" [ساند: 106] . كان هذا دأب المتعصّبين قوميًا والعنصريين المسيحيين ممن ارتدّوا إلى نمط متجدد من اللاسامية . أنكروا على اليهود تعصّبهم فأذكوا بتصرفاتهم (ومنها إصدار قوانين جائرة تميز ضدّ اليهود) المزيد من التعصّب العنصري اليهودي . «انطوت نظرة القوميات المغلقة على ميثاق مرتكزة على أصل ضارب في القدم ذات جوهر إثني صلب وراسخ لا يتغيّر على مرّ التاريخ ، وعن شجرة أنساب متسلسلة لـ «شعب» قديم متميّز ، تستبعد الانفصال عن الأمة مهما نأت به الترحالات» [ساند: 164]

وجاء هيس مؤرخاً يهودياً بعد غريتش . رأى هيس أن استمرارية «الأمة اليهودية» كامن في عقيدتها . سخر من دعاة الإصلاح ، ومن أنصار التحرّر في ألمانيا . «ليست التوراة وإنما العرق يصوغ شكل الحياة؛ ليست التوراة هي التي أوجدت الحياة العائلية اليهودية ، بل بالعكس فالحياة البطريركية لآباء أمتنا هي أساس نشوء العقيدة الدينية المصنوعة في الناخ ، والتي كانت دوماً وأبداً عقيدة انبعاث قوميّ نمت وتطوّرت من خلال تقاليد عائلية مستمرة .» [ساند 115] أضحى الزحف السرطاني نحو سفر الأسفار المقدّس بمثابة مسيرة التقدم القومية في خيال المثقفين اليهود . وعلى غرار النهوض الثقافي للبحث عن الأصول لدى قوميات أوروبا ، وجمّعت البراعم الأولى نحو القومية اليهودية ازدهارها صوب الضوء الساطع المنعكس من مملكة داوود الميثولوجية ، والذي احتفظ بقوته طوال مئات السنين في شواحن العقيدة الدينية [ساند: 110] . وفي ثقافة الغرب تم إدخال دولة إسرائيل القديمة عقيدة سياسية متجدّرة في الدين ، اعتبرت منذ زمن الإصلاح الديني البروتستنتي جوهر الحضارة الغربية . شرعت الثقافة الاستشراقية تختلق إسرائيل القديمة التوراتية وتكتب التاريخ الفلسطيني على وهم انتظار المسيح المخلص بعد عودة اليهود وإقامة الدولة وإعادة بناء الهيكل ، كي تستهل حقبة الألفية السعيدة ، طبقاً للاهوت إحدى الفرق الأنجليكانية في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية ، لاهوت بناء إسرائيل الحديثة .

قدم القوة الدافعة لاندفاعة الأصولية اليهودية تشكل الاحتكارات . وكان لتشكّل الاحتكارات اليهودية دور في الانتشار الواسع نسبياً لإيديولوجيا الصهيونية . أرادت هذه القوة الاقتصادية المتنفّذة أن يكون لها موقع مؤثر داخل حركة الزحف الكولونيالي المتطلعة إلى الأسواق الخارجية . ومنمّلا عبّرت اليهودية الإصلاحية عن النزعة الليبرالية الديمقراطية والاندماجية للبرجوازية التقدمية؛ فقد

عبّرت الصهيونيّة عن مرحلة تشكل الاحتكارات ، وحملت المرحلة الجديدة الرّدة في مجالات الفكر والعلوم الإنسانيّة . وحصلت كذلك ردة في اللاهوت المسيحيّ . شحنت بطارية المسيحيّة الصهيونيّة بطاقة جديدة .

يرجع البعض تاريخ نشوء اللاهوت الأصوليّ إلى القرن السابع الميلاديّ في بريطانيا ، حيث استلهم الصمود بوجه غزوات النورمانديين حكايات الرواية التناخيّة التي تبرز الأعمال البطوليّة والقوّة العسكريّة والسيادة الرسميّة ، وبالأساس القوّة والمناعة الأخلاقيّة في فترة طفولة الأمة اليهوديّة . وأشاد المصلح الديني مارتن لوثر باليهود ، ثم عاد وهاجمهم بضراوة لما رأى فيهم روح التفردّ والشموخ؛ وجد أفضل حلّ لمشاكلهم في الوسط المسيحيّ هجرتهم إلى بلاد أخرى . نشط التيار وسط الطائفة الأنجليكانيّة في بريطانيا ضمن حيّز ضيق وانفردت لوحدها من بين الكنائس المسيحيّة كافة بـ«نبوءات» الألفية السعيدة . إلا أن وجودها كان ملموساً ، خاصة لدى السياسيّين في أوروبا ، ودليل ذلك أن نابليون وجّه نداءه ، وهو يحاصر عكاً عاجزاً عن اقتحامها ، فناشد اليهود القدوم إلى فلسطين وإقامة دولتهم . ومن المعلوم أنّه تشكلت في ألمانيا حركة تمبلرز (بناة الهيكل) للشبان المسيحيّين تدعو لإقامة دولة لليهود في فلسطين . [أنظر للمؤلف كتاب رواد التنوير في فلسطين] .

## أصوليتان... توأمان سياميان

الدولة الدينية ليست التحقيق الحقيقي للقاع الإنسانيّ لأنها ما تزال ترجع أو تنتسب إلى لا واقعية هذه النواة الإنسانية، إلى شكلها الخياليّ. الدولة المسماة مسيحية هي الدولة ناقصة والدين المسيحيّ بالنسبة لها هو إكمال وتقديس نقصها. الدين يصير إذن بالضرورة وسيلة، وهو دولة الرياء. ثمة فرق كبير بين هاتين الواقعتين: إما الدولة الكاملة تعد الدين في عداد شروطها بسبب النقص الملازم لجوهر الدولة العام، وإما الدولة الناقصة تعلن الدين أساساً لها، بسبب العيب الملازم لوجودها الخاص الجزئيّ، أي كدولة ناقصة. في هذه الحالة الأخيرة يتحول الدين إلى سياسة ناقصة.

### ماركس / المسألة اليهودية

من الذنب ومن الكلب؟ سؤال أجاب عليه الأكاديميّ الأميركيّ تشومسكي، بصدد اللوبي الإسرائيليّ والخارجية الأميركية، فقال إن كليهما ذنب للاحتكاكات عابرة القارات. أوضح فرانكلين روزفيلت، الرئيس الأميركيّ في عقدي الثلاثينات والأربعينات، العلاقة الأثمة بين السياسة والرأسمال بالقول إن "الحقيقة الأولى تقول إن حرية الديمقراطية لا تكون في مأمن إذا تسامح الناس مع نموّ القوى الخاصة لدرجة أن تغدو أقوى من الدولة الديمقراطية ذاتها. فذلك في جوهره هو الفاشية - تملك الحكومة من قبل فرد، أو جماعة أو من قبل أي قوة خاصة مسيطرة". وكان دوايت أيزنهاور أفصح بياناً في خطابه الوداعيّ منها فترسي رئاسته عام 1960 "علينا في مجال الحكومة أن نحترس من استحواذ التجمع العسكريّ - الصناعي على نفوذ لا مبرر له".

الرأسمالية الأميركية كسّية نجحت في إفساد الحياة السياسية من خلال المال السياسيّ. وكان من مهازل الديمقراطية الأميركية أن أوباما احتاج إلى مليار دولار للإنفاق على حملته الانتخابية. والممولون لحملته الانتخابية لم يتصوّفوا كجمعية خيرية؛ إنما وقفوا له عند الباب يطالبونه بالسداد قبل الدخول، فأوكل إليهم تسيير نهجه الاقتصاديّ والماليّ والسياسيّ والثقافيّ؛ وانحصر التغيير في دعاية انتخابية لم تعبر إلى ممارسة السياسة؛ فلم يتبقّ من أوباما المثقف سوى الشبح العلميّ

عندما اضطرت اعتبارات السياسة ، وهو حامل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي ، للتصريح بأن فلسطين هي الوطن القومي التاريخي لليهود ، بينما هو يدرك ان المقولة مرفوضة من قبل ستين جامعة أميركيّة . ولدى إلقاء خطابه أمام الجمعية العموميّة للأمم المتّحدة أهان القانون الدوليّ إذ طالب بـ ”حذف القضية من جدول أعمال الأمم المتّحدة“ ، وتساءل مستنكراً بصدد معاودة بحث ممارساتها أمام دورات الهيئة العموميّة للأمم المتّحدة . حول مضمون الخطاب تنور تساوّلات مشروعة ، منها: هل يريد الرئيس أوباما أن يحصّن إسرائيل من كل الالتزامات التي فرضتها عضويتها في الأمم المتّحدة؟

كيف بدأت المسألة؟

عندما ردّ أوباما بخشونة على تعنّت نتنهاو نقلت هآرتس أن ”نتنهاو وظّف ضغوطاً سرّية على أوباما جاءت من شيكاغو“ ، فقد توجه الجنرال الإسرائيليّ عاموس يادلين ، طبقاً لمقالة نشرت مؤخّراً في مجلة ”أتلانتيك“ ، إلى شيكاغو في مسعى لضمان مساعدة شخص يدعى كراون في إقناع الإدارة الأميركيّة بمهاجمة إيران . وبالفعل تشير قوائم زوّار البيت الأبيض ، كما ورد في مقال نشرته المجلة الإلكترونيّة ”كاونتر بانث“ ، أن كراون زاره في نيسان (أبريل) 2009 ، وطلب مقابلة أوباما . فمن هو كراون؟

إنه ليستر كراون من شيكاغو ، أحد طواغيت التجمّع الصناعي - العسكريّ بالولايات المتّحدة ، تقدّر ثروته بأربعة مليارات دولار ، وله أسهم كبيرة في احتكار جنرال ديناميكس ، أضخم مؤسّسات التجمّع الصناعي العسكريّ بالولايات المتّحدة الأميركيّة ، وشغل منصب رئيس هيئة إدارته . كان هذا من المبادرين الأوائل لدعم ترشيح أوباما لمنصب الرئاسة الأميركيّة .

بادر كراون لدعم ترشيح أوباما في مجلس شيوخ ولايته ثم لمنصب الرئاسة . كان أوّل من جمع التبرعات للحملة الانتخابية ، وشكل مع أسرته جزءاً أساسياً من الآلة الماليّة لحملة أوباما . واستطاع أحد أبنائه ، جيمز كراون ، جمع نصف مليون دولار لصالح الحملة وترأس حملة أوباما بولاية إلينويز .

كان المحفز لوقوف أسرة كراون بجانب أوباما إعلان وقوفه بجانب (حقّ إسرائيل بالوجود) ورغبته في توجيه ضربة عسكريّة لإيران . أثناء الحملات الانتخابية يتوجّه كل طامح لعضوية هيئة تمثيلية أو رئاسة الجمهوريّة إلى الأغنياء واعداء بدعم مصالحهم من خلال منصبه . وبالنسبة لليستر كراون كانت مصالح إسرائيل على رأس اهتماماته . فهو يردّد ، ”إن التزامي العميق بإسرائيل وبعلاقات قويّة بين الولايات المتّحدة وإسرائيل تقرّر أمن إسرائيل وجهودها في المنطقة“ .

كراون أحد أقطاب التجمّع الصناعي العسكريّ ، ولديه مصلحة شخصية في الحفاظ على حالة حرب متواصلة . والتجمّع الصناعي - العسكريّ يدعم السياسات اليمينية ، ويفضّل العمل بالخفاء



من خلال ممثليه بالهيئات التنفيذية . توجهت جهود ليستر كراون في الأول من أكتوبر 2007 مباشرة إلى اليهود لجمع التبرعات لحملة أوباما الانتخابية من أجل الحفاظ على العلاقات المتينة للولايات المتحدة مع إسرائيل . وجاء في نص الدعوة "هدف الأمسية أن نظهر لباراك كم نشن ثباته وأمانته واعتزازه بدعم إسرائيل" . ليس بمقدور أحد دخول منافسة جدية على الرئاسة دون ان ينال ترقية أمثال ليستر كراون . وكل ذلك يعني أن الديمقراطية من النمط الأمريكي أكثر قليلا من فضيحة . «فلا الناخبون من ولاية أيوا أو هامشاير يقررون من هو الرئيس القادم . ليستر كراون وأضرابه هم من يختارون قبل أن يدلي أي أميركي بصوته في الصناديق .»

تقول المجلة الإلكترونية "كاونتر باننش" : "القادة الإسرائيليون ينشطون مع اللوبي اليهودي والتجمع الصناعي العسكري كي يربطوا الولايات المتحدة في شراكة وثيقة مع إسرائيل ، ولضمان أن لا يرى قادة الولايات المتحدة ، بمن فيهم أوباما والكونغرس ، في احتلال الأراضي الفلسطينية انتهاكاً غير مقبول لحقوق الشعب الفلسطيني الإنسانية والسياسية" .

في سعيها للانفراد بالهيمنة الكونية وتغولها خلف الأرباح الاحتكارية مخترقة الحدود بلا موانع دخولا وخروجاً ، بلغت الرأسمالية الأميركية حداً من التوحش اقتضى الاستعانة بالأصولية المسيحية للتخلص من القوانين والاتفاقات الدولية . الأصولية الدينية ذات تاريخ في الولايات المتحدة واكتسبت الدعم متعدد الأشكال لدى دخولها الولايات المتحدة قادمة من موطنها الأول ، بريطانيا . واكتسبت الظاهرة طابع حركة سياسية تصدّر المسرح السياسي الأميركي إثر اتصاح أزمة مزمنة تستحكم بالرأسمالية المعاصرة ، حيث اتضح في سبعينات القرن العشرين دخول الرأسمالية العالمية ، والأميركية على وجه الخصوص ، في أزمة بنيوية حادة لا مجال للخلاص منها . وفي أوائل تسعينات القرن بلورت المسيحية الأصولية رؤاها السياسية في مشروع القرن الأميركي الجديد ، حيث أدخلت إسرائيل ضمن المشروع الذي ينطلق بأهداف السيطرة المطلقة على مصادر الطاقة في الشرق الأوسط .

يرتبط بروز المسيحية الأصولية وريفيها السياسي ، المحافظين الجدد ، بتطورات خطيرة طرأت على الرأسمالية الأميركية بوجه خاص والعالمية عموماً . اقتصادياً أفلس نظام «نيوديل» الذي وضعته إدارة الرئيس الأميركي فرانكلين روزفيلت بالاعتماد على النظرية الكينزية للاقتصاد (لورد ريدهارد كينزي) ، والقائم على التدخل الحكومي . وبعد المجد العظيم الذي أسبغ على نظريات كينزي شيعت سرّاً كفضيحة . باتت الرأسمالية الأميركية أضعف من أي وقت مضى منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، بسبب الديون والهبوط النسبي للإنتاج الصناعي . اتضح خلل بنيوي في نظام الرأسمالية ، حيث تعجز عن تقديم الحلول لتخلف العالم الثالث ، وحيث العجز المزمن عن تصفية البطالة والفقر داخل مجتمعات النظام . باتت واشنطن تمضي في درب تلجأ فيه أكثر من ذي قبل إلى استخدام القوة المسلحة كي تشق طريقها في العالم . وبات من الضروري فتح الأسواق على مصاريحها أمام الاحتكارات الأميركية ، وتصفية القطاع العام في

اقتصاد كل دولة، لأنه يعترض عبور الرأسمال. أعلن النظام الاقتصادي الجديد حرية السوق وقدرته الذاتية على تنظيم حركة الاقتصاد العالمي وتعديل الاختلالات. أما النخب السلطوية المعارضة للمحافظين الجدد فشاركهم الهدف الاستراتيجي، من أجل قرن أميركي جديد. وإذا تجدد الرأسمالية الأميركية نفسها في خضم أزمة فإنها بالتأكيد تفاقمت بسبب سياسات المحافظين الجدد. ولم يؤثر هذا في نفوذهم الفكري والسياسي داخل الولايات المتحدة وفي بلدان الرأسمالية المتقدمة.

انتهجت الإدارات الأميركية منذ عهد ريغان، العام 1981، خطة تنظم الموازنة العامة بحيث تضاعف ثراء الأثرياء. والمذهل أن الواحد بالمائة من أثرياء أميركا تملك 21 بالمائة من الثروة مقابل عشرة بالمائة في عقد الثمانينات. والدخل السنوي لأغنى 12 ألف أسرة أميركية يفوق مداخيل 24 مليون أسرة من أفقر سكانها.

من المعالم البارزة في الرأسمالية المعاصرة، كنظام اقتصادي، الفساد السياسي، الذي بلغ في الولايات المتحدة حدًا يثير الدهول. فالمال هو الذي يدير الحملات الانتخابية، التي ارتفعت تكاليفها فوق المعقول. الانتخابات الوسطى التي جرت في العام 2010 بلغت تكاليفها 4,5 مليار دولار؛ ويعدّ الرئيس الحالي لحملة تجديد ولايته ميزانية تقدر بمليار ونصف مليار دولار؛ والمبالغ الباهظة يوقرها بالغو الثراء، ويجب ردّ الجميل لهم، وبالدرجة الأولى تخفيف الضرائب عن مداخيلهم وتجبيرها على الفقراء.

يقول عالم الاقتصاد المصري، الدكتور سمير أمين إن الفساد بات عنصراً عضوياً في الرأسمالية بشكل عام. ويفسر الظاهرة المزمنة للرأسمالية بالقول «إن الرأسمالية دخلت مرحلة الشيخوخة». أقصد بذلك لفت النظر إلى تلك العلاقة النظامية التي تربط هيمنة الاحتكارات على المنظومة الإنتاجية واستخراج الربح الاحتكاري من جانب، وظاهرة الفساد الناشئة عن التفاعل بين ممارسة السلطة السياسية واستخراج هذا الربح من الجانب الآخر. أقول إذن إن التخلص من الفساد أصبح مستحيلاً دون إنجاز تغيير جوهري في علاقات الإنتاج. «ثورة مصر وما بعدها: الحوار المتمدن 2011/4/29»

إذا ما تواصل الاتجاه، الذي يستسلم له الحزبان المتناطحان، فهل تمضي الولايات المتحدة داخل ميدان الفساد والإفساد، أم يتجسد المخرج في حزب جديد يتم بناؤه على قاعدة التعلق بالحياة بدل الفناء؟!

في الوقت الراهن أدمنت الموازنة الأميركية العجز، فظل يرتفع إلى أرقام فلكية؛ وليس من سبيل لخفض العجز غير خفض تكاليف العسكرية. لكن هذا البند هو الوحيد الذي لا يمسه دعاة خفض العجز عن طريق خفض الإنفاق. يريدون تخفيض ميزانيات التعليم والصحة والخدمات المقدمة للفقراء والطبقة العاملة. هل تتجه الولايات المتحدة لخفض معاشات التقاعد أو مساعدات الفقراء

والعاطلين عن العمل؟ هل تخفض ميزانية التعليم ، حيث الطلبة الأميركيون دون مستوى الكثيرين من طلبة العلم في العالم؟ أم تعمد الرأسمالية لتجسير أزمة مديونيتها على العالم الفقير؟

من سمات نشاط الرأسمالية المتوحشة ان آليتها تزيد فقر الفقراء وغنى الأغنياء داخل كل بلد وعلى صعيد العالم . تجمع في قبضة الرأسمالية الاحتكارية الأميركية محنة الشعب الفلسطيني واستيلاء الاستبداد السياسي على الحكم في البلدان العربية وتصاعد الفاشية الإسرائيلية والعدوان الهمجي على العراق وانتشار الفساد في العراق والمجتمعات العربية كافة . يعطينا مثال الأنظمة العربية كيف استقلت الدول من السياسة بمعناه الأصلي - إدارة شئون المجتمعات - واستباحت المايعة العامة وأهدرت المجتمع والفرد والسيادة الوطنية وتنكرت لمصالح جماهيرها وللقضايا القومية والوطنية . في ظل التكالب على المال امتهنت القيم واختلت الحياة الاجتماعية؛ تدهورت العملية التعليمية وأغفلت برامج البحث ، نظرا لأن اقتصاد العمولات والمضاربات والريح السريع لا يعنيه بتاتا إنتاج العلوم والتقاني . الحماية الأميركية مع إطلاق العنان للأجهزة القمعية كفيل بتخليد كل نظام .

ومن المعالم البارزة أيضا انحسار الديمقراطية . وعبر عن الظاهرة أكثر من باحث . فقد نشر الروائي الأميركي رون جاكوب ، مؤلف روايتي «طريقة هبوب الريح » و «تاريخ المناخ تحت الأرض» ، بحثا مطولا على موقع كاوتر بانث تحت عنوان «هل المحافظون الجدد راحلون حقا؟»؛ ويكتسب البحث أهميته الاستثنائية أنه نشر إبان إدارة بوش ، العام 2007 ، وتبأ فيه ، إثر تحليل لتمدد الاحتكار ، أنه «حتى لو فشل المحافظون الجدد في إيصال مرشّحهم إلى البيت الأبيض في انتخابات 2008 ، فإن استراتيجيتهم ومقارباتهم ستظل هي المرشد لأي إدارة ليبرالية تعقبهم» . ثم مضى إلى القول «وهكذا فقد يختفي المحافظون الجدد من البيت الأبيض لكنهم لن يتلاشوا» .

بنى الكاتب استنتاجه الذي زكته الحياة على ملاحظته المعمقة بأن الرأسمالية المتوحشة تطور طبيعي للاحتكارات المعممة . وتوصل إلى نفس الملاحظة الدكتور سمير أمين ، إذ يقول ، «فقبل أربعين أو خمسين عاما ، كانت هناك احتكارات في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، لكن إلى جانبها كانت توجد قطاعات واسعة من الإنتاج الرأسمالي الصناعي والزراعي والخدمي المستقل عنها ، والتي كانت قاعدة للمنافسة ، وبالتالي قاعدة للديمقراطية البورجوازية في إعادة تكوين النظام ، وأيضا القاعدة لعلاقات اقتصادية غير فاسدة (غير قائمة على الفساد) . إلا أن التغير الكيفي الذي حدث في الرأسمالية خلال الثلاثين سنة الماضية ، وتحولها من رأسمالية الاحتكارات إلى ما اسميه رأسمالية الاحتكارات المعممة ، هي في قلب المشكلة حيث بلغ تركيز الأموال - وهي ناتج التطور الطبيعي للرأسمالية - درجة لم يعد معها هناك قطاع في الإنتاج مستقل عن هيمنة الاحتكارات . وحتى القطاعات التي تبدو على أنها مستقلة ، تعمل في واقع الأمر من الباطن للاحتكارات . بهذا المعنى انتهت المنافسة الحقيقية التي كانت قاعدة تفعيل للرأسمالية من

غير فساد (علاقات اقتصادية غير فاسدة وغير قائمة على الفساد) وأيضاً قاعدة الديمقراطية البورجوازية في إعادة إنتاج النظام. « [ثورة مصر وما بعدها: الحوار المتمدن 2011/4/29 ]

وشمل الاحتكار المعمّم حقل الثقافة والإعلام ، ومن مظاهره اتساع نفوذ المحافظين الجدد في ميدان الإعلام لشمّل جميع أطراف المؤسسة . يقول الروائي رون جاكوب ، «فإن أهدافهم السياسيّة لا تختلف عن أهداف بقية المؤسسة في واشنطن؛ ولا تختلف مع الزمن سوى وسائلهم . . . وسوف يتواصل الإصغاء إلى فلسفة المحافظة الجديدة ، وسوف يواصلون إدارة بنوك المعلومات ، تلك التي تقدّم على الدوام الناقلين باسمها للميديا الراغبة دوماً في عرض آرائهم ومقترحاتهم وتقدّمها كحقائق . إن حضورهم الدائم في الجامعات وفي الكوادر الصاعدة في الحزبين الجمهوري والديمقراطي سوف تضمن حضورهم على طاولة السياسة الأميركيّة . علاوة على أنهم شرعوا يوسّعون حضورهم في قنوات الميديا المدعومة بأموال الخزينة مثل صوت أميركا وقناة الحرّة ورايو فاردا» .

ويختتم الروائي جاكوب بحثه بالقول «المحافظون الجدد سرطان ، ونموذج سرطانهم سيعود في أغلب الاحتمالات طبقاً لما تتطلبه الظروف ؛ لكن يعود لمعارضسي الإمبريالية الأميركيّة بكل نماذجها السرطانية ضمان عدم تكرار ظاهرة المحافظين الجدد» . أي أن النضال يجب أن يسترشد باستراتيجية استئصال الرأسماليّة ، وليس تخفيف مصائبها فقط .

وتوصل إلى نتيجة مماثلة عالم الاقتصاد البريطانيّ أستيفان ميساروش ، فأكد أن منطق التسلط الأمريكي - متمثلاً في نهج المحافظين الجدد وممارسات الرأسمالية المتوحشة - يتفق مع «منطق رأس المال في المرحلة التاريخية الراهنة من التطور الكوني . وهو ، فيما يتعلق بالظروف المطلوبة لاستمرار بقاء الإنسانيّة ، أكثر أشكال اللامنطقية تطرفاً في التاريخ ، بما في ذلك المفهوم النازي للسيطرة على العالم» [ميساروش : 13] . توفرت الشروط لإحداث تغيير جذري وبغير رجعة في شروط إعادة الإنتاج الموسع لرأس المال ، حيث تحوّل الرأسمال المالي عن الاستثمار في الإنتاج إلى عالم المضاربة؛ فدفع الاقتصاد العالميّ إلى المغامرات غير محسوبة العواقب ، «دفع إلى المقدمة وبشكل طباغ المضاربة والنزعات المدمرة ورفيقها الطبيعيّ ، الإهدار المأساويّ ، والمجمّع الصناعي - العسكريّ واستمرار توسعه خير مثال» [ميساروش : 14] . وأوضح مثال على الإتلاف وإغفال حاجات المجتمع تضخم الرأسمال المالي الموظف في المضاربة وتضخم المجمّع الصناعي العسكريّ وتوسعه . استبق ميساروش بنظرة ثاقبة الانهيار المالي الذي حدث بعد عقد من الزمن ، «بات العالم يعم في مجال المضاربات متجهاً نحو فوضى النظام النقدي . تم فرض سيطرة الرأسمال ، إذ أتاحت له حرية التنقل والتغلغل في بلدان العالم كافة . . . وساعد تطور نظام الاتصالات الكوني من حيث السعة والسرعة على تزايد أحجام الصفقات المالية للمضاربات بوتائر عالية: قفزت من ثلاثة مليارات يومياً عام 1973 إلى 650 مليار في أواخر العقد إلى 1240 ملياراً عام 1995 .

أحدثت الطفرة القياسية في توالد الرأسمال وتوزيع الفوائض أثرهما الهائل في تعمق الأزمة الهيكلية للرأسمال. "التحديث والتنمية من الطراز الأميركي أنزل الطبقة العاملة إلى مستوى الحرمان من حقوق المواطنة. هكذا الأمر مع الديمقراطيات الزائفة التي تتشكل في مختلف الأقطار...". [ميساروش: 15]. نتيجة لذلك تفاقمت مشكلة البطالة وانتهت قضية تحديث أقطار العالم الثالث إلى طريق مسدود. «إن فشل تحديث العالم الثالث يلفت الانتباه إلى خلل هيكل رئيس في النظام» [ميساروش: 17].

جاء التحول الهيكلي لرأس المال كارثيا على شعوب البلدان النامية. أولا، وعلى الضد من كل ما يشار حول نظرية المؤامرة في التاريخ، استدرجت الدول النامية للاقتراض من البنوك كوسيلة لتشغيل الأموال الفائضة عن حاجات الإنتاج والتجارة، وشكلت تسعين بالمائة من السيولة النقدية في العالم. وفي نفس الوقت جرى تشجيع الاختلاسات وسرقة الأموال وإعادة تهريبها للخارج كي تتورط الدول النامية في عجوزات دفع بعد أن عانت عجوزات في الميزان التجاري. هنا تقدم شيوك العصر (صندوق النقد الدولي) يفرض صفاته الليبرالية والخصخصة، فيما سمي «إعادة الهيكلة الاقتصادية»، تلك التي دمرت الاقتصادات الوطنية وأدت إلى تدهور الأوضاع المعيشية للجماهير في تلك الأقطار. جرى توظيف الديون في ابتزاز اقتصادات الدول وتدمير مشاريعها التنموية. انقلبت وظائف المؤسسات الدولية العاملة في خدمة الاحتكارات المتوحشة إلى هراوات تعديل هيكل متوحش لا تسفر سياساته إلا عن نتائج نقبضة: الزيادة الحادة في البطالة، الهبوط الحاد في تعويضات العمل والقيمة الاجتماعية للإنتاج، التناقم الحاد في التبعية الغذائية، التدهور الحاد في شروط الحفاظ علي البيئة، الانحطاط الحاد في أنظمة العناية الصحية والتنمية التربوية، التضائل الحاد في القدرة الإنتاجية للعديد من الأمم، نتيجة سياسات الإقراض وخدمة الديون، وأخيرا سقوط مجموعة كبيرة من أقطار قارات آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية، والدول العربية من جملتها، كانت قد انصاعت لتوجهات صندوق النقد الدولي، في براثن الهيمنة الكونية للرأسمال. جاءت محنة المجتمعات العربية واستشراس الأنظمة الاستبدادية وتعمق الفساد بعض ذبول تلك التطورات.

سخرت الرأسمالية المتوحشة الهيئات الدولية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية وكذلك مجلس الأمن لفرض تغلغل الرأسمال في اقتصادات كل دولة، يدخل ويخرج موسوقا بالأرباح تاركا الشعوب في حضيض الفقر والعوز. كما فرضت الليبرالية الاقتصادية على كل الدول، من خلال وصفات التكييف المفروضة من قبل صندوق النقد الدولي، خصخصة القطاع العام وتقليص خدمات الرعاية وإلغاء معظمها، حتى لقد وصل العطب خصخصة التعليم من الحضانه حتى الجامعة وتقليص خدمات الصحة.

في ظل القصور وإملاءات الهيئات الاقتصادية الدولية ابتليت الدول النامية بالأعطاب التالية: الدين الخارجي في ذمة الدول النامية ارتفع من 90 مليار دولار عام 1970، إلى 2000 مليار

دولار في نهاية القرن . وبفعل مقصّ الأسعار الذي يعمل لصالح الاحتكارات عابرة القارات برزت الظواهر التالية عند نهاية القرن الماضي :

- الأسعار الفعلية للمواد الأساسية التي تنتجها الدول النامية ، بما في ذلك النفط والغذاء والمواد الأولية ، انخفضت بنسبة 50 في المائة في العقدين الأخيرين؛
- 15 % من سكان العالم ، وفي بلدان الغرب تحديداً ، يسيطرون على أربعة أخماس ثروات الأرض؛
- 790 مليون نسمة يعانون من أمراض نقص التغذية المزمنة ، وأبناء نصف البشرية - قرابة ثلاثة مليارات - يعيشون على أقل من دولارين يومياً؛
- طفل واحد على الأقل يموت جوعاً كل خمس ثوانٍ ، وأكثر من 30 ألف طفل منهم تحت سن الخامسة .

بات واضحاً "عجز الرأسمال عن تقديم شيء لمحاوره المنطقيّ - الطبقة العاملة ، لا بل اضطر مؤخراً إلى التراجع عن بعض ما قدّم من تنازلات ، فهاجم بعنف دولة الرفاه' وكذلك الضمانات القانونية لحماية العمال والدفاع عنهم مستعيناً بقوانين متسلطة مناهضة للنقابات 'يسنّها ديمقراطياً'" [ميساروش:58] . وبرز بموازاة هذا الطريق المسدود خطر التلوث البيئي ، وبدت الديمقراطية عاجزة عن كبح جماح الاحتكارات ما فوق القومية ، كما تضخمت سطوة الأجهزة الأمنية السرية وتشعب تغلغلها في مجمل الحياة المادية والروحية للمجتمعات كافة ، واتسع نفوذ احتكارات الإعلام والانتاج الثقافيّ . انطوت سيورة الرأسمالية وتداعياتها على تناقضات حادة مثل التناقض بين الطابع الكونيّ لنشاط الرأسمال وتحكم السلطة القومية في إدارته وجني المكاسب من بدواته ، ثم التناقض بين النزوع إلى الخصخصة وازدياد دور الدولة في التدخل المباشر وغير المباشر في تنظيم وإدارة الاقتصاد لصالح الاحتكارات ما فوق القومية . "النظام لا يمكنه البقاء على قيد الحياة لفترة أسبوع واحد دون المساعدة الهائلة التي يتلقاها على الدوام من الدولة" [18] . بالنتيجة تتحشد الشروط الموضوعية "لأن يفقد النظام السياسيّ مشروعيته" ، حسب استنتاج البروفيسور ميساروش .

### تجفيف البحار لقتل السمك

ازدواجية السياسة الأمريكية ونفاقها المعلن دفاعاً عن حقوق الإنسان واحترام اتفاقية جنيف الرابعة ونشر الديمقراطية بات نهجاً مفضوحاً لم يعد يخدع إلا الراغبين في خداع الذات . فقد شهدت حقبة إدارة ريغان ، الخاضعة للمحافظين الجدد ، خلال عقد الثمانينات تصعيداً حاداً في التوتر الدوليّ ، وجرى على المكشوف دعم عمليات اغتيال المدنيين بالآلاف في بلدان نيكاراغوا

والسيلفادور وغرينادا . ردّاً على دعوة الثوار للاحتفاء بالشعب ، مثلما يحتمي السمك بالمحيط ، رفع شعار تحجيف مياه المحيط لقتل السمك! نشطت فرق الموت لتصفية الوطنيين داخل البرازيل والأرجنتين وغواتيمالا وبلدان أخرى في أمريكا اللاتينية ، مما افترض أمره في وقت لاحق . افترض كيف نفذت الإعدامات بحق المناضلين البرازيليين: يخرج المناضل من زنزانه ويصعد في طائرة ويقذف في عرض المحيط بعد أن يقرر بطنه ، كي تجذب الدماء أسماك القرش ولا تقترب جثة أحدهم من الشاطئ وتكتشف الجريمة! وفي السلفادور قتل خلال أربع سنوات حوالي 47 ألف مواطن على أيدي العصابات ، وهو ما يساوي الواحد بالمائة من سكان البلاد . وفي تقرير عن حقوق الإنسان افترض أمر خطة «تجفيف المحيط لاصطياد السمك» . فتحت سمع وبصر إدارة ريغان «قرى بأكملها قد أريدت من أجل عزل الثوار وحرمانهم من قواعدهم في الأرياف . وطبقاً لشهادات الناجين ، اشتملت العمليات على الاغتيالات والتعذيب والاعتصاب وحرق المحاصيل وبرنامج عام من الإرهاب والمضايقات» . وفي نيكاراغوا اعتبرت إدارة ريغان النظام السانديني الذي أنقذ بلاده من نير الديكتاتورية مرضاً شديداً عدوى يجب استئصاله . واستمرت عمليات التدخل طوال عهد ريغان وبوش الأب من بعده . ونظرت محكمة العدل الدولية في شكوى الحكومة الوطنية ضد إدارة الرئيس بوش الأب ، وأصدرت قرار إدانة للتدخلات الفظة والتخريبية من جانب الولايات المتحدة في شئون بلد آخر . ولم يردع قرار المحكمة الدولية إجراءات الإدارة الأميركية .

لا تتوقف سياسة المحافظين في الولايات المتحدة عن التدخل في أوضاع الدول الأخرى وبلا تحفظ . ومبكرًا أقاموا مشروعهم السياسي على دعم حرب فيتنام وإسقاط حكم أليندي في تشيلي وضرب أنظمة التحرر الوطني في قارات آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية . كما تأمر بعض عناصرهم لتعطيل التوصل إلى صفقة بشأن المحتجزين الأميركيين في إيران وتسهيل هزيمة كارتر في انتخابات 1980؛ انتقموا من كارتر لأنه ناهض خطة حكومة بيغن لتوسيع المستوطنات بالضفة ، تلك التي وضعها شارون ، وزير الزراعة آنذاك . ثم تورطوا لاحقاً في صفقات لتمويل حرب الكونترا ضد حكم الساندينيين في نيكاراغوا . وساعدت الحركة في تنظيم الحروب الأميركية في السلفادور وهندوراس (حيث تواطأ عضو المحافظين الجدد، جون نيغروبونتي في تنظيم أعمال التعذيب وساعد في تشكيل وتمويل فرق الموت التي عاثت في نيكاراغوا والسلفادور) . كما دعمت تصعيد سباق التسلح مع الاتحاد السوفيتي . وفي الشرق الأوسط أيد المحافظون الجدد صدام حسين في حربه ضد إيران ، وقام مانسفيلد بزيارة العراق ، العام 1983 ، وأجرى مباحثات مع صدام ، جرى على إثرها تقديم الأسلحة الكيماوية والحربية الأخرى؛ كما قدموا له الصور الملتقطة من الأقمار الصناعية . ثم انقلبوا عليه وشرعوا يحضرون لإسقاط حكمه . استطاعوا القيام بكل تلك الأعمال عبر أنصارهم داخل الكونغرس والحكومة .

طوّر المحافظون الجدد أسوأ تقاليد الحرب الباردة ضد قوى الاشتراكية وحركة التحرر الوطني

العالمية، واستثمرُوا خبرة كوادرها الاستراتيجية، وعلى رأسهم كيسنغر. عمل كيسنغر مع الإدارات الجمهورية مستشاراً للأمن القومي ووزير خارجية ومستشاراً غير مباشر يمنحونه أذانهم في التقاطعات الاستراتيجية.

ينقل بوب وودورد في كتابه "دولة الرفض" (ص 406) الذي صدر عام 2005 عن ديك تشيني قوله: "ربما أتحدث مع هنري كيسنغر أكثر من أي شخص آخر. يأتي إليّ مرة كل شهر ونجتمع معه، أنا وسكوتر (ليبي). ويمضي وودورد إلى القول: "الرئيس (بوش) يجتمع بصورة منفردة مع كيسنغر كل بضعة أشهر ويجعله المستشار في السياسة الخارجية؛ والسبب أن السياسة تؤثر في نهج المحافظين الجدد أكثر مما تؤثر الأيديولوجيا. أليس المحافظون الجدد مهووسين بالحروب لمتابعة هدفهم الأيديولوجي؟ هنري كيسنغر لم يستول فقط على أذني كل من تشيني وبوش كل بضعة أسابيع؛ فصبي كيسنغر، بول برايمر أرسل إلى العراق بعد احتلاله، العام 2003 وخدم هناك مندوبا ساميا كولناليا مدة كافية لوضع الدستور العراقي بحيث يسهل كل واحد من أهداف الغزو التي وضعتها واشنطن. واختبرت كفاءات برايمر لمدة عقد من الزمن، عندما عمل لدى كيسنغر مديراً إدارياً لمؤسسته "كيسنغر أسوشيتس انكو".

وهذا يلقي المزيد من الضوء على موضوع المحافظين الجدد. فسياستهم لا تخصهم؛ إنها سياسة واشنطن. ليست نهج جورج بوش أو ريتشارد بيرل، بل نهج واشنطن والتجمع الصناعي العسكري بالدرجة الأولى، وبالتبعية نهج سياسات الوول ستريت وبوينغ وبنك أميركا. وسبق الغزو في آذار 2003 ومهدله الحصار المنهك الذي تسبب في موت مئات ألوف العراقيين الذي فرضته إدارة كلينتون والطلعات الجوية فوق أراضي العراق والتصف الجوي المنهجي المنظم يومياً تقريباً. نشرت تقارير عدة تؤكد أن الإسرائيليين يندفعون للحرب لأنهم يرون أن لا مصلحة لهم بالسلام في المرحلة الراهنة؛ وقد يفقدون قيمتهم الاستراتيجية الراهنة في ظروف التوصل إلى اتفاقيات سلام مع الفلسطينيين والعرب. في عقد التسعينات اندمجت إسرائيل ضمن استراتيجية القرن الأميركي الجديد الذي وضعه المحافظون الجدد بهدف الهيمنة الكونية، وأقرّوا بموجبه مبادئ العولمة مرشدة للنظام الدولي الجديد.

علاوة على النزعة العدوانية وتوسيع سوق السلاح، أمنت السياسة الأمريكية في التدخل بالشؤون الداخلية للدول الأخرى ناشرة الفساد الإداري والانحلال الاجتماعي تحت حماية الاستبداد السياسي ورعايته. أسفرت ممارسات الرأسمال عن تكبيل الأقطار النامية بقيود صندوق النقد الذي فرض في المقام الأول خصخصة مؤسسات القطاع العام، وتقليص النفقات الحكومية على الخدمات الاجتماعية، وتحويل هذه إلى مشاريع رأسمالية. جرى تدمير قطاعات الاقتصاد الإنتاجي في أقطار العالم الثالث، وفتح التنافس على الأرباح الاحتكارية باب المضاربة على مصراعيه، وفتحت أبواب المضاربة لفوائض الأموال المنهوبة من ممارسات الفساد والإفساد في الأقطار الفقيرة.



## الاتكاء على الدين

الرأسمالية تعيد الاعتبار لماركس ، في كل مرحلة ، إذ يحكم إدارتها لنظام العولمة الجديد تسلّحت بمقولات الأصولية المسيحية لطمر الفجوة الفراغية في هيكلتها . لم تردّد إدارة ريغان في تأييدها ولأوّل مرة التوسّع الاستيطاني الإسرائيلي في الأراضي المحتلة . وساند ريغان حقّ اليهود في كامل فلسطين التاريخية ، فحسب زعمه: الربّ وهبها لهم .

اكتسبت حركة المسيحية الأصولية طابع الضرورة السياسيّة ضمن ظروف الأزمة البنيويّة للرأسمالية ، ومع تفاقم هذه الأزمة و بروز الاختلالات الاجتماعية . في بدايات عقد السبعينات شرع نورمان بودوريتس ينشر كتاباته . وبدايات أخرى للحركة نجدها في كتابات إيرفينغ كريستول ، الذي عمل محرراً للمجلة « كومينتاري » المناهضة للشيوعية ، وأبرز رموز الحرب الباردة الثقافية . وتعود بعض أصول الحركة إلى الجناح اليمينيّ داخل الحزب الديمقراطيّ ممن عارضوا موقف زملائهم المناهض للحرب الفيتناميّة . يعتبر البيرت ولستير الأب الروحي للسلفية المسيحية . وهو عالم رياضيات اختصاصيّ استراتيجيّ في الشؤون العسكريّة ، وشغل مستشاراً لفترة طويلة في البنتاغون ، توفي عام 1997 . وبتأثيره راجت دعوة المسيحية الأصولية وتيار اليمين الأمريكيّ المتطرّف إلى استخدام القنابل النووية ، وربط استخدامها بتأويل معاصر لمعركة هارمجدون التوراتيّة ، التي ينتصر فيها الخير على الشرّ متمثلاً ، حسب التأويل الأصوليّ ، في تحالف العرب والسوفييت . وقيل إن الرئيس الأميركيّ ريغان ردّد ثلاث مرّات أثناء رئاسته تحبيذه استخدام الأسلحة النووية . أما الأساس الفلسفيّ للتيار فيتمثّل في فلسفة ليو شتراوس ، مؤسّس رابطة الفكر الاجتماعيّ ، المتوفى عام 1973 . ودعت الرابطة إلى استخدام القوة لنقل نمط الحياة الأمريكيّة إلى العالم . أنشئت داخل الولايات المتّحدة مؤسسات لنشر الفكر السلفيّ الجديد - أميركان انتربرايز انستيتيوت ، هودسون انستيتيوت ، هيريتاج فاونديشن . وتشكّلت بنوك معلومات سيطرت على دوريات ودور نشر أمثال ويكلي ماغازين ، ناشيونال ريفيو ، كومنتاري ، نيوريوبليك ، ثم مجموعة موردوك المالكة لشبكة تلفزيون فوكس وعدد من الصحف . باختصار أرسيت الأسس الاقتصادية والثقافية لليمين المتطرّف بنزعة دينية أصولية .

حملت الأصولية المسيحية طابع الصهيونيّة ، منطوية على تطلّعات التجمّع العسكريّ الصناعي في الولايات المتّحدة للهيمنة السياسيّة والثقافية على الحياة الأمريكيّة وتأمين الأسواق لمنتجاته في العالم . وكان الرئيس الأمريكيّ أيزنهاور قد رصد التضخّم المتسارع للجبروت الاقتصاديّ للتجمّع وحذّر من تعاطم تأثيره المدمر على الحياة الثقافية والاقتصاديّة والسياسيّة داخل البلاد وفي العالم . وبحكم هذه الملابس اندمجت الحركتان السلفيتان المسيحية واليهوديّة واكتسبتا المضامين العنصريّة والفاشيّة العدوانيّتين على صعيد السياسات الدوليّة . أدخل موضوع أمن إسرائيل ، اللازمة التي نبرّ بها كلّ إجراءات الاقتلاع - الإحلال الإسرائيليّة ، ضمن الاستراتيجية الكونية المتطابقة مع المفهوم الأمريكيّ للأمن ، والنابعة من التسلّط و غطرسة القوة .

ومن الثمار السياسيّة لليمين الأصوليّ اعتماد إدارة ريغان مبادرة الدفاع الاستراتيجيّ المسماة حرب النجوم ، والتي صعّدت من سباق التسلح وأسهمت في تعميق أزمة النظام السوفييتي . ومن حصاد سياسته أيضاً انسحاب إدارة بوش الابن من معاهدة كيوتو ورفض التصديق على معاهدة إنشاء محكمة جرائم الحرب الدوليّة . وانسجماً مع ادعاء الامتثال للإرادة الإلهيّة يجري تنظيم العمليّات العسكريّة بأسلحة عالية التقنية ، بحيث تنزل ضرباتها قدراً لا رادّ له ولا عاصم من سطوته ، مثلما حدث ويحدث في أعمال العدوان ضدّ كلّ من يوغوسلافيا وأفغانستان والعراق وفلسطين . تشكلت ملاسبات اقتصاديّة وتقنيّة أتاحت للولايات المتّحدة احتكار أسلحة الدمار الشامل واحتكار القرارات الدوليّة . راحت بساطيرها العسكريّة تدوس على استقلال أكثر من 65 دولة ، وتحتكر التكنولوجيا والتجسس الإلكتروني . من جانبها بدأت السياسة الأمريكيّة مرحلة من المغامرات العدوانية . إن «المغامرات الأمريكيّة لا تعزى إلى ما أصاب خصم الحرب الباردة من ضعف حاسم ، بل على العكس ، إن الانهيار السوفييتي لا يمكن فهمه إلا على أنه جزء لا يتجزأ من أزمة الرأسمال البنيوية» [ميساروش: 37] . ويواصل استنتاجاته النبويّة برؤية ثابتة ، حيث تنبأ بالعدوان على العراق قبل أربع سنوات من حدوثه: «الموقف من نظام صدام حسين نابع من فشله في القضاء على النظام الجديد في إيران ، فاعتبر حينئذ عنصر عدم استقرار في منطقة غاية في عدم الاستقرار . إن ترقية صدام حسين إلى مرتبة عدوّ خرافي يملك من القوة ما يجعله قادراً على كل شيء ، يهدّد العالم بحرب كيماوية وبيولوجيّة ، إنما يوفر الإمكانية لغزو العراق ، إضافة إلى قتل مليون طفل عراقيّ دون رحمة» [ميساروش: 37] ، إلى أن يقول (ومن ذا الذي يستطيع أن يأتي بسبب ما يوضح لماذا لا يمكن تكرار عمليّات الاحتلال العسكريّ لمناطق أخرى من العالم) [ميساروش: 37] .

في ظلّ غياب قطب منافس ، وانحسار النشاط الاجتماعيّ - السياسيّ اليسار الراديكاليّ في العالم ، وغياب بديل إيديولوجيّ ثوري ذي حضور ، أصبحت دولة «الرفاه الاجتماعيّ» كلفة باهظة لا مبرر لها (على الصعيد الداخلي) ، وأصبح العالم ملعباً مفتوحاً بلا منافسين (على الصعيد الخارجيّ) . هكذا كان على الإمبرياليّة أن تخلع قناعها «الديمقراطيّ» و«المتمدّن» ، وترمي بأسطورة «العالم الحر» بعيداً ، وتراجع مجمل سياسات دولة الرفاه التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وطبقت في ظروف تنافس حاد مع الاشتراكيّة ، ثم تتمدّد داخلياً وخارجياً ، وتملاً الفراغات التي تركها «القطب» السابق .

ينسجم مع أسلوب الردع والتلاعب بالوعي ثقافة الأصوليّة التي يسترشد بها المسيحيّون الأصوليّون ، النواة الصلبية للمحافظين الجدد . يطلق عليهم المسيحيّون الصهانيّة ، فهم وسيلة اتصال بين الحركة الصهيونيّة وجمهور المسيحيّين . يرى اللوبي الصهيونيّ أن الفاشيّة المتداخلة بالعنصريّة الدنيّة هي الشكل الملائم للعولمة الأميركيّة ، التي تشكل إسرائيل أحد قواها الفاعلة .

شنّ هؤلاء هجماتهم ضدّ ثقافة الستينات ، وضدّ اليسار المحليّ والدوليّ؛ ويجلس أنصار إسرائيل في مجالس إدارة منظماتهم (مؤسسة هيريتيج الأميركيّة، هيريتيج فاوندیشن وغيرهما)؛ كما أن كل عنصر في بنية السلطة الأميركيّة يشاطروهم فلسفتهم بشأن إسرائيل . لإسرائيل الحق في أن تعمل ما تشاء تجاه جيرانها ومواطنيها وتجاه بقية العالم باسم الدفاع عن النفس .

يتوجب القول إن الأصوليّة المسيحيّة، القاعدة الفكرية للمحافظين الجدد، تيار ديني محدود لدى طائفة معزولة من البروتستنت الإنجيليين . عاشت على هامش التاريخ تردّد بين الفينة والأخرى الطقس الدينيّ بعودة اليهود إلى «وطن الآباء» وإقامة دولة اليهود كشرط لعودة المسيح وبدء الألفيّة السعيدة التي تختم الحياة على الأرض . ولذا أطلق على عقيدتهم الدينيّة «لاهوت ما قبل الألفيّة» . ولم يشار كههم العقيدة الشرائح الواسعة من المسيحيّة الأرثوذكسية والكنائس البروتستنتية والكاثوليكية . في أواخر القرن الثامن عشر ظهر فكر الاستشراق يصوغ حقائق مجتمعات الشرق وتاريخها وفكرها بما يلائم غايات التوسع الكولونياليّ الآخذ بالزحف على بلدان الشرق . دعا نابليون، وهو على أبواب عكا، اليهود للعودة وتأسيس مملكتهم من جديد . وتمّ اختلاق تاريخ قديم لإسرائيل وإسكات تاريخ فلسطين . وفي أواخر القرن التاسع عشر وجد اللاهوت وتأويله السياسيّ الدعم من الحركة الكولونياليّة للامبرياليّات الأوروبيّة الزاحفة للهيمنة على الشرق .

ومضت الأصوليّة المسيحيّة مع الأصوليّة اليهوديّة: حركتان صهيونيّتان متعاونتان مع السياسات الاستعماريّة . أدخل لاهوت ما قبل الألفيّة إلى الأكاديميات العسكريّة وبنات الغذاء الفكريّ والحافز الروحيّ للضباط والقادة العسكريين ، يصفون القداسة على حروب التوسّع الامبرياليّ، ودخلت رحاب الكليات الأكاديميّة المدنيّة والعسكريّة .

أما بصدد فلسفتهم السياسيّة الراهنة، فإن أفضل عرض لها متضمن في الوثيقة المرشدة لإدارة بوش الابن، مشروع من أجل قرن أميركي جديد . ويدعو البرنامج إلى زيادة الإنفاق العسكريّ واستخدام ذلك من أجل الحفاظ على وتوسيع الهيمنة الأميركيّة الكونية . ويعني هذا بالدرجة الأولى السيطرة على المصادر الأساس للطاقة - للنفط والغاز . والهدف الثاني عزل وتدمير أي قوة تعترض الهدف الأول، شعبيّة كانت أم حكوميّة .

ليست إسرائيل دولة لذاتها وبذاتها، ولها استراتيجية خاصّة بها؛ بل شكّلت منذ ولادتها امتداداً لاستراتيجيّات أوروبيّة ثم أميركيّة، رعت تطوّرها وأولتها عناية خاصة دون سائر الأنظمة السياسيّة في منطقة الشرق الأوسط . وحين تنال إسرائيل الضوء الأخضر الأميركيّ لعرض عضلاتها العسكريّة كقوة إقليمية كبيرة، فإنّها تنفّذ مشروعاً أميركياً يراعي المصالح الإسرائيليّة بالدرجة الأولى لتغيير خارطة الشرق الأوسط . وسجلّها الدموي حافل بالمجازر الجماعيّة والقتل، والتهجير، وبناء المستوطنات الجديدة، واغتيال القادة المقاومين لسياستها العدوانيّة، كل ذلك

من غير أن تعرّض لمساءلة أو ينزل بها عقاب . بل إن نجاحها في تدمير المجازر الجماعية عام 1948 وطرد عدد هائل من السكان الأصليين قد أهّلتها لأن تكون شريكاً للإمبريالية في بدواتها بمنطقة هامة استراتيجياً . وهي تمارس سياسة التطهير العرقي ضدّ العرب بصورة فظة أثارت احتجاج منظمات حقوق الإنسان والأمم المتحدة ، دون أن تستطيع وقف هذه الاعتداءات .

يقارب المسيحيون الأصوليون القضايا الاجتماعية والسياسية من منظور ديني متزمت . مدّوا أيديهم إلى التأويل الأصولي للدين لأنه يتيح لهم ، باسم قداسة المسعى والهدف ، إسكات خصومهم ، بأشدّ وسائل الإرهاب والحصار وتشويه المواقف ؛ ونظراً لأنه ، ثانياً ، يطلق الأيدي لاقتراف أخطأ جرائم الطغاة وجرائم الحروب ، وإسنادها إلى مشيئة إلهية لتحقيق غايات مسندة يصفون عليها القداسة؛ بينما هي أهداف للرأسمالية المتوحّشة . وثالثاً لأن للدين مكانة مستقرّة في الوعي الشعبي ، حملها معهم البيوريتان (المتطهرون) من بريطانيا ، وباسم الطهارة مارسوا أفضع جرائم إبادة الجنس . واليوم نجد إجماعاً صامتاً بين أغلبية الأمير كيين على قبول السياسات الدينية للولايات المتحدة . ولا يخامر هؤلاء الشك في صدق العبارة على ورقة الدولار «بالله نثق» ، وعلى مدخل مركز المخبرات المركزية في لانغلي تواجه الداخل عبارة من الإنجيل «ولسو ف نعلمك الحقيقة» . وكانت حفلات تقديم المتخاذلين في حملات المكارية ضدّ المثقفين المعارضين تجري في إهاب ديني ، ويقرن الشيطان بحملة الفكر التقدمي «المذموم» .

اكتسبت حركة المسيحيين الأصوليين دفعة قوية في منتصف سبعينات القرن الماضي حولتها إلى تيار سياسي رئيس حمل رونالد ريغان إلى سدة الرئاسة . ومن مظاهر تسيدهم للموقف أن شارك عدد من المحافظين الجدد في فضيحة إيران - كونترا . وبتأثيرهم وضعت الأسس للاقتصاد الريغاني الداعي للخصخصة وتقليص الإنفاق الحكومي وزيادة ما أمكن على نفقات التسلح . ومن الليبراليين الجدد وولفوويتز ، بيرل ، نيغروبونتي ، أدلمان ، وتشيني ، وكذلك أغلبية أعضاء الحزب الجمهوري .

منذ نشوء الدولة الأميركية سخر الحكام ، وعلى اختلاف مشاربهم السياسية والحزبية ، الدين والمؤسسة الدينية في تبرير سياسات وحروب وجرائم حكوماتهم المتعاقبة بدءاً بإبادة سكان القارة الاصلانيين وسود أفريقية وفقراء العالم من الملونين ، وصولاً الى العراقيين اليوم . حرص الآباء المؤسسون ، في مرحلة نشوء الدولة ، على صياغة نصوص قانونية ودستورية تضمن الفصل بين الكنيسة والدولة وبناء دولة علمانية تحمي الحريات الدينية . وبينما يحرم القانون الأميركي إلزام الطلاب بممارسة الشعائر الدينية ويترك القرار في هذا الشأن للوالدين لا لصانعي القرار السياسي؛ إلا أن هذا القانون ، بالمدلول العملي ، لا يمنع الطلاب من الصلاة أو دراسة الإنجيل في المدارس في أوقاتهم وتجمعاتهم الخاصة . وخلافاً للاعتقاد السائد عن الولايات المتحدة ، فإن الدين وممارسته مسألة حاضرة حضوراً قوياً في المدارس العامة الأميركية على أساس تطوعي

دون أن يلزم به القانون . ونجح الإنجيليون ، وهم يحظون بمباركة أعتى قوى الرأسمال ، في توسيع شبكة النوادي الإنجيلية Bible Club في المدارس العامة الأميركية .

تتفاخر أميركا بـ 'ديمقراطيتها' وحرية الأديان فيها . والحقيقة أن الولايات المتحدة دولة تجمع حقاً بين علمانية السلطة (الفصل بين الكنيسة والدولة) ودينية السياسة والمجتمع . والمجتمع الأميركي من أكثر المجتمعات تدنياً ، طالما الميديا لا تقيم تعارضاً بين الدين وعدوانية السياسة الدولية للولايات المتحدة . في هذه الأثناء يتم في ظل هذا الإجماع الشعبي التسليم السليبي والقبول الهادئ بسياسات الدولة لدرجة أصبح معها التداخل والاندماج بين الدين والسلطة هو الأمر المألوف والدارج . . والمقبول . وحسب مثال النمط الرأسمالي فتح الفصل بين الكنيسة والدولة المجال لخلق سوق حرة للأديان religious free market حيث تشتد المزاخمة بين المؤسسات والمنظمات الدينية على كسب الناس والمؤمنين وبناء تنظيمها او ما يسمى بالرعية ، كما يتزاحم رأس المال في سباق العرض والطلب على تسويق وبيع السلع وتحقيق الأرباح . سهّل هذا ، في المحصلة النهائية ، للسلطة السياسية مهمة توظيف الدين لخدمة أهدافها ، في ظل 'تصالح' أو 'مهادنة' قائمة فعلياً بين المؤسسة الدينية والسلطة السياسية . وهكذا خدمت هذه المصالح أهداف كلا الطرفين وشكلت العامل الرئيسي في تحالفهما على مدى أكثر من قرنين ، وهو ما يفسر قدرة الدولة العلمانية والسياسات الدينية على التعايش في تناغم واعتماد متبادل .

وحيث أن ثقافة الجمهور خليط غير منسجم بات من اليسير أن تتعايش في الثقافة الشعبية نصوص علمانية على مستوى الدولة ، وممارسات ورموز وأفعال دينية تبدو مناقضة . وسهّل هذا التعايش على مستوى المجتمع والثقافة الشعبية ، صعود التيار الديني المتزمت واليميني المتطرف في العقود الأخيرة ، في ظل استثمار رأس المال في سياساته الداخلية والخارجية لتحقيق الربح الأقصى بلا حدود ودون عوائق أو حواجز . وهذا ينذر بعواقب كارثية تجرها السياسات الأميركية على العالم .

انتقد البروفيسور إدوارد سعيد طروحات بايس في كتابه «على درب الله: الإسلام والسلطة السياسية» (1983) واعتبره موضوعاً «في خدمة دولة معتدية وتدخّلية هي الولايات المتحدة ، يساعد بايس في تعريف مصالحتها . . .» كتاب بايس يشهد على مرونة الاستشراق الفريدة وعلى عزله عن التطورات الفكرية في جميع الميادين الأخرى من الثقافة ، وعلى غطرسته العتيقة البائدة ، سيما حين يتصل الأمر بتلك الطروحات الجازمة القاطعة التي لا تضع سوى اعتبار طفيف للمنطق وللحجة . « [إدوارد سعيد: 42] . في كتابات بايس ، يقول سعيد ، «يتجلى الموضوع الأكثر شيوعاً بين مواضيع الاستشراق؛ إنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم ، ويتوجب بالتالي تمثيلهم من قبل آخرين يعرفون عن الإسلام أكثر مما يعرف الإسلام عن نفسه ( . . ) ذلك لا يعني غياب أي تبادل بين وجهات نظر الإسلام ووجهات نظر الآخرين ، وغياب الحوار والنقاش والاعتراف المتبادل؛ ولكنها مسألة تأكيد مسطح للكفاءة التي يمتلكها صانع السياسة الغربية أو خادمه الأمين ، بفضيلة كونه الغربي ، والأبيض وغير المسلم . وأشهد أنه هنا ليس

بالعلم ولا المعرفة أو الفهم؛ إنه إعلان قوّة وزعم بالسلطة شبه المطلقة . وهو يتأسس من منطلق العنصرية .» [المصدر السابق ، 45-44]

ويعلم الأكاديمي دانيال بايس دوراً متميزاً في الحملة . وجد دانيال بايس علاقة سابقة بالدانمارك والمهاجرين إليها . جمع المعلومات عنه الصحفي جهاد الخازن لما قرأ مواضيعه العنصرية: الجريدة الدنماركية بيلا ندس - بوستن نشرت الرسوم الكاريكاتيرية الساخرة من النبي والإسلام في 20 أيلول (سبتمبر) 2006 ، ومحررها فلمنغ روز صديق لبايس . كتب مقالة بالمشاركة مع لارس هيدغار ، وهو دنماركي ينتقد الإسلام باستمرار ، ونشرته جريدة «نيويورك بوست» في 2002/8/27 .

زار روز منتدى الشرق الأوسط في فيلادلفيا وأجرى مقابلة مع بايس نشرتها جريدته في 2004/10/29 . نقرأ في المقابلة قول بايس إن هناك شبهةً كبيراً بين أساليب الإسلاميين وأهدافهم ، والشيوعيين والفاشيست ، وكتب روز ان بايس «مذهول» ، لأن أوروبا ليست خائفة من تحدي الإسلام .

يفرض سلوك المحافظين الجدد مقارنات بين موقفين يتجليان في تأويل الدستور الأميركي: من جهة تثور عفاريت اللوم والشجب وتصل حتى الطرد من الوظيفة . أكاديميون يطردون من جامعاتهم بسبب مواقف سياسية ، خاصة ما يمس إسرائيل . وعزرت المراسلة الصحفية الأميركية هيلين توماس ، وقامت حولها عاصفة من التنديد والانتقاد لأنها عبرت عن موقف منتقد تجاه إسرائيل . هي عميدة مراسلي البيت الأبيض ، ومنذ العام 1961 ، احتلت مكانها في الصف الأمامي داخل قاعة الصحافة في البيت الأبيض التي تضم 49 صحافياً وصحافية . وظلت تتمتع بهذا الامتياز المحصن إلى أن حُرمت منه عندما تجرأت وانتقدت سياسة إسرائيل . وما يلاقيه الأكاديميون المنتقدون لسياسات إسرائيل مؤشر على انعدام التسامح والمواقف الفاشية العنصرية .

وأقالت شبكة التلفزة الأمريكية CNN أحد مذيعيها المشهور ، «ريك سنتسز» ، وهو نجم تلفزيوني لامع اشتهر بأحد البرامج الكوميديّة الناجحة على القناة ، وذلك بعد اتهامه لليهود بالتحكم والسيطرة على الإعلام الأمريكي ، واتهم الممثل الهزلي اليهودي جون ستوارت بالعنصري وصاحب الأفكار المجحفة . ذكرت صحيفة يديعوت أحر ونوت أن مقدم البرامج ، ريك ، استضاف الممثل اليهودي ، ستوارت ووجه له انتقادات ، كما اتهم اليهود بالتحكم في جميع الوسائل الإعلامية في بلاده . وما إن انتهى البرنامج حتى نشرت شبكة CNN رسالة موجزة بيّنت بموجبها أنه تم إقالة مقدم البرامج ، ريك ، من عمله لسوء التصرف .

بالمقابل يحظى بالتسامح عنصر المحافظين الجدد . يرصد إدوارد سعيد رابطة قال بها إرنست رينان ومارسيا بروست بين الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) والعداء للسامية . وهنا يتوقع المرء أن العداء للإسلام في الغرب المسيحي الحديث سار جنباً لجنب ، وانشق من المصدر

ذاته ، وتغذى من نفس منبع العداة للسامية ، وأن التحليل النقدي للعقائد الجامدة المتشددة ، ولدوغمائيات الاستشراق وإجراءاته التعليمية تساهم في توسيع فهمنا للأليات الثقافية وراء العداة للسامية . هذه الرابطة التي لم يطررها أحد من النقاد ، الذين رأوا في التحليل النقدي للاستشراق فرصة سانحة لهم كي يدافعوا عن الصهيونية ويدعموا إسرائيل ويشنوا الهجمات على الحركة القومية الفلسطينية» [إدوارد سعيد: 47-46]

موعظة ألقاها الأسقف هاغي ، من تكساس ومؤسس «مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل» في الولايات المتحدة ، في تسعينات القرن الماضي مجدها أدولف هتلر ، «الذي نفذ خطة الرب لعودة اليهود إلى إسرائيل ، حيث لم يترك لهم مكانا يختبئون فيه داخل القارة الأوروبية» . الدين المسيحي يقدس جرائم الأنظمة الفاشية ويبررها بأنها إرادة الرب . الحقيقة أن هتلر بممارساته النازية ليس أكثر وحشية من أولئك الذين يهجون البشر عنوة من أماكن سكنهم كي يسكنوا فيها بشراً من جلدة مختلفة . اعتبر البروفيسور إيلان بايه ، مؤلف كتاب التطهير العرقي في إسرائيل الإجراءات الإسرائيلية «عنصرية مموهة بالخرافات والكتب الدينية» . وقدّم ما يطلق عليه «تلفزيون الرب» تبرعات لزراع غابة على مضارب البدو قرب بحر السبع ، وذلك كي يعطي صفة حضارية لطرد البدو من أماكن سكنهم . وبحكم توجهه العنصري تحول «تلفزيون الرب» في غضون خمسة عشر عاماً إلى أوسع القنوات الإنجليزية انتشاراً في العالم ، ويدعي أن نصف مليار نسمة يتابعون برامجه ، منهم عشرون مليوناً في الولايات المتحدة وخمسة عشر مليوناً في بريطانيا . وترتبط القناة بروابط وثيقة مع حركة الكاهن هاغي ، ومارست الضغوط في واشنطن لصالح الاستيطان غير الشرعي بالضفة الغربية ومن أجل سيطرة إسرائيل على جميع الأماكن المقدسة في القدس .

يجري السكوت عن تصريح هاغي أو بات روبرتسون وغيرهما من المسيحيين الأصوليين ، عملاً بالدستور الذي يكفل حرية التعبير ، نجد سلطة اللسان لدى داعية الاغتيال السياسي ، بات روبرتسون تقابل بتسامح! فهو لا يكف عن اتخاذ المواقف وإطلاق التصريحات التي تضعه على كل شفة ولسان . «هل هذا تفكير رجل أحمق أو غبي؟» علقّت صحيفة واشنطن بوست على دعوته لاغتيال هوغو تشافيز . وبعد يوم واحد فقط من دعوته لاغتيال الرئيس الفنزويلي صرّح بالتالي: كان لإبراهيم ولدان . الأول يدعي إسحق ، والثاني إسماعيل ، والتوراة تتحدث عن إسماعيل كحمار برّي ، لم يكن من الممكن السيطرة عليه . وتكاد تلك البذرة من العصيان والسخط المنفلت هي التي رشحت إلي هؤلاء الناس ، بحيث أن روح الجريمة تلك هي التي تحرك الإرهاب الإسلامي! . يجري التشديد دوماً ، بالطبع ، أن روبرتسون مواطن أمريكي حرّ يكفل له الدستور التعبير عن آرائه بحرية تامة .

عما سقط شارون في الكوما باشر باترسون للتصريح بأن هذا جزء الرب على الانسحاب من غزة . اتخذت ضده عقوبة فسحب منه موقع على جبل الشيخ طوره إلى منتجع للسياحة

والتثقيف اللاهوتيّ . وفي الحال تراجع عن الفتوى وأعلن أن الرب همس في أذنه! هكذا يتلاعبون بالأفكار والمواقف؛ ولا أحد يعترض على التهريج المتبذل! جاءت دعوة باترسون نموذجاً لمدى تمسك اليمين بالديمقراطية والحوار والتسامح حيال الرأي المخالف . وهو لا يوقّر بسلطة اللسان أياً من خصومه؛ وعندما انزلق ماكين - وكان منافساً لجورج بوش في الانتخابات التمهيدية لمنصب الرئاسة - إلى اتهام المبتشر الجبار بقيادة جحافل الشرّ داخل الحزب الجمهوريّ ، لم يكن أمام منافسه جورج بوش الابن سوي التمرغ أكثر فأكثر في أحضان تلك الجحافل بالذات . تضمّ حركة باترسون ما يزيد على 2، 1 مليون عضو منتسب ، 'التحالف المسيحيّ' منظمّة تدير إمبراطورية هائلة عمادها التبشير الدينيّ المتلفز عبر عشرات الشاشات ، التي بينها الشبكة المعروفة CBN ، فضلاً عن 'قناة الأسرة' المستقلّة ، والعديد من الإذاعات ، وجامعة معلنة واحدة علي الأقل هي جامعة ريجنت ، و'المركز الأمريكي للقانون' . فوق هذا وذاك ، التفّ ويلتفّ حول المنظمة كبار أفيال الحزب الجمهوري ، ممّن يشغلون أرفع المسؤوليات في الكونغرس . وفي شئون العالم ما وراء المحيط ، كان روبرتسون أكثر ممّن أطلق السباب المقذعة في حقّ بطرس بطرس غالي حين كان الأخير يشغل منصب الأمين العام للأمم المتّحدة ، وفي حقّ كوفي أنان بعده . ولقد طالب ويطلب بنقل مقرّ الأمم المتّحدة خارج أمريكا ، وتخليص بلاد العمّ سام من 'مجمع الأبالسة السود والسمر والصفير ، الذي يدنس نيويورك ، ويلوث طهارة أمريكا' . و'النظام الدوليّ الجديد' . واليوم تقف على رأس لجنة الشئون الخارجيّة بمجلس النواب الأميركي ، روس ، وهوايتها الدعوة للاغتياالات ، ومعروفة بولائها الكامل لإسرائيل ، ما يعرفل أي إدانة للمستوطنات . وما أيسر أن يدعو المسيحيّون الصهاينة إلى اغتيال هذا وذاك من خصومهم!

يقف بجانب باترسون في العداة للإسلام بيرنارد لويس ، المستشرق والاختصاصي في شئون الإسلام . إنه الرجل الذي نصّح بوش قبيل غزو العراق أن اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب هي القوة . بلغ شطط لويس في التجنّي وقلب الحقائق حدّاً أعاظ الكثيرين ومنهم آلان غريش رئيس تحرير لوموند ديلوماتيك . فقد كتب في العدد الصادر في 2004/9/10 مقالة عن الأكاديميّ الذي «منذ وصول جورج والكر بوش إلى سُدّة الرئاسة الأميركيّة ، أصبح برنارد لويس مستشاراً مسموع الرأي ومقرباً من المحافظين الجدد ، لاسيّما منهم السيد بول وولفويتز . وقد خصّه هذا الأخير ، عندما كان مساعداً لوزير الدفاع ، بتحيّة مُدوية ، خلال حفل تكريميّ أقيم للويس في تلّ أبيب في آذار/مارس 2002: «علمنا برنارد لويس كيف نفهم التاريخ المعقّد والمهمّ للشرق الأوسط واستخدامه ، ليقودنا نحو المرحلة الجديّة من أجل بناء عالم أفضل للأجيال الصاعدة» . وبعد عام ، «قاد» لويس الإدارة نحو «مرحلتها الجديدة» في العراق . وكان قد أوضح أنّ اجتياح هذا البلد سيخلق فجراً جديداً ، بينما سُسْتَقْبَل القوّات الأميركيّة كقوّات تحرير ، وأنّ «المؤتمر الوطنيّ العراقي» ، برئاسة صديقه المنفيّ والفاقد وقليل النفوذ ، أحمد الشلبي ، سيُعيد بناء العراق الجديد .



في مقالة نشرتها له صحيفة وول ستريت جورنال دعا إلى الحرب ضدّ الإسلام ، مستخدماً تعابير مجازية تستوحي المزاج النفسي للقارئ الأميركي خصوصاً بعد تفجيرات أيلول . اختصر خمسة عشر قرناً في بضع جمل ؛ ليس من أجل التبسيط بل لاختزال المسلمين في «العدو» الآخر ، الخطر على المسيحية . منذ عهد النبي والصراع متواصل بين الإسلام والمسيحية . مختصر الكلام : إنهم «لا يحبّوننا» ، ليس بسبب ما فعله بل لأنهم «يرفضون» قيم الحرية الخاصة بنا ، ولأنهم فقدوا جبروتهم قبل قرنين من الزمن . كيف نفسّر تأميم قناة السويس من قبل جمال عبد الناصر في العام 1956؟ بكراهية المسلم للغرب؟ وسقوط شاه إيران وثورة 1979؟ بكراهية الغرب . والانتفاضات الفلسطينية المتكررة ضدّ تجريدهم من أرضهم؟ كراهية الغرب . المقاومة في العراق؟ كراهية الغرب . ولماذا يكرهون الديمقراطية؟ يوضح لويس : «طالما سعى الإسلام الضعيف ، منذ قرنين ، للحصول على الدعم في مواجهة عدوه - الديمقراطية الغربية» وهذا ما أورده ألان غريش في مقاله المطولة .

ولكي تتشكّل لدى القارئ صورة كاملة عن مدى التشويهات والأكاذيب المعروضة باستمرار للتحريض على المسلمين بدوافع كونليالية ، نتوسع في كتابات لويس العنصرية . إن جوهر العداء للمسلمين يكمن في تسهيل الطرق أمام مصالح أميركا في المنطقة العربية - الإسلامية : يطرح لويس أسامة بن لادن قائداً للمسلمين كافة ، مبرراً جميع الجرائم المقترفة ضدّ شعوب أفغانستان والعراق للردّ على الخطر الوجودي الوافد من القاعدة . إنه بذلك يحيي ذكرى الأفعال المقيتة ضدّ اليهود حين اتهموا بعجن فطير السبت بدماء أطفال المسيحيين . إنها دعوات أبارتهايد لإعادة إحياء جرائم هولوكوست ضد المسلمين . لويس يفاقم من خطر بن لادن كي يبدّر المخاوف بين الأميركيين ويدفع مقولة الحرب ضدّ الإرهاب ، حرباً ضدّ المسلمين باعتبارهم هم الذين أعلنوها . وفي كل ذلك يضع مكانة لإسرائيل في هذه الاستراتيجية مؤكداً موقفها الدولة الديمقراطية لليهود والأبارتهايد ضد الآخرين .

«إنهم» مختلفون في العمق عنّا . يرفضون حتى . . . الموسيقى الغربية ، يشدد برنارد لويس . الهجوم على الثقافة الغربية ، التفسير الذي روجه طويلاً برنارد لويس ، اعتبره إدوارد سعيد «الصيغة البائسة ، التبسيطية والخاطئة في الآن ذاته من نوع بيرنارد لويس ولجأته الأقرب الى الكوميديا ، كشهود تحرّكهم بواعث سياسية لا تفلح في إخفائها نغماتهم المتحلقة واستعراضهم غير المقنع للعلم بالأشياء» [المصدر نفسه ، 110] . إن السائح المُسرّع ، الذي يتنزّه في شوارع القاهرة ، لم يسمع على الأرجح نوتات موسيقى موزار أو برازمتصاعد من المحلات التجارية في السوق . يردّ عليه إدوارد سعيد: لكن ، هل سمعها في مقاهي لندن أو باريس؟ يستنكر إدوارد سعيد هذا الكلام ، وهو الخبير في الأوبرا والموسيقى الكلاسيكية: «هناك عدّة عواصم عربية تملك معاهد جيّدة للموسيقى ، منها القاهرة وبيروت ودمشق وتونس والرباط وعمّان وحتى رام الله . وقد خرّجوا فعلياً آلاف الموسيقيين الممتازين ، على الأسلوب الغربي ، وهم يؤدّون

في العديد من الاوركسترات السمفونية والاورات التي تغص بالمستمعين ، فهناك العديد من مهرجانات الموسيقى الغربية تنظم في العالم العربي ( . . . ) . ويضيف سعيد متسائلاً: لماذا يستخدم لويس سلاح الموسيقى الغربية لمحاكمة الإسلام؟ لماذا لا يأخذ في الاعتبار السجل الاستثنائي للموسيقى في العالم الإسلامي؟

الحقيقة أن لويس لم يتبنَ نظرية هيتلر حول صراع الحضارات ، إنما هو واضح أسسها في كتاباته السابقة ، محرّضاً على الحرب بين الإسلام والمسيحية مع غصّ النظر عن ممارسات إسرائيل . الدفاع الذي يقدمه لويس يتحوّل «إلى ممارسة للطوية السيئة الجليلة ، نظراً لأنه أكثر من معظم المستشرقين كان محازباً سياسياً ومشوباً ضد القضايا العربية (وغير العربية) في محافل مثل الكونغرس الأميركي ومجلة كومنترى وسواهما . والردّ المناسب عليه ينبغي ، بالتالي ، أن يتضمن عرضاً لموقفه سياسياً وسوسولوجياً حين يتظاهر بالدفاع عن «شرف» حقله . وهو دفاع يثبت الدليل القاطع أنه حلوى متقنة من أنصاف الحقائق الأيديولوجية التي يراد منها تضليل القراء من أنصاف الاختصاصيين» [إدوارد سعيد: تعقيبات ص 123] .

ويعمل في خدمة المسيحية الصهيونية الدكتور فؤاد عجمي ، وهو من جنوب لبنان . كان مع عدد من الليبراليين الجدد من أصل عربي من المحرّضين على غزو العراق . وفي آب (اغسطس) 2002 قال نائب الرئيس ديك تشيني محرّضاً على العراق ، «أما عن ردّ فعل الشارع العربي فخبير الشرق الأوسط البروفسور عجمي يتوقّع أنه بعد التحرير ستشهد شوارع البصرة وبغداد فورة سعادة كما استقبل الأميركيون في كابول» . صدر كتابه «قصر أحلام العرب: رحلة جيل» في 1998 ، ونشرت مجلة «كومنتري» ، إحدى منابر ثقافة الحرب الباردة ، وتحوّلت باتجاه حرب باردة جديدة ، عرضاً للكتاب بقلم دانيال بايس ، كان شبه قصيدة غزل . رأى المؤلف شاعراً لأنه كتب ان إيران مفتوحة لقوة الأفكار ، أما ثقافة الجزيرة العربية والخليج فهي فجّة تقرّرها العشائرية وأهواء الرجال . ثم قارن بايس بين عجمي وعرب أميركيين بارزين مثل خليل جهشان ورشيد الخالدي ومحمد مهدي وجيمز زغبي وقال إنه يختلف عنهم في أنه «وطنيّ أميركي» .

وضمن الجوقة ينشط كل من الدكتور وفاء سلطان وكنعان مكّي وغيرهما من الليبراليين المتطوعين للحطّ من الإسلام كعقيدة وبصورة عامة .

في 2007/6/8 كتب فؤاد عجمي في «وول ستريت جورنال» مقالاً بعنوان «جندي سقط» ، كما لو في معركة ، على شكل رسالة مفتوحة الى الرئيس بوش دعاه فيها الى العفو عن لويس ليبي ، مدير مكتب تشيني السابق ، الذي أدين وحكم عليه بالسجن بتهمة الكذب وعرقلة التحقيق في تسريب اسم عميلة الاستخبارات فاليري بلوم . وليبي من عصاة الحرب التي قتلت مليون عراقي ، وعجمي يدافع عنه لأنّ دوره مثله ، وبوش يعفو في النهاية لأنّ إدارته ارتكبت الجريمة .

أما المقال الثاني فيراجع انتقاده «صراع الحضارات» ويقول إن صموئيل هنتغتون معه حق وأنه، أي عجمي، أساء تقدير عمق الصدام بين الإسلام والغرب، أي أنه يزداد تطرفاً عندما يراجع نفسه.

أجرى داوود الشريان مقابلة مع فؤاد عجمي لصالح مجلة «إيلاف» الإليكترونية. وصفه الشريان بأنه «أبرز المنظرين الأميركيين لفكر المحافظين الجدد، والوحيد من بين الأكاديميين الذي أصبحت عبارته جزءاً من خطب وتصريحات بعض ساسة البيت الأبيض، فهو وصف الحرب على العراق بـ«النبيلة»، وهو تعبير لم يسبقه إليه أحد في وصف الحروب». عبّر عجمي عن «القناعة أن بوش الابن يؤمن بتقديم الحرية إلى الغرباء. وفي الولايات المتحدة، يسخر الليبراليون، وهم المكوّن الطبيعي لنشر الحريات، من العرب بالقول إن تركيبة حمضهم النووي تفتقر إلى جينة الحرية، بينما يعصّر الرئيس المحافظ على إمكانية تصديرها...».

### الردع بدل الحوار

في هذا المناخ أقام المحافظون الجدد نظام حراسة لممارسات إسرائيل. يجدر، في البداية، التذكير بنبوءة رون جاكوب من أن سياسة المحافظين الجدد سوف تتواصل في نهج الديمقراطيين فيما لو فازوا بعد انتهاء ولاية بوش الابن؛ ونذكر أيضاً بجواب هيلين ثوماس، عميدة مراسلي البيت الأبيض سابقاً، على سؤال بصدد ما إذا كان الرئيس الأميركي يملك الجرأة في قضية الشرق الأوسط، فأوضحت: «في هذا المجال يفتقد أوباما الشجاعة لأن يصارح الإسرائيليين ويقول لهم: اخرجوا من أرض فلسطين، وتوقفوا عن ضمّ المستوطنات ومصادرة مياه الضفة الغربية». أكثر من ذلك، فالمحافظون الجدد ينظمون عمليات مطاردة صيد إرهابية ضدّ الأكاديميين داخل الجامعات الأميركية ممن يظهرون العطف والتضامن مع الشعب الفلسطيني. وبضغوط من أكاديميين أمثال دانيال بايس، وديفيد هوروفيتش طرد من وظائفهم بالجامعات أكاديميون كثر. من ضحايا حملات تفوّقت على المكارثية كل من وارد تشرشل الذي طرد من جامعة كولورادو، ونورمان فينكيلشتاين الذي رفضت جامعة دي بول تجديد العقد معه وأفشلت منحه درجة أستاذ رغم الثناء الواسع على أبحاثه وجهوده الأكاديمية. وتدخّل من خارج الجامعة لمنع تجديد العقد معه ألان ديرشوفيتس عميد كلية الحقوق بجامعة هارفارد واليهوديّ الأرثوذكسيّ. وفي مقال على موقع كاوتر بانث أورد دانيال كلارد، ضمن قائمة ضحايا المطاردة التي ينظمها المحافظون الجدد، كلا من البروفيسور سامي العريان، جو كوئيل، ويليام روبنسون، ناغيش راد، مارغو راملا-نانكو، لوريتا كيهيرش، وكلهم اتهموا بـ«انتقاد تصرّفات إسرائيل» تجاه العرب. وكانت مارغو متميّزة في دراساتها وتدرّسها نالت ثناء طلبتها، لكن موقفها من الصراع العربي الإسرائيليّ جلب عليها المتاعب. ورفضت كلية نيو جيرسي تجديد خدمة ناغيش راد، أستاذ مساعد في قسم اللغة الإنجليزية، ورفضت إدارتها ترفيعه لمرتبة أستاذ بسبب انتقاداته لتصرّفات إسرائيل في الأراضي المحتلة. أما البروفيسورة لوريتا كيههارت فقد استهدفتها إدارة جامعة نورث

إيست إينويس بسبب مواقفها السياسيّة، وهاجمها صراحة نائب الرئيس، ورفعت ضده قضية تشهير. وتعرض للمتاعب أيضا ويليام روبنسون، البروفيسور بجامعة كاليفورنيا سانتا باربارا، أستاذ الدراسات الاجتماعيّة والكونيّة؛ فقد استنكر العدوان على غزة. ومن الضحايا المباشرين حتى في الحرم الأكاديمي للموقف من إسرائيل كان الدكتور فنكلشتاين، وشكلت قضيتته إحدى فضائح قمع الحريات. هو يهودي، ابن أسرة قضت ضحايا الهولو كوست، ونشر كتاباً ينتقد توظيف الهولو كوست لاضطهاد شعب آخر. عمل محاضراً بجامعة دي بول الكاثوليكية، وقدم طلب ترفيع لدرجة بروفيوسور بناء على أعمال علميّة أنتجها، ونالت شهرة واسعة.

وكانت شهرة فنكلشتاين قد شاعت في مطلع حياته الأكاديميّة عندما تجرّأ على انتقاد كتاب «من بدء التاريخ»، وفضح كذب مؤلّفة الكتاب، جين بيترز التي زعمت وجود إسرائيل منذ أقدم العصور، وأنكرت سرقة أراضي الفلسطينيين. والغريب أن ألان ديرشوفيتز، عميد الحقوق بجامعة هارفارد، توكأ على كتاب بيترز، وسرق مقتطفات منه دون إشارة للمصدر، فتصدّى له فنكلشتاين، في كتابه «ما وراء الفضيحة»، حيث استطاع أن يجري مقارنة بين الكتابين تضمّن نشر مقاطع منهما جنباً إلى جنب لإثبات سرقات ديرشوفيتز.

وكتب حول الموضوع ماتيو أبراهام مشيراً إلى وظيفة الجامعة في مناقشة قضية انتهاك إسرائيل لحقوق الإنسان الفلسطينيّ. قال الأستاذ الجامعي: أعمل مساعد أستاذ بجامعة دي بول في شيكاغو، حيث عمل نورمان فنكلشتاين، أشجع من وطئت أقدامهم الأرض الأكاديميّة في الولايات المتّحدة في نقد السياسة الإسرائيليّة في فلسطين.

وبصدد قضية وارد تشرشل، أنكر دريك، الذي ألغى قرار التعيين، أنه تعرض لأي ضغط من جانب المتبرّعين أو السياسيّين أو مجلس أمناء جامعة يواس كاليفورنيا. ومع ذلك أبلغت أستاذة علم النفس بالجامعة، إليزابيث لوفتوس، وهي عضو في لجنة البحث، صحيفة لوس أنجلوس تايمز، أن دريك أبلغ اللجنة أنه أجبر من قبل قوى خارج الجامعة على اتخاذ القرار، دون أن يحدّد الجهة الضاغطة. وقد أكد عضو آخر بالجمعيّة ما قالته البروفيسورة، مشروطاً عدم ذكر اسمه.

بدأت حملة الرد على مقالة تشرشل في يناير 2005 وأججها من خارج النطاق الأكاديمي، ديفيد هوروفيس من فوكس نيوز، حيث سلّط الأضواء على الأكاديمي تشرشل. في ذلك الحين استقالت رئيسة الجامعة، إليزابيث هوفمان (وهي من الجمهوريين) بعد أن أبلغت الجامعة قبل أسبوع من تقديم استقالتها خشيتها من عودة الـ 'مكارثيّة'. أما خلفها، براون، فشنت حملة ضارية لطرد تشرشل، و طرح القرار على الطاولة. غدا البروفيسور تشرشل بجامعة كولورادو شخصيّة عامّة في نظر أستاذ التاريخ بجامعة تونتس، غاري لي أب: «بتنا، نحن أساتذة الجامعات، موظفين في مؤسّسة. ويجري تصنيفنا بعدد الطلبة الذين تجتذبهم محاضراتنا، والخدمة التي نوّديها لأمريكا الشركات عن طريق التأثير في أذهان الشباب كي يخدموا الأطماع الأمريكيّة في

الخارج . والبعض يستخدم ورق كشاف إيدولوجي لاختبار الموظفين الأكاديميين ، وكيف يروجون لأمريكا أفضل بلد في العالم (وربما كونها نهاية التاريخ) .»

وفي نداء أصدرته جمعية أساتذة الجامعات الأميركية احتجاجاً على الموقف من البروفيسور تشرشل قالوا فيه ، «نحن نؤمن أن التحقيق الجاري في سلوك تشرشل يشكل الغطاء لطرده من الجامعة ، حيث السبب الحقيقي لذلك يكمن في مواقفه السياسية . نحن نذكر كيف أقدمت هذه الإدارة على الكذب أكثر من مرة لتبرير عدوانها ضد العراق . ونستذكر أيضاً الموقع المركزي لتشيبي في كل التلفيقات ، حيث ظل يصرّ على وجود روابط بين القاعدة والعراق ، تلك التلفيقات التي شكك فيها بالكامل أناس يستخدمون التحليلات المنطقية ، أناس يفترض فيكم أن تقفوا معهم وتساندوهم» .

وأستاذ جامعي آخر تعرض للتمييز بسبب «مواقفه موضع الجدل» ، فقد انقضى أسبوع واحد على تعيين إيرفين تشيميرينسكي عميداً لكلية الحقوق بجامعة كاليفورنيا حين أقدم المستشار ميشيل دريك على سحب التعيين ، وأبلغ أستاذ القانون بجامعة ديوك ، تشيميرينسكي ، أنه موضع جدل شديد من الناحية السياسية . والبروفيسور أحد ألمع أساتذة القانون و علماء القانون الدستوري في الولايات المتحدة . كتب عدداً من الأبحاث الرائدة في القانون الدستوري ، وألف أربعة كتب ، وكتب أكثر من مائة مقالة عرض فيها مطالعات قانونية . وفي العام 2005 اعتبرته الشؤون القانونية «أحد أبرز عشرين مفكراً حقوقياً بالولايات المتحدة» .

وقال لي أب (إن رئيس جامعة كولورادو ، هانك براون ، عضو بالمجلس (أمناء الجامعات) وأحد التابعين لديك تشيني ، فهل تعتقدون أنه يريد الجامعة منبراً لحوار موثوق؟ وإذا لم يكن كذلك ، فهل تمتلكون القدرة وتخلون عن دور «المحاية المطاطية» وتتصدوا له؟

وتدخل في النقاش البروفيسور ريتشارد فولك ، أستاذ القانون الدولي بجامعة برينستون ، ومفوض الأمم المتحدة سابقاً لحقوق الإنسان الفلسطيني ، فقال: «كلنا ، نحن الذين نقدر قيم الحرية الأكاديمية ، مطالبون بالوقوف متضامنين بلا تحفظ مع وارد تشرشل . إن حصيلة قضيته بجامعة كولورادو هي أفضل ورقة اختبار . هل ستلوي هجمات اليمين عنق التعليم وحرية إرادة الحياة الأكاديمية في هذا البلد؟ لم يحدث في حياتي أن كنا في أميركا بحاجة إلى نوع من الحوار الجسور والنقاش البناء الذي يواصل مهمة وارد تشرشل المتميزة . ونحن جميعاً على وشك الخسارة إذا ما فشل في دفاعه المبدئي» .

وختتم نداءه بالقول: «أدعوكم إلى تجنّب لطخة سوداء في تاريخ الجامعة والحرية الأكاديمية عموماً ، فبلدنا متورط في أزمة عميقة ، وهو بأمرّ الحاجة لمعارضة حازمة تقف بوجه أنصار تشيني في قاعات السلطة السياسية والأكاديمية ، أولئك الذين يسعون استخدام سلطتهم بغطرسة ويدفعوننا لحرب كارثية» .

وكان دانييل بايس ، أحد كواسر المحافظين الأمريكيين ، قد أقام شبكه تحسّس بين الطلبة على الأساتذة ممن «يشوّهون الحقائق عن الشرق الأوسط» . وهو يقصد منع نشر أخبار انتهاكات إسرائيل لحقوق الفلسطينيين وممارساتها الفظة في الأراضي المحتلة . وهو يكرّس مقعده الأكاديمي لشنّ الحملات ضدّ الإسلام والمسلمين . وكافأه الرئيس بوش بتعيينه في مجلس السلم والأمن . في الولايات المتحدة توجد قائمة سوداء بعدد من كبار أساتذة الجامعات ، ويبدو أن التقارير ضدّهم تمثل نوعا من إرهاب داخل الجامعات موجه لبعث الرهبة لدى أكاديميين عن طريق التضحية بأساتذة محترمين . بات نهج إسرائيل أحد القضايا الجوهرية للولايات المتحدة ، ليس فقط في المجال السياسي ، إنما في الأكاديمي والفكريّ بعامة ، وإحدى القضايا الحيوية لليمين المحافظ . ليس من شك في أن الإدارات الأميركية على علم مسبق بكلّ التدابير الإسرائيلية ، وباركتها قبل الإعلان عنها . فاللوبي الصهيونيّ داخل الولايات المتحدة الأميركيّة يدير سياسة إسرائيل عن بعد ، ويدعوها إلى المزيد من التعتت . وشعار رفض الانسحاب من الأراضي المحتلة رفع لأول مرة في حملة نتنهاو الانتخابية ، العام 1996 ، بإيعاز من ريتشارد بيرل ، أحد زعماء التيار المحافظ في الولايات المتحدة ، والذي عمل مستشاراً إعلامياً لحملة نتنهاو .

### صنع الموافقة

ربما لا حاجة في الولايات المتحدة لمطاردة عدد محدود من الأكاديميين ، فالميديا تتكفل بالتعتيم عليهم وطمس نتاجاتهم . الميديا الأميركية منحازة للرأسمال والسياسات اليمينية . تعتبر صحافة موردوخ من أعمدة التيار المحافظ داخل الولايات المتحدة وفي العالم . أدرك موردوخ اختلال القيم الأخلاقية في المجتمع الغربي ، التقط الظاهرة كي يعزوها لضعف الوازع الدينيّ ، وانتشار المذاهب الفلسفية المتحررة التي تتشكك في كل شيء . من هذا المدخل عبر موردوخ إلى الرأي العام يعيد أدلجته . انطلق من تغييب الرادع الأخلاقيّ الذي كانت صحفه الأكثر سخرية حياله .

لكن يوجد داخل الولايات المتحدة ضماير لا تسيخ على لهيب المال ، وترفض تقبيل اليد التي توفّع الشيكات . حبّ الحقيقة يعلو عندها على كل ما يعدو الحقيقة . وهذه شهاداتها على الحقيقة والكذب في الديمقراطية الأميركية داخل الولايات المتحدة الأميركية .

أفادت مجلة «كولومبيا جورناليزم ريفيو» قائلة: إنه فقط استخدمها «لتنمية مصالحه الاقتصادية على حساب الحقائق والقوانين والأعراف والأخلاق ( . . )» ولدعم السياسيين الذين يخدمون مصالحه ولتهديم كل من يعارضه» . وحسب الصحافيّ الأمريكي (آل فرانك) في كتابه «أكاذيب» فقد وقفت إمبراطورية موردوخ الضخمة إلى جانب حكومات عديدة معادية لكل أشكال الديمقراطية والحريات .

في بريطانيا ، اتهمت صحيفة «سوشالست ووركر» الصحف التي يمتلكها موردوخ - والمعروفة بمولاتها الشديدة لإسرائيل - بشنّ حملات إعلامية شرسة تستهدف تشويه صورة الأقلية المسلمة

هناك، مؤكدة كذب الاتهامات التي تروجها تلك الصحف عن المسلمين. رأت «سوشالست ووركر»: أن هذه الصحف تتعمد مهاجمة مسلمي بريطانيا والتحامل عليهم، من خلال اختلاق قصص عارية عن الصحة، فضلاً عن التعتيم على انتهاكات الشرطة بحق المسلمين هناك.

وقفت صحف موردوخ ومحطاته وشبكاته التي كان يملكها في الولايات المتحدة وخارجها، وقفت جميعاً، إلى جانب الغزو الأمريكي للعراق.

وحول الدعم الإعلامي (الموردوخي) لإسرائيل، فإن الصحفي، جاسون دينز، في مقال نشره بصحيفة «ميديا جاردان»، 5 نوفمبر 2001، حول أسباب استقالة «سام كيللي» مراسل صحيفة «التايمز» في أفريقيا، أرجع الأسباب إلى الرقابة الصارمة المفروضة على تقاريره حول قضية الشرق الأوسط، على اعتبار أن تقاريره موالية للعرب.

وفي إطار تحريف التغطيات الإخبارية التي تنتهجها صحف ومحطات موردوخ، بشكل مستمر، ألقى الفيلم الوثائقي «الخداع: حرب روبرت موردوخ على الصحافة» - الذي أنتجه المخرج الأمريكي روبرت جرينوالد، ذو التوجهات الليبرالية - الضوء على فظاعة هذه الممارسات الشائنة. هاجم الفيلم قناة «فوكس نيوز» ودعمها لليمين الأمريكي، كما ألقى الضوء على الخطر المائل في إدارة مثل هذه الشركات للمؤسسات الإخبارية الكبرى. ويثير فيلم «الخداع» الكثير من التساؤلات حول مبادئ التغطية الإعلامية. ففي غضون ساعة وربع الساعة، يفكك **Outfoxed** - واستناداً إلى شهادات موظفين سابقين في «فوكس نيوز» - أساليب المحطة التلفزيونية الأمريكية في التحريف والخداع. يقول مخرج فيلم «الخداع» روبرت جرينوالد: «إن فيلم الحقيقة الكاملة عن حرب العراق، يظهر أن إدارة بوش لم تكن أمينة في عرض الأسباب التي دفعتها لخوض الحرب، وهو ما أثار شكوكاً استطاع الكثير من منتجي الأفلام إثارتها بينما عجز الصحفيون عن ذلك». ويضيف في مقابلة مع شبكة الـ «بي بي سي»: «إن هذا الفيلم يبلغ المرء بمن يصوت له، ومن لا يعطيه صوته. إنه يقول للمشاهدين ها هي الأسباب التي دفعتنا لخوض الحرب، وها هو الدليل على أنها لم تكن أسباباً مقنعة. إن ما يعرضه الفيلم حقائق وليست مجرد رأي».

الفيلم الوثائقي الذي لاقى قبولاً ومصدقية كبيرين بين الأمريكيين، وصفته مجلة «ماريان» الأسبوعية الفرنسية، بأنه الفيلم الذي ينبغي عرضه في المدارس والمعاهد كافة، وخاصة معاهد الصحافة، ففيه تلخيص (مركز) لكل ما يتعين على الصحفي أن يتجنبه: الغش، التضليل، إخفاء الحقيقة، التحريف، خوض حملة سياسية لصالح طرف سياسي دون آخر.

مما هو جدير بالذكر هنا، أن الأمير السعودي الملياردير الوليد بن طلال يمتلك حوالي 5.46 بالمائة من أسهم مجموعة موردوخ «نيوز كورب»، وذلك من خلال ما تملكه شركة «المملكة القابضة» التي يملكها الوليد. يبدو أن الوليد أقام مع أخطبوط الصحافة علاقات عامة وظفها لحماية نظام العائلة. وقد أشار أحد الاقتصاديين الأمريكيين إلى أن روبرت موردوخ أراد أن يؤكد للأمير السعودي صداقته فأمر محطاته بالتوقف بتاتا عن انتقاد الأسرة السعودية، والتوقف أيضاً عن استضافة أي معارض أو ناقد للحكومة السعودية وسياساتها.

في الصحة البشرية يتحدث الأطباء عن كسل وظيفي، للعضوية الحية في خريف العمر. وفي خريف الهيمنة الكونية للولايات المتحدة يستبدل حوار الأفكار في الثقافة السائدة بالردع. ورغم ما يتوفر لديها من قنوات إعلام ووسائل اتصال جماهيري فإن صدر «الديمقراطية» لا يتسع للرأي الآخر، وتبادر إلى قمعه. تصدّى لأكاذيب الإدارة الأميركية وصحافتها كبار رجال الثقافة ذوو الشهرة العالمية. منهم غونتر غراس الأديب الألماني الحائز على جائزة نوبل لعام 1999، إذ كتب في صحيفة الانترناشيونال هيرالد تريبيون في 11 نيسان 2003 يقول: «إن العداء لأمر كما سببه جورج بوش وحكومته، الذين ينتقصون من القيم الديمقراطية، ويجلبون الكوارث المؤكدة لبلادهم».

طوّر المحافظون الجدد نهج المؤسسة في واشنطن الذي دشّن الحرب الباردة. وضع الخبراء الاستراتيجيون للولايات المتحدة خططاً غايتها «إيجاد نمط من العلاقات يتيح لنا الإبقاء على موقع عدم المساواة». وفي هذا الصدد، كما يورد نوعام تشومسكي (ماذا يريد العمّ سام حقاً، ص 10) ارتأى كينان، أحد هؤلاء الخبراء الاستراتيجيين، «ضرورة أن تشكل حماية موادنا الخام أحد الاهتمامات الرئيسة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية، وبالتالي يتعين علينا محاربة ذلك الكفر الخطير - فكرة أن الحكومة مسؤولة بشكل مباشر عن رفاه الناس». وفيما بعد جرى تطوير استراتيجية للسياسة الخارجية الأميركية تنطوي على محاربة ما أطلقت عليه «الوطنية المتطرفة»، يعتبر بموجبها كل نظام يستجيب للمطالب الشعبية الخاصة بإجراء تحسين فوري في مستويات معيشة الجماهير الشعبية المنخفضة مرضاً وراثياً معدياً يقتضي التخلص منه، ويجب الإطاحة به. كان المبدأ هو الموجه لمواقف الولايات المتحدة تجاه إيطاليا واليونان مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ثم تجاه غواتيمالا والسلفادور وكوبا ونيكاراغوا وتشيلي والبرازيل وأندونيسيا في العقود التالية. توجب على الميديا الأميركية تسويق هذا النهج على جمهور المتلقين؛ وقامت بالمهمة خير قيام. كلمة «ميديا» منقولة عن اللاهوت وتعني الوساطة، أو ناقل الرسالة. ووجدت الكلمة ملائمة جداً من حيث الدلالة للوظيفة المسندة لأجهزة الثقافة والإخبار والتعليقات والتحليلات الإخبارية. الوظيفة تختزل في نقل رسالة المؤسسة - يعني مؤسسات الاقتصاد الرئيسة - وما يتبعها من نظم سياسية وعسكرية ونظم معلومات - وصنع موافقة الجمهور على مضامين الرسالة. من يدفع يطلب اللحن. إن نهجاً سياسياً يمضي لمصلحة حفنة ضئيلة لا بد وأن يلجأ لوسائل التلاعب بالوعي والخداع كي يتغلب على ثقافة الديمقراطية وارتفاع منسوب المعرفة واتساع مفعول الميديا. منطلقاً من إدراك رسالة الميديا، أجرى البروفيسور نوعام تشومسكي تحليلاً لأساليبها، وذلك في مقابلة صحفية، حلل فيها أهم مفاصل عمل الميديا. تعمّد استبدال «دعاية» بـ «إعلام»، نظراً لأن كل محتوى الميديا هو دعاية وليس إعلاماً. أسهب أستاذ اللسانيات بمعهد ماساشوستس في تعداد أساليب تلاعب دعاية الميديا بالولايات المتحدة والموجهة نحو غاية فريدة «صنع الموافقة». والعبارة هي للصحفي الأميركي، «والتر ليبمان»، الذي، بدأ مهنة الصحافة منذ عشرينيات القرن الماضي، وشكل، بمفاهيمه، منهجية النشاط



الصحفيّ الأميركي . انطلق ليبمان من موقف وصاية على الجمهور ، متدرّجاً بعدم قدرة الإنسان العاديّ على اتّخاذ قراره بحكمة؛ اقترح اعتماد نخب «ذكية» تتولّى «غربة» المعلومات قبل أن تصل إلى الجماهير . وهو تعمّد تداول مفهوم «دعاية» ، نظراً لأن الميديا لا تتعامل بالحقائق ، إنما يقتصر همّها على صنع الموافقة على نهج المؤسسة الاقتصادية - السياسية . آتخذ تفعل مثيرات الميديا في النفسية الاجتماعية ، وليس في العقل ، وإن أوردت حقيقة ، فذلك كي تهزّب بمصحتها آلاف أنصاف الحقائق والزبوف الفكرية والإخبارية .

الجذر الذي نبتت منه «هندسة الموافقة» هو فكرة العلاقات العامة كما وضعها إدوارد بيرنز ، مؤلف الكتاب الإرشادي لصناعة العلاقات العامة المعاصرة ، حيث يقول فيه «إن التلاعب الواعي والذكيّ بالعادات والآراء المنظّمة للجماهير هو عنصر هام في المجتمع الديمقراطي» . ومن حقّ الأقلية الذكيّة (النخبة) الادعاء بمعرفة مصالح الجمهور ورسم السياسة وتشكيل «رأي عام سديد» .

هنا تكمن القاعدة التي تنطلق منها سياسات التدخّل في شؤون المجتمعات الأخرى . فهي غير مؤهّلة لمعرفة مصالحها؛ وهذا مناقض لمبدأ حقّ تقرير المصير لكلّ شعب . وطبقاً لهذه الفلسفة انبرى السفير الأمريكي في البرازيل ، كينيدي لينكولن ، يشيد بالانقلاب الفاشيّ عام 1964 ضدّ حكومة غواو غولارد المنتخبة ، فأسمى الانقلاب العسكريّ الدمويّ «ثورة ديمقراطيّة» ، مؤكّداً أن «انتصار الحرّيّة هذا لا بد أن يخلق جيّاً أفضل بكثير بالنسبة للاستثمارات الخاصّة» . وكشف الفرية روبرت مكنمارا ، وزير الدفاع الذي رصد التداعيات وفق معايير أخرى ، واستنتج بأن الانقلاب «أوجد نفوذاً عسكرياً طاعياً للولايات المتّحدة الأمريكيّة» . وبنفس المعايير تصبّب الإدارة الأميركيّة نفسها وصياً على شعوب العالم ، وتنبّ عن كلّ شعب وسلطته السياسيّة في تقرير ما يلائمها وما لا يلائمها .

يختزل جوهر نظرة تشومسكي للإعلام بالعبارة التي ختم بها المقابلة: « . . في هذا العالم توجد مؤسسات استبدادية هي الشركات الكبرى؛ وهي الأقرب إلى المؤسسات الشموليّة . ولنقل إنّه ليس عليها حسابات تقدّمها إلى الجمهور وإلى المجتمع ، وهي تتصرّف على طريقة الحيوانات المفترسة لتوقع شركات أخرى ضحيّة لها . وليس أمام الشعوب ، لتدافع عن نفسها منها سوى وسيلة واحدة: وهي الدولة . لكن هذه ليست درعاً فعلاً جداً ، لأنها مرتبطة عموماً بشكل وثيق بهؤلاء المفترسين؛ مع فارق بسيط لا يجوز إهماله: ففي حين أنّه ليس على شركة «جنرال إلكتريك» مثلاً أيّ محاسبة تؤدّيها ، فقد تضطر الدولة أحياناً إلى إيضاح موقفها للشعب . [ نشرت المقابلة على موقع «الحوار المتمدن» ، عدد 2028 ، بتاريخ 4.9.2007 ]

حلل المفكر الأميركي المشهور في مقابلة له مع الصحفيّ دانيال ميرمي من «فرانس أنتي» ، ما دعاه «آليات السيطرة» ووضعها في سياقها التاريخيّ: الصحفيّ يتمّ شراؤها - ال (وول ستريت جورنال) في الولايات المتّحدة ، وال (إيكو) في فرنسا - من قبل رجال أثرياء تعودوا أن يطوّعوا الحقيقة حسب مصالحهم . . . هكذا أضحيّ التواصل هو وسيلة الحكم في الأنظمة الديمقراطيّة . وهو لها ما لد «بروباغاندا» لدى الديكتاتوريات .

وقال تشومسكي إن بعض الأبحاث المعمّقة التي قمنا بها، إدار هرمان وأنا، من دراسات عن التلاعب الإعلامي أو عن صنع الموافقة قد أوحى بأن تأثير وسائل الإعلام هو في الواقع أكبر علي شريحة الجمهور التي هي أكثر تعليماً. أما الحيز الأكبر من الرأي العام، فهو يبدو من جهته أقل تبعيّة لطروحات وسائل الإعلام.

وقدّم الأمثلة التوضيحية علي انتهاك حقّ الناس في المعرفة: في جميع المواضيع، تأتي سياسات البيت الأبيض معاكسة كلياً لمطالب الرأي العام. غير أن استطلاعات الرأي، التي تكشف هذه المعارضة العامة القويّة، نادراً ما تُنشر في وسائل الإعلام، إلى درجة أن المواطنين لا يُستبعدون عن مراكز القرار السياسيّ فحسب، بل يُتركون في حالة جهل عن الوضع الفعلي لهذا الرأي العام نفسه. ومثال آخر: ينتاب المجتمع الدوليّ قلقٌ متعلّق بالـ «عجزّ المزدوج» العميق في الولايات المتّحدة: فهناك العجز التجاريّ والعجز في الموازنة، لكن هاتين الثغرتين ما كانتا لتحدثا لولا ثغرة ثالثة، هي الثغرة في الديمقراطية، التي لا تزال تتعمّق، ليس فقط في الولايات المتّحدة، بل في مجمل العالم الغربيّ عموماً.

وكيف تجري الرقابة على الفكر في المجتمع الديمقراطيّ؟ في حين نحن نعرف كيف يجري ذلك في الأنظمة الديكتاتورية. يجيب تشومسكي: عندما يتعرّض الصحفيون للمساءلة، سرعان ما يجيبون في الواقع: «لا أحد يضغط عليّ، أنا أكتب ما أشاء». وهذا صحيح. لكن إذا ما اتخذوا مواقف مناقضة للمعايير السائدة، فلن يتسنّى لهم كتابة افتتاحياتهم. بالتأكيد، هذه القاعدة ليست مطلقة؛ حتى إنّ بعض كتاباتي أنا قد تُنشر في الصحافة الأميركيّة. ثمّ إنّ الولايات المتّحدة ليست دولة شموليّة. لكن من لا يحقق الحد الأدنى من بعض الشروط (يعني صنع الموافقة)، لا يمكن له أن يأمل في الترقي إلي صفّ المعلقين الذين يتمتّعون بالشهرة. ونظام الرقابة في المجتمعات الديمقراطيةّة فعال جداً، فهو يبيّن الخطّ التوجيهيّ وكأنّه الهواء الذي يُستشَق. ولا يُلاحظ ذلك قط. وقد نتوهم أحياناً أننا إزاء نقاشٍ يميّز بحدّته، لكنّه في العمق، يبقى أكثر فعالية مما يجري في الأنظمة الشموليّة.

حقاً ما قاله تشومسكي، فما قيمة أو تأثير مقالة أو بحث ينزل مرّة بين عشرات آلاف المواضيع والأبحاث التي تتناقلها الميديا على مدار الساعة!؟

يمكننا القول إن الدولة في النظم الشمولية تقرّر الخطّ المتّبع، ثم يجب علي كلّ فرد أن يمثل له. أما المجتمعات الديمقراطيةّة، فهي تعمل بطريقة مختلفة. فالـ «خطّ» لا يُعلن أبداً بوضوح بل يبقى ضمنياً مقدّراً. إذ يجري العمل نوعاً ما علي «غسل الأدمغة في أجواء الحرية». وحتى النقاشات «الحماسية» في وسائل الإعلام الكبرى، تندرج في إطار الثوابت الضمنيّة المتفق عليها، والتي تستبعد عدداً من وجهات النظر المعاكسة.

من أساليب الدعاية التركيز والتكثيف. مختلف المنابر تنشغل بالموضوع، تحاصر المتلقّي أنّي توجّه، فلا يملك إلا أن يعيره عنايته. وترتكز منابر الميديا على قضيّة بعينها، فتنتقل العدوى إلى المتلقّي. ومفهوم «المتلقّي» هو المستهدف من قبل الميديا، فدوره يقتصر علي التلقّي دون إمعان نظر أو تفكير؛ بينما الحوار يعث علي التفكير ويتيح للفرد المساهمة في إنضاج الرأي والموقف.

عندما لم يعد عنف الدولة القمعية كافياً، قامت قواعد الدعاية النازية في ثلاثينات القرن الماضي على اختيار كلمات بسيطة، وعلى تكرارها باستمرار، وعلى ربطها بعواطف وأحاسيس ومخاوف، لتجذب الجمهور المتلقي وتفوز بالتجاوب معه. ويجري اتباع نفس الوسيلة في الوقت الحاضر. ويواصل تشومسكي تحليل آلية الإعلام الأميركي خاصة والبرجوازي عامة: في مجال البروباغاندا، تلبورت الأدوات كثيراً، وخصوصاً، وبالمفارقة، في الدولتين اللتين هما أكثر حرية في العالم: بريطانيا والولايات المتحدة». أما في واقع الأمر فلا داعي للاستغراب؛ ذلك أن الديمقراطية وارتفاع مستويات التعليم وشيوع عقيدة حرية التعبير أمور اقتضت التحايل والتلاعب كي يتم تمرير الوعي الزائف، ومن ثم 'صناعة الموافقة'. في هاتين الدولتين، وليس في مكان آخر، نشأت في عشرينات القرن الماضي الصناعة الحديثة للعلاقات العامة، أي فبركة الرأي العام والبروباغاندا. «جرى التحوّل إلى تقنية 'صنع الموافقة'، فمصانع العلاقات العامة تنتج، وبالمعنى الحقيقي للكلمة، الموافقة والقبول والخضوع. وهي تراقب الآراء والأفكار والأذهان». وهذا أخطر بكثير من القمع المباشر، حيث يدرك الجمهور ما هو محظور عليه، بينما حيال تقنية «صنع الموافقة» يحدث ما يسمّى الاستلاب، استلاب الإرادة والتفكير والرأي المستقل.

ونعود إلى تشومسكي الذي يضيف: إن حرية التعبير في فرنسا وفي بريطانيا وفي سائر أوروبا هي، على ما يبدو لي، محدّدة بطريقة مقيّدة جداً. والسؤال الأساسي في نظري هو التالي: هل يحقّ للدولة تحديد ماهية الحقيقة التاريخية؟ وهل لها الحقّ في معاقبة من يتخلى عنها؟ إن الاعتقاد بذلك يعني تحديداً التآلف مع سياسة طبيعتها استبدادية.

السعي خلف الربح مناقض لطبيعة الديمقراطية. وتحرص المؤسسات الربحية على التهرب دوماً من مراقبة الهيئات المنتخبة؛ وكذلك الإعلام والهيئات السرية. يقول تشومسكي: هدف الديمقراطية هو أن يتمكن الناس من تقرير حياتهم الخاصة والخيارات السياسية التي تخصهم. وتحقيق الأرباح هو أحد أمراض مجتمعاتنا. في المجال الأكاديمي هناك من يقصر الاهتمام على الربح والمنفعة؛ يكسبون الكثير من المال، لكنهم يُعتبرون نوعاً ما هامشيين، بل أناساً مضطربين، حالات مرضية إلى حد ما. أما الروح التي تحرك الجماعة الأكاديمية، فهي بالأحرى محاولة تحقيق الاكتشافات للفائدة الذهنية ولخير الجميع في آنٍ معاً.

ومن أساليب تزييف الوعي هناك أيضاً اختيار المفردة المفهوم: وسائل الإعلام المعادية تسمّي أولئك الذين يعارضون العولمة النيوليبرالية بـ «مناهضي العولمة»، في حين أنّهم يناضلون من أجل عولمة مختلفة، هي عولمة الشعوب. يسيطر الرأسمال على وسائل الإعلام. هذا هو مفهومهم للتكامل العالمي، لكن في خدمة المستثمرين. وتعتبر وسائل الإعلام المسيطرة أن هذا التكامل هو وحده الجدير، بشكل ما، أن يسمّى رسمياً «العولمة». وهذا مثال جيد على طريقة عمل الدعاية الإيديولوجية في المجتمعات الديمقراطية.

رغم فعالية الآليات السابقة، ما زال أسلوب قمع الرأي الآخر عن طريق الإرهاب مفضلاً، خصوصاً مع مثقفين يصعب التلاعب بوعيهم. والمحافظون لا يحاورون، والثقافة السائدة

في الولايات المتحدة ترفض حوار الأفكار وتفصّل الاحتكام لأدوات القمع ، ولا تتورّع عن التحريض على اغتيال المخالفين في الرأي .

وحيث تقوم شراكة عضويّة بين أميركا وإسرائيل فإنّ تجسيد هذه الشراكة يشمل ميدان الميديا كذلك . في ميدان العلاقة مع إسرائيل تنشط ميول الإفراط في استخدام القمع المباشر والمكشوف مع المثقفين . المحافظة السياسيّة والفكرية تدّعي الديمقراطية زورا ثم تتلاعب بها منتزعة منها جوهرها القائم على الحوار والتسامح واحترام معتقدات الجمهور حتى لو اختلفت عن معتقدات أصحاب السياسة .

التمائل صارخ لدرجة التماهي بين إسرائيل والولايات المتحدة الأميركيّة: الولع بالمغامرات العدوانيّة كشكل للعلاقات مع الخارج واضطهاد الرأي المعارض إن لم يمكن التحايل عليه وتضليله ، اضطهاد المعارضة حتى الأكاديميّة ، ولو انحسرت حرية البحث وساد الإرهاب داخل الحرم الجامعي .

يعبر اليمين الأميركيّ الجديد وقوّته الضاربة ، المسيحيّة الصهيونيّة ، عن جوهر توجهات الرأسمال الاحتكاريّ الأميركيّ في المرحلة الراهنة . وفي الشرق الأوسط تجلّى مشروعه في فرض برامج التكيّف الهيكليّ التي أسفرت عن أنظمة استبداديّة تخلت عن مهام دولة الرفاه وشجعت الفساد ونهب المال العام بما أشاعه في الحياة الروحيّة من اختلالات ، فالتداعيات المريعة في العالم العربيّ ، وهياج النزعة الفاشيّة داخل إسرائيل ، تشكل بعض مظاهر مشروع الهيمنة الأميركيّة على العالم أجمع .

## في خضم نهوض عربي جديد مأسسة التضامن مع فلسطين

شعوبنا طالعة كلنا إيد في أيد ،  
مع كل شعب كان قريب أو بعيد  
ح نصحي في الدنيا الضمير البليد ،  
وتقيم شعوبنا شرق أو وسط سعيد  
نتساوي فيه ومفيهش سادة وعبيد ،  
ولكلّ أمة فيه مكانة ومكان  
لا للصهاينة والظغاه الأمريكان ،  
لا للصهاينة والظغاه الأمريكان».

الشاعر المصري سيّد حجاب

### بيات شتوي

الشعب الفلسطيني وقضيته الوطنية ومجمل قضايا الشعوب العربية كافة ضحّت بها الأنظمة العربية على مذبح التكيف الهيكلي الاقتصادي وتوابعه . تجسدت الردة داخل المجتمعات العربية خلال الربع الأخير من القرن الماضي في خيار قاتل أملته الأزمة البنيوية للنظام الرأسمالي: قبول النظام السياسي الرضوخ لمتطلبات برامج التكيف العولميّ ، بموجب وصفات صندوق النقد الدوليّ والبنك الدوليّ ، أهدرت بموجبها مشاريع التنمية الاجتماعية وعطلت برامج الإصلاح الاجتماعيّ العام ، وانحسرت قيم الديمقراطية وعربد استبداد أنظمة الحكم . فرطت الأنظمة بالحقوق القومية وأهدرت مبدأ السيادة الوطنية ونبذت فكرة الرفاه الاجتماعيّ . توهّمت الأنظمة العربية أن نظام العولمة يهبّ لنجدها لا محالة ، إن بدر من شعوبها علامات فقدان الصبر . في حقبة الردة تهيأت لإسرائيل الحرية المطلقة لإنجاز مشروعها في فلسطين؛ وما إن شارفت على استكمال مشروعها حتى باغتتها الانتفاضات الشعبية العربية .

وفدت إلى الأقطار العربيّة بعثات أمنيّة من الولايات المتّحدة الأميركيّة عملت على وضع ترتيبات أمنيّة محلية في كل بلد عربيّ مهمتها حفظ أمن النظام ، وتقويض أمن الوطن . وبعد الإطاحة بنظامي تونس ومصر وتفجّر الهبات الشعبيّة في أكثر من قطر عربيّ تكشّفت الأنظمة الأمنيّة عن تماثل شبه تام في وسائل حفظ أمن الأنظمة: أجهزة أخطبوطيّة ، أبرزها جهاز أمن مركزيّ مطلق السلطة والتسلط ، يعاونه احتياطيّ جاهز عند الحاجة من مجموعات غير منضبطة ولا مسئولة من الزعران والبلطجيّة وظيفته الأساس حماية نخب الحكم التي تجمّعت حول الرئيس من الأقارب والأنسباء والأصهار وكل شراذم المتسلّقين الوصوليين ، ممن جذبهم الطمع في الكسب . بات الحكم عبارة عن جماعات من لصوص المال العام يتفنون حول الرئيس ، يساندونه مقابل إطلاق أيديهم في الفساد والإفساد . نشأت علاقة استخفاف ثم ازدراء تجاه الجماهير الشعبيّة ، تحوّلت إلى عداة . وشأن كل قاهر انطوت نظرة النظام على ازدراء الجماهير الشعبيّة ، والاستخفاف بحاجاتها وبعقولها ، فتعامل معها بالكذب والتحايل . تحوّل الجهاز الأمنيّ إلى قوة مهيمنة على الدولة يشرف على أنشطتها الاقتصاديّة والسياسيّة والتعليميّة والثقافيّة ويوظف عناصر الإجرام لترويع الشعب ، وينشر الرذيلة ، ويراقب المعارضة حتى في غرف النوم ، وسيلة للابتزاز والترويع . في هذا المناخ اشتطت الأنظمة في الفساد والإفساد ، حتى لقد تحولت الأنظمة وكبار موظفيها إلى مافيات تنهب وتستحوذ على كل شيء وتحرّم الجماهير الشعبيّة من الخدمات وتوفير فرص العمل . في الحقيقة استقرت الأنظمة القمعيّة من السياسة ، من حيث أنها إدارة شؤون المجتمع .

عبر المسيرة المتعّرة للمقاومة الفلسطينيّة تكشّفت مظاهر التخلف والمحافظّة داخل المجتمعات العربيّة عن احتياطات بأيدي إسرائيل . فأتى حرب الأرض المحروقة ضد المقاومة الفلسطينيّة والشعب اللبناني ، العام 1982 ، ساد صمت مريب في العالم العربيّ . كانت الترتيبات الأمنيّة التي أدخلت إثر سقوط نظام الشاه في إيران قد أعطت أكلها؛ وفضح الصمت حينئذ عودة المجتمعات العربيّة إلى بيت الطاعة للإمبرياليّة ، التي تجلّت إمعاناً في القطريّة والتنكر لقيمة التضامن والتكافل العربيين وخذلان المقاومة الفلسطينيّة . كانت صواريخ الطائرات ومدافع وصواريخ الدبابات تقصف بيروت المحاصرة بينما الجماهير تتحلق في الليل حول التلفزيونات تشاهد مباريات كرة القدم الدوليّة . التكتيك العسكريّ الإسرائيليّ لا تفوته شاردة وهو يخطط لعدوانه . والكرة أدرجت ضمن عناصر الحرب الباردة ضدّ الحركة المناهضة للإمبرياليّة لدى تدشينها عام 1947 . وقد أخذت القيادة الإسرائيليّة بعين الاعتبار هذه الثقافة الشعبيّة الملهمة المتسلّلة في غياب الوعي الوطنيّ والمسئولية الوطنيّة ، حين حددت توقيت العدوان . أدخلت المجتمعات العربيّة نفقا معتماً مسكوناً بالخواء والقلق؛ وفي خلال ذلك شنت ثقافة الإمبرياليّة منتجاً ظاهره التسليّة وغابته تقويض القيم الروحية للإنسانيّة البشر وتعطيل الوعي ، لينتهي ذلك كله إلى إهدار وعي الجماهير وتفكيرها وكسر إرادتها ، أي تدمير الدفاعات الأماميّة لإنسانيّة الإنسان العربيّ ، فلا يعي ما يدور حوله من وقائع القهر والاستغلال والتفريط بالسيادة الوطنيّة والكرامة

القومية، ومن تبخيس لقدره بالذات؛ ومن ثم تواصلت عفوية السلوك وطبيعته الارتجالية بغير تدبر ولا وقفة مراجعة ونقد. بينما إسرائيل والإمبريالية تعززان النفوذ على المنطقة العربية.

ونظرا لاستبعاد الرفاه الاجتماعي من مسؤوليات الحكم، ومراوحة المجتمعات داخل قفص التخلف والتبعية، باعتبار ذلك قدرا لا فكك منه، ونظرا لاضطلاح جماعات التيار الديني بمهام الخدمات تحت ستار العمل الخيري، الممول بالفوائض النفطية حتى خرجت عن الطوق وراحت تنظم عمليات العنف وفرض الدولة الدينية، فقد أنزلت الأنظمة من عليها نماذج ديمقراطية كسيحة منحت حرية مقيدة للنشاط الحزبي العلماني المروض. أبطت القضايا المركزية بأيدي قمة السلطة بعد أن انتزعتها من الهيئات التمثيلية، وأطلقت أيدي الأمن المركزي للتحكم في العمليات الانتخابية، فجاءت البرلمانات ديكرورات تجميلية مخفية. وهذا التغيير في خريطة المجتمع المدني عطل مؤسسات المجتمع المدني عن دورها الأساسي كجزء من المجتمع الديمقراطي، وحوّلها إلى ملطف ومخفف لحدّة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الناجمة عن سياسات العولمة وتأثيراتها على المجتمعات العربية؛ وهى تتركس في نفس الوقت الحكم الاستبدادي.

تطوّرت في ظل النهج نظم المراقبة وأجهزتها، واشتدّت قبضة الإرهاب، يدعمها عصابات تضيق أطر الانتماء والولاء ضمن عشائر وطوائف وأعراف تقدم الولاء والانصياع على الكفاءة والإنجاز؛ والولاء للعصبيات يهّم حق المواطنة؛ كما أن تقديم عديمي الكفاءة يغرب أصحاب الكفاءة وينبذهم ويضطرهم للهجرة، فقد أجذبت المواهب والإبداعات، كما صودر حقّ المواطنة. وقصر الإعلام المدجن وظيفته على ترويح الوعي الزائف وقلب الوقائع وتشويه الحقائق، يسنده نظام تعليمي يعيد إنتاج التخلف. انحدرت الأنظمة العربية إلى الحضيض في التنصل من الواجب تجاه التنمية الاجتماعية، وتأمين الحدود الدنيا من الرعاية الاجتماعية ومراعاة حقوق الإنسان.

تعطلت عملية التغيير بسبب الطارئ الذي غشا المجتمعات العربية، وأوقع الواقع الفلسطيني والعربي في فترة البيات الشتوي الطويلة نسبيا. تورّطت المجتمعات العربية كافة في مأزق التغيير، ومن مظاهره اتساع الفجوة وتعمّقها بين قوى التغيير التقدمي والجماهير الشعبية. المأزق الاجتماعي جوهره ثقافي، تتحمل قوى التغيير بعض المسؤولية في تشكله، ويتحمل الوزر الأكبر الأوضاع الناجمة عن تطبيق برامج التكيف الهيكلية. كان الطرفان - الجماهير الشعبية وقوى التغيير التقدمي - ضحية تداعيات الثورة المضادة التي هدفت إرجاع المجتمعات العربية تحت السيطرة المباشرة للكونيالية وتقييد إراداتها. في هذه الأثناء استغلت إسرائيل حالة الجمود العربي وضاعفت قدراتها وتغوّلت في نهجها المتوحش وعدوانها الضاري تجاه أقطار الجوار والجماهير الفلسطينية، تبطش وتصادر الأرض وتستوطن وتهوّد بينما الأنظمة العربية تنفض الأيدي من القضية الفلسطينية ومن قضايا مجتمعاتها كذلك.

قصرت قوى التغيير في واجب نشر ثقافة الوعي فتركت غالبية الشرائح الشعبية تنزلق في الخندق المناهض للتقدم . غرقت الجماهير الشعبية في أزمة روحية تغمر الأفراد بإحساس طاغ بالانسحاق حيال التردّي المريع لأوضاعها المعيشية ، وانطلاق قوى غامضة مبهمّة تفتح سموم الحيرة والريبة والقلق وانعدام الأمان . في غياب ثقافة الوعي باتت المجتمعات العربية مسكونة بوعي شقي مفتوح علي شروخ العالم وتصدعاته وغدره ، حيث مسلسل الانهيارات الكبيرة في بنية الواقع الاجتماعي المحلي والإقليمي والدوليّ؛ فلاذت الجماهير بالتدين تنشد الأمان الروحي . تتالت فصول الدراما الفلسطينية بينما العالم يقف صامتاً يشاهد بلا مبالاة القتل بالجملة ومكافأة القاتل . حالة تجسد اللامعقول للنظرة الغافلة عن التدايعات الماضية . والعدوان التوسعي الإسرائيليّ المتحالف مع الإمبريالية ومن خلالها مع التخلف العربيّ المشدود بعلاقات التبعية أحكم الحصار حول الشعب الفلسطينيّ ومقاومته .

ثلاثة من كبار المثقفين الفلسطينيين أطلّوا على المأزق ورصدوا الظاهرة . رصدها جوليانو مير خميس ، شهيد الثقافة التقدمية: «الناس فقدوا الأمل . ظلام . . . لا أمل في الجيل القديم ، أعتقد لأنهم رأوا الكثير من الموت والدمار ، أغلبهم لا يرفض ما نحاول عمله ، لكنهم لا يمدّون لنا يد العون ، فهم غير مباليين . . . تحطّم كل شيء . كل واحد يرى نفسه قائداً في الوقت الحاضر ، الكل يفعل ما يريد . . . لم تكن فلسطين هكذا قبل الانتفاضة . . . كانت فلسطين مكاناً فريداً في طاقاته الفكرية ، وحدثه ، وانفتاحه ، وفعالياته التقدمية والفنية ، وقد نجح الإسرائيليون في ضرب هذا كله» .

ورصدها محمود درويش ، همجية القوة تهدر الإرادة والتفكير . «أنت لا تستطيع أن تقاوم هذه القوة المدمّرة أو هذا المعدن المسلح إلا بالسخرية منه واللجوء إلي مصادر قوة داخلية . . . »

وقارب الدكتور إدوارد سعيد المأزق برؤية نقدية فضحت منظويات التزوير والتلفيق في الفكر الاستشراقيّ ، الذي زوّر التاريخ وشوّه التراث وهبّ الأذهان لتقبل السيطرة الأجنبية والحق التاريخيّ المزعوم لليهود في فلسطين . قال ان البحوث العربية تأثرت بـ«الفقد والإحباط وغياب الديمقراطية ، التي جمّدت الحياة الفكرية والثقافية في المنطقة العربية . » وانتقد البروفيسور سعيد أيضاً تحالف التوحش العولميّ الذي يرى في الفاشية الإسرائيلية حليفه الاستراتيجي ، وكذلك أنظمة الهدر للحكم المنطوي على الفساد وهدر حقوق الإنسان العربيّ .

يجدر ، قبل أن نمضي في العرض مناقشة مقولة الراحل جوليانو خميس ، او بالأدق تفسيرها كي لا تؤخذ صراعا يبين الأجيال او قطعاً للذاكرة الثقافية: « . . . لا أمل في الجيل القديم ، أعتقد لأنهم رأوا الكثير من الموت والدمار ، أغلبهم لا يرفض ما نحاول عمله ، لكنهم لا يمدّون لنا يد العون ، فهم غير مباليين . . . » .

الجيل القديم تردّد على السجون ورأى الموت والدمار . . . وأراد أن يستريح بعد ان قام بالواجب ،



كما تراءى له. ينسى هذا الجيل، أسوة بالتنظيمات الفلسطينية الكبرى، انه لم يحرّر شبرا من الأرض، وأن الوطن أشرف على التصفية التامة بفعل الأنشطة غير المرشدة، والتي أبقت الجماهير الشعبيّة احتياطاً مهمّشاً، وقوة «في ذاتها» تقدّم الخدمات حسب الطلب، وهذا ما ارتدّ بعواقب كارثية على فلسطين.

الفصيلان الأكبر في النشاط الوطني الفلسطينيّ اكتسب كلّ منهما شعبيته الواسعة نتيجة ممارسة العمل المسلح، الذي كان الترياق في نظر الجماهير المقهورّة العاجزة عن إدراك طبيعة العلاقات الدوليّة فغرقت في الدهشة والذهول، والمهمّشة في حالة انتظار المخلص! والسياسة العلميّة لا تجيز الدهشة مهما جاءت الوقائع بعيدة عن المعقول، فالعقل هو الذي يكتنه المجهول ويدرك العلاقات السببية لتفاعلات الحياة الدوليّة. وعندما تغيب العقلانية تهيمن الرومنسية، وقد تستبد الانفعالية في توجيه ردود الأفعال: سخط غير مرشد على عريضة العنف المسلح من جانب احتلال؛ وفي نفس الوقت يقلده ويستلمه فير كل بالأقدام كل المعايير الإنسانيّة وقوانين الشرعية الدوليّة. لا تجد الانفعالية المعرّبة في غياب التفكير والتفكير الاستراتيجيّ غير العنف المسلح تنفيساً عن الكرب. ويتكرّر الفشل جراء المعالجة الانفعالية وردود الفعل الآلية فيشيع الإحباط واللاجدوى. المهم ان نزوية ردود الأفعال من جانب الفصائل، والفصيلين الأكبر لم تحقق قدراً ولو بسيطاً من الاستقلال؛ وربما يجوز القول إنها الوصفة التي اختارها العدوان الإسرائيليّ لتحقيق المزيد من التوسّع الاستيطانيّ وعرقلة قيام الدولة الفلسطينيّة المستقلة.

وضاعف من تعقيد الأمور أن بديل النضال الشعبي، أو نضال اللاعنف، لم يثبت وجوده على الساحة. ربما أن العنف المسلح لم يترك الفرصة لديمقراطية التنظيم الحزبيّ، أو لديمقراطية العلاقات بين الفصائل؛ وأغفل مهمة تعبئة الجماهير وتنظيمها وتشكيل الحركة الشعبيّة للمقاومة. وهناك عامل آخر ينبغي عدم تجاهله. فالعنف المسلح اعتمد أسلوب العمليّات العنفيّة الفرديّة؛ والجماهير التي يعتبر الانتظار جزءاً من ثقافتها الموروثة، انتظار المخلص وانتظار المهدي والفادي، بينما هي قانعة بدور سلبي، عولت كثيراً على العمليّات الاستشهادية المقرونة بموقف سلبيّ من جانب الجماهير. استمرّت الجماهير حالة التهميش والانتظار، وركنت إلى صحب العنف المسلح بنفس قدراً من القهر، وأسفرت الحالة المتواصلة زمناً غير قليل عن اتساع الفجوة بين الجماهير الشعبيّة وقوى التغيير الديمقراطي. لم تثبت قوى التغيير الديمقراطي وجوداً لها على الساحة السياسيّة، وتواجدها الرمزي هو بعض بقايا لماضٍ انكفأ وغاب.

تجسدت وظيفة أنظمة الهدر ضمن هذا الائتلاف الثلاثي في إطلاق تداعيات داخلية في كل مجتمع عربي من شأنها تقويض القوى الذاتية، وهدر طاقات المجتمع. والدولة تحمل تأثيراً إيديولوجياً يشمل التفكير والسلوك والمثل والعلاقات الاجتماعيّة. فعمل الفساد والإفساد في النفسيّة الاجتماعيّة عامل التقويض الذاتي، مستظلاً بالطغيان وتكميم الأفواه. واقع مأزوم اختلت فيه القيم والمعايير، حين بات الريح السريع هو القيمة العليا الموحية لسلوكات والمواقف والتطلعات؛

واستتبع ذلك تبخيس الأفراد والذات القوميّة والتنكر للمصلحة الاجتماعيّة. اندفع طوفان مرعب أغرق المجتمعات العربيّة بالتحلل الاجتماعيّ والابتدال، رفده إعصار ثقافة منحطة من الميديا الإمبرياليّة استهدفت تدمير المراكز الأماميّة للمقاومة دفاعاً عن إنسانيّة الإنسان، دفعت الممانعة إلى نشدان الخلاص الفرديّ والحماية بالتدين السلبي والعبادات. ولا شك في ما قرره الدكتور طارق حجي، العالم المصري، من أن «نظم الحكم الاستبدادية يلائمها المواطن المحليّ الصرف والمنبت الصلة بالعالم الخارجيّ والذي يعتقد أن الحداثة هي الوجه الآخر للتبعية». فمواطن كهذا لن يؤمن أيضاً بأن الديمقراطية ثمرة الإنسانيّة وأنها منتج إنسانيّ وحقّ إنسانيّ، وليست بضاعة غربيّة للغربيين. فمن المؤكد أن هناك صوراً عديدة للديمقراطيّة. . ولكن من المؤكد أيضاً أنّها كلها تتضمن آليات محاسبة تهبط بالحكام من أفق السادة إلى أفق خدمة المجتمع».

### ربيع الشعوب العربيّة

وهبت بما يشبه المباغثة على المجتمعات العربيّة بشائر ربيع واعدة، أدخلت تغييرات حادّة على المزاج الشعبيّ ولدت لديه الثقة بالذات وأذكت من جديد أشواق التحرر والتقدم والحياة الإنسانيّة. بزوال النظام المتواطئ ضدّ مصلحة مصر ومصالح شعوب المنطقة تبددت ضبابيّة الرؤية، واتسع الأفق أمام الشعب الفلسطينيّ. جلبت النسائم الربيعيّة معها عناصر قوة داعمة للحقوق الفلسطينيّة المسندة بالقرارات الدوليّة، وبعثت من جديد طاقة عزّزت الإرادات الثوريّة وأحييت الآمال في الطاقات الكامنة لدى الجماهير العربيّة. بعثت الهيّات الجماهيريّة إلى العالم رسالة ردّ اعتبار للجماهير العربيّة بعد البيات الشتويّ المديد. بانهايار نظام الطغيان في مصر برز الوجه المتألق لمصر قاطرة شعوب المنطقة، ونصيرها، خاصة الشعب الفلسطينيّ. .

«إنها لحظة حاسمة بالنسبة للغرب ولموقفه الكولونياليّ تجاه العالم العربيّ. وهي المرّة الأولى التي أتذكر طوال حياتي ترد أخبار سارة من العالم العربيّ وسيطر نمط من الإحساس الحاد بالإيجابية أو الطاقة الإيجابية التي تهب علينا من تلك البقعة». ذلك هو تقييم المورّخ الإسرائيليّ الشجاع، إييلان بايه، صاحب التطهير العرقيّ في فلسطين، لهبّات المنطقة العربيّة، وذلك في مقابلة أجراها معه فرانك بارات، منسق محكمة راسل حول فلسطين، والذي يعدّ لجلسة تالية للمحكمة تعقد في جنوب إفريقيا، وتستمع إلى شهادات بصدد جرائم الأبارتهايد المسندة إلى إسرائيل. فنّد بايه ما تبديه الإدارة الأميركيّة من ترحيب مصطنع بالتحركات الجماهيريّة الحاشدة في معظم أرجاء الوطن العربيّ، وقال «أودّ القول إن فرعا شديدا ينتاب أميركا، وأناسا مهمين جدا في أميركا، ممن يعتمدون على إسرائيل كي ترشد خطواتهم عبر سياسات الشرق الأوسط، وكذلك في إسرائيل. إنها لحظة فرح. زرت إسرائيل عدة مرات منذ أن بدأت الثورات، وإسرائيل تعيش فرعا حقيقيا. فهم يدركون أن الترسانة الاعتياديّة للقوة والديبلوماسية لا تنفع شيئا بوجه ما يحدث في العالم العربيّ. إنهم فرعون لأنهم يحسّون حقا بأن الديمقراطية

إن ظهرت بجانبهم وتحت خطاهم فلن يكون بمقدورهم تمرير خرافة أنهم الديمقراطية الوحيدة في الشرق الوسط، بل أنهم في الحقيقة سوف يرسمون نظاما ديكتاتوريا عربياً آخر. وهذا من شأنه أن يخلق تفكيراً جديداً في أميركا، وتفكيراً أميركياً جديداً في أعين إسرائيليين كثير، يحاكي نهاية إسرائيل كما نعرفها. وبات بمقدورها أن تقول كفى ذات وقع شديد للممارسات الإسرائيلية ولدعم الإمبريالية لتلك الممارسات».

غير أنه تتردد بكثافة لدى تقييم الثورات الشعبوية أقاويل تقدّس عفوية الثورات وعدم مشاركة القوى الحزبية المنظمة والواعية في انطلاقها. ثم تبني على الأقاويل استنتاجات خطيرة. إن سرعة انهيار النظامين في تونس ومصر تعود إلى عزلتهما القاتلة عن الجماهير. فقد شلت أجهزة القمع أمام مليونية الهبات الجماهيرية المقدّمة المنطلقة بأشواق رومانية. أما بناء الجديد فيطلب الوعي والتنظيم، اللذين لا يوفّرهما سوى القوى الطبيعية المنظمة. الوعي الذي تدخله الأحزاب الإيديولوجية والمثقفون ضروري لترشيد وتوجيه خطى تجاوز مكائد الثورة المضادة المسنودة من الخارج، والتي لم تفقد سطوتها الاقتصادية والثقافية، إلى جانب بناء الجديد على القديم الرث والمتخلف.

جاء ربيع الشعوب العربية، مباعاً من حيث التوقيت والأسلوب حتى لأكثر العناصر وعياً وتفأؤلاً. برهنت المظاهرات الشعبية السلمية بالمثل العملي الملهم أن التغييرات التي تحدثها حركة الجماهير أعمق وأكثر فاعلية من أي تغيير أحدثته الانقلابات العسكرية أو مظاهر القوة الأخرى. علاوة على أن القوى المعادية لم يكن أمامها سوى أن تشيد بتحريك الجماهير الشعبية، وتمتدح تعلقها بالحرية. إضافة نوعية إلى الثقافة السياسية قدمتها الهبات الجماهيرية. وعلى هذه الثقافة أفاق جيل الشباب. وأكرر أن خطراً فادحاً يكمن في تمجيد العفوية والتحرك المندفع برومسية التوق إلى بديل ما، بينما للتغيير شروط الديمقراطية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

الوعي السائد أو الوعي العفوي يعكس هيمنة الطبقات المحافظة والرجعية. إن إنجاز التغيير يسبقه نقد الوعي السائد وتفكيكه وبيان تهافته، وذلك باعتماد شتى وسائل التربية والتثقيف والإعلام. ونتيجته تخليص الجماهير من هيمنة أعدائها المحافظين على أوضاع الاستلاب والتمايز الطبقي. ومن هذا المنطلق تتضح العلاقة الجدلية بين الديمقراطية والثقافة. المشاركة المتنامية للجماهير الشعبية في السياسة والثقافة تتم عبر المجالس والمؤسسات المدنية المتنوعة؛ يبرز التغيير الديمقراطي علماً. إن إحدى الخصائص الأساس للحزب أو الفصيل الثوري تتجلى في قدرته على رفع الإدراك السائد العفوي، وربما اللاواعي إلى إدراك منظم متماسك ومنسجم، يستوعب الظواهر المتنافرة على السطح ضمن شبكة علاقات سببية، ومن ثم توحيد الإيرادات المتنافرة في إرادة عامة واحدة ومؤثرة. والتغيير لا يستقيم مفهومه إلا بتدشين مشروع حضاري ثقافي جديد يهدف إلى إبداع نمط جديد رفيع من الحياة الإنسانية، وروحية ثقافية جديدة، ونظام جديد من قيم التقدّم. من هنا يبرز دور الثقافة والتعليم في عملية التطور التقدّمي للمجتمعات البشرية.

ربما تتجاوز انتفاضة شبابية مندفة بطاقة رومنسية الأحزاب القائمة؛ لكن على الجيل الصاعد في عالمنا العربي، والفلسطيني بوجه خاص، المتطلع إلى التحرر والتنمية والديمقراطية أن يدرك أن هذه المفاهيم والقيم التي تبدو مسلمة وحقوقاً إنسانية أولية كانت مدار صراع فكري وسياسي حاد سقط خلاله الضحايا في أقبية التعذيب والمعتقلات، إلى أن استقرت كضروورات وجودية في الحياة الاجتماعية. الإنسان لا يكتفي بالتأقلم مع بيئته أو بالبحث عن البيئة الملائمة، وإنما يسعى أيضا إلى تغيير بيئته وفق مقاصده وأهدافه، أي يؤقلم بيئته وفق ذاته. وبالعامل ينشط الدماغ ويدرك العلاقات الكامنة في الوجود. الدماغ المتطور ثمرة العمل والممارسة، ومن خلال العمل والممارسة يرى الممكن في ما هو قائم. وعلى قوى التغيير الديمقراطي أن تكون مستعدة للانطلاق مع الانتفاضة، ترشدها وتمدها بالوعي والتنظيم.

تكشفت مع الهبات الشعبوية المليونية حالات وعي شقي تعيق تجاوز أوضاع القهر التي سادت حقبة طويلة، وينبغي التعامل معها من أجل تبديدها. مظاهر من شأنها أن تبقي الجماهير في حالة من السلبية واستمراء الانتظار:

\* رضوض نفسية واختلالات فكرية متولدة عن أوضاع القهر والهدر، فقد أجبرت الجماهير على ابتلاع أوضاع الإهانة والازدراء وتبخيس الذات أفرادا وجماعات.

\* تغلغل الاستبداد والتعصب الزميت والتفرد بالرأي في الذهنية؛ تفاعل الآراء والحوار فيما بينه ضعيف، بل معدوم.

\* عزوف عام عن التفكير في الأمور العامة وكسل في مجالات البحث والحوار. هذه الحالة شديدة الوقوع على قوى التغيير الديمقراطي، وهي مصدر جمودها وتقهر تأثيرها في الحياة الفكرية والسياسية.

\* غلبة الطابع الخطابية على الثقافة. والخطابة لا تعتمد الفكر والمنطق بهدف الإقناع؛ بل تعتمد المؤثرات الصوتية والجسدية والإثارة بهدف اكتساب التوافق النفسي. ومن التجليات السلبية لهذه الثقافة الشعبوية أن قوى التغيير الديمقراطي اكتفت بشتم النهج الاقتصادي للاحتلال وتركت شبابها يتسكعون في الشوارع يعزفون عن العمل المنتج لتأمين قدر من الاكتفاء الذاتي من محصول الأرض. كما أغرق النضال الوطني في مبارزة الشعارات بدلا من تنظيم العناصر وتربيتها الفكرية والسياسية العملية ومضاعفة جاذبيتها للجماهير المحبطة، ومن فرط استلابها عزفت عن التفكير في شئونها الحياتية.

يبدأ مشروع بناء الحركة الشعبوية بتصفية مخلفات القهر والهدر في النفسية الاجتماعية من أجل اكتساب القدرة على تبيين والتقاط قيم الثقافة الوطنية بمضمونها التقدمي.

## بنية الثقافة الوطنية

تشكلت بنية الثقافة الوطنية في مجرى النضال الوطني للتححرر من الكولنيالية، وتميزت في بنية الثقافة الوطنية مضامين التحرر والديمقراطية والتنمية الاجتماعية والوحدة القومية أو التضامن القومي كحد ادنى. في ظروف الثورات الوطنية ضد أنظمة الاستبداد، ومن خبرة انتكاسة النضال التحرري اتضح الأهمية المحورية للديمقراطية في تركيبة عوامل التقدم. وحيث تندرج أنظمة استبدادية بالتآمر الإمبرياليّ لثنيها عن مواقف وطنية، فقد اتضح أن الإمبريالية لا تخاف الأنظمة القمعية المعادية لشعوبها؛ ولم يحدث أن نجح كفاح مناهض للإمبريالية والاحتلال الأجنبي على أيدي أنظمة مستبدة او قيادات غير ديمقراطية. نقارب الديمقراطية ليس كصيغة متبلورة، بل كعضوية حية تنمو وتتكامل بالتدرج، طبقاً لقدرة قوى الديمقراطية أو التغيير الديمقراطي على التغلغل في أوساط الجماهير الشعبية والتحكم في عتلات تحريكها. لدينا الديمقراطية الأميركية التي لا تتعدى خداع الجماهير عبر حملات دعاية تكلف المليارات ويدفع الأثرياء نفقاتها بهدف توصيل وكلاتهم إلى الكونغرس. ولدينا نماذج ديمقراطية في أوروبا الغربية تتيح للجماهير الكادحة إرسال ممثلها ضمن شروط محدودة. البعض يحصر الديمقراطية في إطار التعددية الحزبية وتبادل الحكم. وهناك انماط متفاوتة من الديمقراطية تتراوح بين هذا الإطار المحدد والضييق وبين نموذج يوفر للجماهير مجالات رحبة كي تستوعب بنية الثقافة الوطنية وتمتلك قدرات وطاقات تحول الواقع لمصلحتها وتغدو عنصراً إيجابياً فاعلاً في الحياة الاجتماعية ومقررة للمصير الوطني. إن تغلغل قيم التقدم في الوعي الشعبي بحيث ترشد الممارسة العملية للجماهير لا يتم بصورة آلية، ولا يتم بأساليب الثكنة العسكرية، إنما يتطلب نشاطاً سياسياً يصارع أنماط الوعي القائمة وما تبثه قوى المحافظة وثقافة الإمبريالية. تتكامل العملية عبر مسارات أهمها ستة تتجلى في التوجهات التالية:

أولاً، إشاعة الثقافة المدنية الديمقراطية في المجتمع من خلال تشجيع الانضمام إلى المنظمات الجماهيرية، النقابية ومنظمات المجتمع المدني، وبالتالي تنظيم الجماهير من أجل إدخالها في الحياة العصرية.

ثانياً، الاهتمام بتربية المواطنين على تمثل حكم المؤسسات وسلطة القانون، والاسترشاد بقيم التسامح والنقد والحوار والغيرية والتعددية والنسبية وقبول الآخر وتقليص نفوذ «ملاك الحقيقة المطلقة»، أصحاب الخطاب البلاغي على الحياة الروحية للجماهير من خلال منابر عديدة يحتكرون استخدامها؛ وتمثل قيم التقدم في الحياة اليومية وفي العلاقة بالآخرين.

ثالثاً، فرض الديمقراطية من القواعد الشعبية، وذلك من خلال تأهيل ديمقراطي قوامه أن تتولى قوى التغيير الديمقراطي توجيه وتنظيم هيئات المجتمع المدنيّ توجيها ديمقراطياً كأداة لاستنهاض طاقة الجماهير الكفاحية وتشكيل الحركة الشعبية للتغيير. ويتم هذا من

خلال تدريب المواطنين عمليا علي الممارسة الديمقراطية ، لدى إدارة الهيئات الاجتماعية ومنظمات المجتمع المدني ، وفي المقام الأول تنظيم نشاط أحزاب التغيير الديمقراطي على أسس الديمقراطية . من خلال العمل في منظمات المجتمع المدني يكتسب المواطنون خبرة المحاسبة على التنفيذ ، وتجاوز الخطابات البلاغية ، واختيار الأفضل لتولي المسؤولية ، وتغيير هيئات الإدارة باستمرار وإدخال عناصر شابة باستمرار في الهيئات الإدارية وتقديم الحساب عن العمل العام . ومن خلال ديمقراطية التنظيم الحزبي يستلهم الناس مثل الديمقراطية وقيمها ومعاييرها ، وتتضاعف جاذبية أحزاب الديمقراطية في نظر الجمهور . إن وعي الحزب وتنظيمه يضاعف من قوة تأثيره .

رابعاً ، فرض قيود على أنشطة الأمن المحلي وإقرار ميثاق وطني يصون الحريات العامة ويحترم كرامة الأفراد ، خاصة لدى التعامل مع أجهزة السلطة ، ولدى مراجعة مراكز الأمن والدوائر الرسمية ووضع الأجهزة الأمنية تحت مراقبة الأجهزة القضائية والتشريعية . فكرامة المواطن مكوّن أساس في الكرامة الوطنية والكرامة القوميّة .

خامساً ، إدخال إصلاح ديني يصفى الأمية الدينية المنتشرة في الوعي الشعبي والموروثة عن حقب الاستبداد وتسلط فقهاء السلاطين . ويشمل الإصلاح مناهج التعليم الديني وأساليبها ، بحيث لا يعزل طلبة المعاهد الدينية عن حياة المجتمع ولا تنغلق عقولهم عن الثقافة الإنسانية ومنجزات العلم .

سادساً ، تحديث المجتمع ، يتم من خلال تحديث التعليم وضمان مجانيته ، وتحديث الرعاية الصحية والخدمات العامة ، وتحديث المؤسسات وبنائها على أساس الفاعلية والخبرة . من المؤسف أن قوى التغيير الديمقراطي لا تعير الاهتمام الواجب بالعملية التعليمية ولا تضع في برامجها بند تحديث العملية التعليمية . التربية السليمة تبدأ من الصغر في مراحل الطفولة؛ وبذا فإحدى المهام العاجلة تقتضي إدخال أساليب وبرامج جديدة تطرد الأساليب والقوالب المنهاجية في النظام التربوي ، والموروثة عن السيطرة الكولنيالية المباشرة .

يتحدّثون عن أضلاع أربعة لعملية التعليم (المدرسة والكتاب والتلميذ والمعلم) وينسون واحدا ربما يشكل مفتاح رسالة التغيير الاجتماعي الواجب أن تضطلع بها العملية التعليمية . وهذا الضلع ، والأدق البوتقة التي يتم فيها بلورة المواهب والكفاءات العملية ، يتمثل في وضع الأجيال الناشئة ضمن ثقافة إنسانية تنطوي على القيم الإيجابية ، او ما بات يعرف بـقيم التقدّم . فلا ينفع المجتمع مثقف منغلّق على الذات لا يدرك أن كفاءته العلمية والعملية ثروة وطنية ينبغي أن تسهم في تقدّم المجتمع ورفعة شأنه . وكيف تقدر قيمة المعرفة في مجتمع يعتمد الفهولة والتزلف ويقدم فيه الولاء على الإنجاز؟! وكيف ننشئ جيلا بانياً للحياة الجديدة حين يكون الغش والتدليس نمط أداء المهام ، والتكاذب والتعقيم المتبادل أسلوب التعامل بين مراتب السلطة السياسية؟

الثقافة المجتمعية أو فلسفة الحياة بعد هام من أبعاد العملية التربوية . والقيم الاجتماعية تشكل الإطار الذي تتبلور داخله مدخلات التعليم . مجتمعات العصر في حاجة لمواطن خلاق وتنافسي ومبدع ويعمل في إطار فريق عمل ، ويتوحي أن يكون قادراً على المنافسة بما توفر لديه من قدرات عملية . كان المنور خليل السكاكيني قد أدخل إلى منهاج التدريس بند تعليم الحرية؛ وحث على ضرورة احترام شخصية الطفل وعدم تخويفه أو تعريضه لأوضاع مهينة . غير أن تراث السكاكيني وتراث الفكر التنويري غيب تحت أنقاض النكبة الفلسطينية . وبدل التفكير العقلاني هيمنت العفوية والارتجال والتدريس التلقيني . العفوية فوتت الكثير على النضال الفلسطيني؛ وهي تتمرد على المعرفة العلمية وتعطل عمليات التنظيم والتخطيط ، ناهيك عن التفكير الاستراتيجي . يحدث هذا ونحن نواجه الاستيطان الاقتلاعي يستشرف مستوى رفيعاً من التخطيط والتنظيم والتفكير الاستراتيجي .

### الكوادر عنصر أساس

إن أفضل ما قدمته الهبات الوطنية في الآونة الأخيرة هو التركيز والتأكيد على نضال اللاعنف ، والاستناد إلى الحركة الشعبية الديمقراطية . ولكسي يتواصل زخم التحرك الشعبي ينبغي تحديث وعيه . ومن أولى بدهيات التحديث إدراك الجماهير أنها أداة التغيير الاجتماعي وحارسه التغيير الاجتماعي . تتميز القوى الديمقراطية ، والماركسية على وجه الخصوص ، عن الأحزاب الأخرى في إدراك ضرورة أن التغيير الحقيقي تنجزه الجماهير ، ويتم التغيير لصالح الجماهير المنتجة . إنه نضال طبقي لا تستوعبه الجماهير بصورة تلقائية . ومن ثم فجوهر رسالة قوى اليسار أن توصل الجماهير الكادحة إلى الاقتناع أن جدية التغيير تتمثل في استناده إلى حركة الجماهير ليس احتياطاً يدعى وقت الحاجة ، إنما صيرورة تنطوي على إدراك أن التغيير الحقيقي يتجسد في تحويل الكتل الهاجعة والخانعة إلى قوة لذاتها ، قوة فاعلة تقف في مركز الحياة الاجتماعية . وهنا تتجلى ديمقراطية الثقافة وديمقراطية التوجه السياسي .

يستدعي التوجه إلى محتشدات الجماهير لاستنهاضها إلى تحمل مسؤوليتها التاريخية فرز الكوادر الثورية للنشاط في أوساط الجماهير ، في تجمعاتها بأماكن العمل والسكن . وما أن تتخلى الجماهير عن سلبيتها وتحرر من حالة الانتظار حتى تشرع في الانخراط في الهيئات المدنية والنقابات المهنية ونقابات العمال والجمعيات الأهلية . والحزب القادر على اكتساب ثقة الجماهير وتحريكها إلى النشاط يمتلك العتلات المؤهلة لذلك ، وهي عبارة عن كوادر تؤمن بضرورة وأهمية دور الجماهير في تنفيذ المهام الوطنية والاجتماعية وتتنقن مهارات التقرب من الجماهير والإلمام بنفسيتها واستيعاب آليات النفسية الاجتماعية . الكوادر هي التي تمرر إلى الجماهير ثقافة الديمقراطية من أفكار وقيم تدعم التوجه التقدمي للحركة الشعبية ، فيستحيل بالممارسة العملية إلى ثقافة شعبية . وتلم الكوادر بالقضايا المتشابكة والمشروطة بصورة متبادلة للتطور الاجتماعي التقدمي .

تمارس الكوادر نشاطها الجماهيري بأسلوب ديمقراطيّ محوره التحوار خال من الأوامرية وأساليب المناكفة والتحايل والخداع، أو فرض الرأي الواحد باسم الانضباط الحزبي والمركزية الديمقراطية. وحيث ترتبط الديمقراطية بالعلمانية فإن من أولى تجلياتها رفض أي وصاية من الخارج على ضمير الفرد وقناعته الذاتية. حزب الديمقراطية محكوم بوحدة الإرادة؛ لكنها وحدة لا تغطي على الضمير والوجدان فتسوق أعضاء الحزب سوق القطيع. يتوجب الحفاظ على وحدة الإرادة في توجهات حزب الديمقراطية، لكن عبر النشاط التثقيفي وتحديث الوعي وتحفيز الهمم لمواصلة التنقّف الذاتي. وحدة الإرادة لا يجوز أن تتحقق بوسائل الإكراه أو التنبية وإنزال العقوبات والعزل. والربيع العربي المناهض لشمولية الأنظمة لا يقبل شمولية القيادة الحزبية، إنما يفرض صيغة تقبل التعددية وحق الاختلاف والطاعة الواعية. والموقف المتشكّل عبر التفكير وحوار الآراء أكثر قابلية للصمود بوجه الهزات والتطورات.

تشكّل عمليّات إعداد الكوادر وتربيتها مهنيًا وسياسيًا وثقافيًا حلقة أساس في سيورة تشكيل الحركة الشعبوية وتصليب عودها. فضمن هذه السيورة يفعل جدل الثقافة والديمقراطية. ينبغي أن تتوفر في الكادر الحزبي النزاهة وسعة الأفق والرزانة، بحيث لا يحول الحوار إلى إكراه، ويسف بالنقد إلى مناكفة وكيد، أو ينحرف إلى مجرد حماسة انفعالية. تنشأ معظم نكسات القوى الديمقراطية عن ضعف التزام الكوادر بالديمقراطية، الناجم إما عن غرور أو عن جمود ثقافيّ، حيث تتعزّز الذاتية والموقف المتعالي أثناء التعامل مع الجماهير أو الرفاق، فتختل العلاقة الرفاقية داخل الحزب. وإذا اختلت العلاقة الديمقراطية في حياة الفصيل الداخلية فإنها حتما ستختل في العلاقة مع الفصائل والأحزاب الأخرى ويتعدّد قيام الائتلاف أو التحالف على أسس سليمة وعملية ومستدامة. والانشقاقات الداخلية في الأحزاب مبعثها عطب الديمقراطية في الحياة الحزبية، عطب لدى القيادة ولدى الكوادر، ممن لا يستطيعون الوقوف بالمعارضة، ويعجزون عن الحوار بمتطلباته الفكرية والنفسية.

### الديمقراطية والصحة النفسية

الجماهير الراكدة الهاجعة تتم مقاربتها بسهولة عبر غريزة التدين. ضمن هذه الشروط الاجتماعية تستثمر التيارات الدينية انطواء الجماهير على قلقها وحيرتها وحاجتها لملاذ تسكن إليه، فتوجهها نحو اتكالية تمنحها إحساسا زائفا بالأمن؛ ومن ثم تحقّق نجاحات سريعة في مجال السيطرة على الجماهير الخائعة الراكدة. ولدى السيطرة على الجماهير بتلك الوسيلة يتمّ حجز الجماهير، وشحنها بالعداء لقيم التقدم والحداثة، ومن ثم تجمد طاقاتها الكفاحية، وتحوّلها إلى احتياطي للمحافظة السياسية والاجتماعية. ولهذا السبب نرى الأنظمة القمعية تسهل للحركات الدينية سبل الاتصال مع الجماهير من خلال الجامع والمناسبات الدينية وتفتح أمامها منابر الإعلام ببرامجها المتنوّعة وتشجّع الجمعيات السلفية والدعاة وبرامج الفتاوى، يحدوها الحرص في كل



ذلك على قصر النشاط على ذوي الثقافة الدينيّة الضحلة والنظرات الماضويّة. الحركات الدينيّة السلفية تطرح برامج اقتصاديّة منسجمة تماما مع العولمة الاقتصاديّة ولا تترى في الديمقراطية المستندة إلى حركة الجماهير شرطاً جوهرياً لمقاومة التطاولات الإمبرياليّة، ولا تدخل التنمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة في برامجها السياسيّة. ورغم أنهم يقدّمون أنفسهم دعاة لتطبيق الشريعة إلا أن طروحاتهم انتقائيّة ولا تتقيّد بالجوهريّ الإنسانيّ للدين وبدعوته للعدالة وكرامة الإنسان. تتجاهل الدعوات السلفية ضرورة التطابق مع ما بات متأسّلا في الثقافة الإنسانيّة من احترام لحقوق الإنسان والافتتاح على الحضارة الإنسانيّة ومنجزات العلم.

ولا نستغرب بعد الجهود المكثفة والمتواترة للتيارات الدينيّة طوال قرابة قرن من الزمن في أوساط الجماهير أن تتواصل أميّة الدين، وإخضاع المعاملات بين الناس وأساليب الحكم للتقاليد والخبرات البالية.

وقد تردّد الجماهير الشعبيّة دون ذلك المستوى في ظروف الهدر المتعمّد من جانب النظام السلطوي. الجمود والانعزال يهدران الفكر ويفقدان السيطرة على مجريات الأمور، يفلت زمام تسيير الحاضر واستشراف المستقبل وصناعته. ضمن الأجواء السياسيّة المتبدلة، وكما أفاد الخبير في علم النفس الاجتماعيّ، الدكتور مصطفى حجازي، "يهدر الكيان الإنسانيّ ذاته من خلال ردّه إلى مستوى النشاط العصبيّ الموجه لإشباع حاجات البقاء البيولوجيّ... يعطل استخدام الدماغ، ولا يبقى سوى الجزء المسمى "الهيپوثالاموس"، وهو كتلة في وسط الدماغ لا يزيد وزنها عن خمسة غرامات، أي ما يشكل خمسة وثلاثين بالمائة من الواحد بالمائة من وزن الدماغ البشريّ الراشد. وهذه الكتلة تضبط وظائف الأكل والنوم والجنس والانفعال. يستعمل الباحث "الهدر" كمفهوم يعادل "الاستلاب"، أي تجريد الفرد أو المجموع من حقوقه الأساس، خاصة حق التفكير والتعبير وحق التمتع بثمار العمل وبقوة العمل. "هدر الفكر هو هدر فعليّ لفرص التنمية التقنيّة والإنسانيّة سواء بسواء، وليس مجرد أمر يمكن التساهل بشأنه بمختلف المبررات كما هو حاصل في بلاد هدر الإنسان وفكره".

إلى جانب أدوات القهر والإكراه وتأثير العمليّات الاقتصاديّة وأساليب الحياة، تستثمر السلطة المحافظة والمستبدة التربية والإعلام في تعزيز ذهنية المحافظة واستمرارية خضوع الجماهير لنظام القهر والهدر. التربية في الوقت الراهن موضوع صراع اجتماعيّ؛ وحيث تطغى بنية التخلف بتحيزاته وعلاقاته وتوجهات تفكيره، فإنها تطوّع عمليّة التربية لصالح المحافظة الاجتماعيّة. وبذلك تقوم التربية بمهمّة تعزيز التخلف، وخدمة النظرة السلفيّة الملتصقة بالماضي والمزتهنة به، وأداتها في هذا الصدد هي التعليم التقليديّ. فمن خلال التلقين والتطبيع يتمّ صبّ الأجيال في قالب القصور الذهنيّ الذي تزعمه الدعاية السلفية خاصيّة بشريّة، وتبخيس الإنسان. كما يرغم الأفراد على ابتلاع الهدر لينخرطوا في دورات عفوية لا واعية من تبخيس الذات وتسويغ الهدر.

وحيث أن الهدر يفقد الأفراد صحتهم النفسية فإن المهمة المباشرة تتمثل في توفير مناخ النقاهة واستعادة الوعي واحترام الذات من أجل إدراك الواجب الاجتماعي والانضمام إلى الحركة الجماهيرية التحررية. عندما يشعر الإنسان بالقهر ويعجز عن تفسيره تسود الدنيا في عينيه وتتعطل ملكاته، يتطلع حوله فيرى جماهير استكانت للقهر والاستلاب فتكثفت مع استبداد السلطة وانكفأت على مراراتها تستحضر من خلالها تاريخ الجور وفولكلوره من أمثال وحكم وحكايات، ما يبرر استكانتها لبؤس الواقع، فتشتد حلقة الظلام. تتناسل أنماط عديدة من التشوهات النفسية وأمراضها جراء الاختلالات السياسية والاجتماعية. وأخطر الاختلالات، إلى جانب الأمراض الظاهرة، ومنها الفصام والذهان وجنون العظمة والعصاب، تتناسل اختلالات ذهنية مثل التثب حول الذات والتصحّر الوجداني أو الغباء الاجتماعي والتصلّب الذهني والأحاساس بالنقص وتبخيس الذات والانفعالية.

المجتمع المتخلف يحمل عناصر تخلف العصور القديمة، وإنسانه مثقل برواسب القهر والاستلاب والتجهيل في نفسيته وتفكيره. أما التخلص من التشوهات النفسية والذهنية فعلية معقدة تنطوي على تفاعل النشاط السياسي مع تحديث الوعي وإدخال العلم في الحياة الاجتماعية. وكما تستهمل عملية البناء بإزالة الأنقاض وتمهيد الأرض وإعداد الأساسات المنيعة، فإن بناء الحركة الشعبية لا بد أن يبدأ من معالجة رواسب الهدر وأنقاضه في النفسية والتفكير، وبالذات تصفية عادات تبخيس الذات ومما يسمى الشوفينية الذاتية - الحط من الذات القومية والوطنية - وتخليص الجماهير من حالة اللاوعي والعفوية وارتجال المواقف والانفعالية. إن الانفعالية كردود فعل غالباً ما تأتي هوجاء غير منضبطة، نظراً لتعطيل العقل والتفكير زمناً طويلاً. من الخطأ الفادح الظن أن الأمور تستوي حال انهيار نظام القهر والهدر.

تستهمل التنمية الاجتماعية بتوفير سبل نقاهة أفراد المجتمع من مخلفات عهود الهدر الاجتماعي وتنمية قدرات البشر على استعمال العقل وتوظيف العلم في الحياة العملية (لا نكتفي باستهلاك منجزاته) والتخلي عن العفوية واللامبالاة. ومن مخلفات الهدر علاقة سيد ومسود تحكم المعلم بالتلميذ، مواصلة لتقليد الكتاب والشيخ حامل العصا. قد يكون المعلم واسطة تنقل التوجه السلطوي إلى الأجيال الناشئة وفرض ثقافتها، أي إخضاع الناس لسلطة الحاكم المستبد. في المدرسة تختبئ السلطة وجوباً أو جوازاً حيث المعلم مصدر المعرفة الوحيد. والذات الفاعلة والتلاميذ سلبيون بالملق؛ ومن ثم فإن أسلوب التدريس في الفصل يعكس هيمنة السلطة السياسية في المجتمع. وبالمقابل ينشد تعليم التحرير والديمقراطية اقتلاع ثقافة الصمت وتمكين المتعلمين من أن يؤدوا دور الفاعل الواعي والمحاو الواعي في علاقة جدلية. ويظل المعلم محتفظاً بدوره كصاحب خبرة أنضج، دون أن يكون له الحق في تجريد تلاميذه أو طلابه من الخبرة والإنسانية والمشاركة في التساؤل.

تحتل الديمقراطية أهمية مركزية في بنية عناصر التقدم الاجتماعي. وهي تتكامل مع بقية عناصر الثقافة الوطنية، ثقافة التقدم. من المهم للغاية التركيز على هذه الحقيقة، وتأكيد ان التحرر الوطني عملية محورها الديمقراطية. وهذه مسلمة أدركت الجماهير المنتفضة ضرورتها لتبديد

ظلام عهود الاستبداد ومنطويات فسادها واستخفافها المشين بالمصالح الوطنية والاجتماعية، وزكته المشاركة الفاعلة للجماهير الشعبية في تقرير المصير الوطني. غير أن قوى هامة وفعالة في جبهة مناهضة السيطرة الأجنبية تتجاهل تماما ضرورة الديمقراطية. ففي مقال نشرته صحيفة «السفير» (عدد 6 حزيران/يونيه 2011) كتبه نائب رئيس حزب الله، الشيخ نعيم قاسم، عنوانه «نحو مشروع النهضة العربية الجامعة»، يستثني مهمتي إشاعة الديمقراطية والتنمية الاجتماعية من بنود مشروعه. «لا إمكانية لقيام مشروع النهضة العربية إلا بهاتين الثابتين الصالحين» مشروع المقاومة، و«وقف الوصاية الأمريكية على الدول والشعوب». و«الثابتان» تندمجان بالممارسة في قضية واحدة، إذ المقاومة تتجسد عمليا في وقف الهيمنة الأميركية وتصفية مواقعها. حقا يمتاز طرح الشيخ عن التيارات السلفية الباقية بدعوته إلى وحدة أعداء الإمبريالية كافة: «نحن نهتمّ بالعنوان المقاوم، ولا نلاحق ولا نسأل ولا نغوص في تفاصيل الاعتبارات الفكرية أو القناعات التي يحملها الأفراد أو الجهات، وهذا من مصلحة المقاومة كي نجتمع ونتقوى ببعضنا». وهذا موقف يساعد في تهيئة مناخ الحوار والتعاون بين القوى الوطنية والاستفادة مما طرحه النضالات اللاحقة واستيعاب دروسها. حزب الله، شأن التيارات السلفية الأخرى، يغفل موضوع التنمية الاجتماعية وإجراء تحولات باتجاه الديمقراطية بمفهومها المتكامل وتحديث وعي الجماهير الكادحة ورفع نصيبها من ثمار كدحها. بدل أن يدمج النضال الفلسطيني بنضالات الجماهير الشعبية في البلدان العربية كافة، وكذلك قوى مكافحة الهيمنة الامبريالية والعولمة الاقتصادية والثقافية، فإنه يعيد تجربة ما قبل غزوة لبنان عام 1982، حين تصدّرت المقاومة الفلسطينية النضال العربي، أو كادت تنفرد به؛ ونادت أن «فلسطين المحرّرة هي طريق التحرير لكل الوطن العربي»، والقول للشيخ نعيم قاسم يعيد به إنتاج ما كان متبعاً قبل عدوان إسرائيل على لبنان عام 1982.

الثورات العربية وضعت النضال الفلسطيني على عتبة تطور نوعي، وتفكك جبهة دول الاعتدال يحتمل احتمالات كبيرة لإعادة مصر ضدّ التحالف الامبريالي-الإسرائيلي؛ وكذلك فإن تحرّر مصر من نظام الاستبداد يفتح الأفق للشروع في تنمية اقتصادية واجتماعية بدون انتظار. الأمر الذي يتعارض مع قول الشيخ قاسم، «فلسطين المغتصبة هي التي ستخيم على اقتصاد كلّ العالم العربي». والحقيقة أن خذلان النضال الفلسطيني اقترن بتداعيات سلبية في العالم العربيّ كله شملت ميادين الاقتصاد والسياسة والثقافة والتعليم وحياة المجتمع. كانت الجماهير تدرك وتتألم من انتهاك الكرامة القومية والوطنية وتشردّ الشباب في بيداء الضياع عندما حرم من المساهمة في البناء الوطني وتعزيز السيادة الوطنية. كان الغضب يستبدّ بالشباب جراء ممارسات العناصر الطفيلية المتحكمة في الثروات الوطنية والمفترطة بالسيادة الوطنية في عتمة الحكم المطلق.

حقا، لدى تلمس الجماهير، ولو بصورة مبهمة، انتهاكاً للكرامة الوطنية وجورا من جهة خارجية فإنها تتفعل وتغضب، وفي مثل هذه الحالة يمكن مقارنة الجماهير من خلال الحوافز الوطنية

واستثمارها لتحريك الجماهير من حضيض الوعي المتردية فيه . أما أن تدرك الجماهير شرط تسيدتها للتحرك الوطني كشرط لإنجاز التحرر الوطني والتحوّلات الاجتماعية العميقة ، فذلك يتطلب جهداً تثقيفياً مثابراً وكوادر مدربة لديها خبرة كثيفة بالقضايا الاجتماعية بحيث تجيب على تساؤلات الناس وتقود الناس في مختلف شئون وشجون حياتها الاجتماعية . ولكي تقوم الكوادر بدورها على الوجه المثمر ينبغي تواجدها في أماكن التحشيدات الجماهيرية واطلاعها بصورة متواصلة على مستجدات الوقائع الحياتية وأن تعي باستمرار التبدلات في المزاج العام .

تقارب الكوادر السياسية الجماهير من خلال الحوارات ، تتحقق من خلالها ثقة الجماهير بنفسها وبقدراتها على الفهم والاستيعاب . جميع أفراد المجتمع ممن يملكون العقل السليم لديهم القدرة على الاستيعاب في مجال النشاط العملي . وبذا يمكن لفلاح بسيط أن يتفوق على خريج الجامعة في شئون الزراعة وأمور اجتماعية كثيرة . وأسوأ أنماط التثقيف ما يقيم علاقة مرسل ومستقبل تتحوّل مع الزمن ، وضمن ظروف الوصول إلى السلطة السياسية ، إلى نمط من السيطرة الطبقية والإخضاع الزجري .

برز في مجال التربية المناهضة للسلطوية باولو فريري ، وهو من أبرز خبراء التربية في أميركا اللاتينية والعالم . كرّس باولو فريري حياته لتعليم الديمقراطية ، ومن ثمار خبرته في المجال أن التعليم عمل سياسيّ بامتياز . فالتعليم في نظره سياسة والسياسة عملية تربوية . يقرّر فريري ، الذي برز دوره في ستينات القرن الماضي رائداً لفكر تربويّ حديث يستند إلى أرقى معطيات العلوم الإنسانية ، وبالذات علم النفس الاجتماعيّ ، أن التعليم يجب أن يؤدي دور الأداة لتبديد ثقافة العصمت واستلاب الجماهير والأسطورة والجبرية . استطاع اكتساب تعلق الفلاحين وثقتهم به؛ ولذلك وضعته الرجعية البرازيلية علي القائمة السوداء ، واحتجزه العسكريون الذين وصلوا الحكم بانقلاب دموي عام 1964 . سجن واتهم بنشر أفكار «خائنة للمسيح وللشعب البرازيلي فضلاً عن كونه جاهلاً وأمياً» .

برهن فريري من خلال نشاطه المتواصل في ميدان تعليم المقهورين أن التعليم والتعلم من خلال الحوار هو من أهم القيم اللازمة لبلوغ تلك الصيرورة المتحررة في تفاعل الإنسان ، ليصبح صانع حضارته وتاريخه . أغنى ثقافته التربوية بخبرات النشاط التربوي بين المزارعين والجماهير المحرومة ، ووضع الكتب حول «تعليم المقهورين» و«تعليم الديمقراطية» ، وتحظى كتبه بشهرة في العالم ، نظراً لما تنطوي عليه من مضامين إنسانية ومنهجية علمية في تحديث الوعي ، فهو يناهض التعليم التلقيني ويدعو للتعليم من خلال الحوار وشحن الوعي بالذات المهدورة واكتساب القدرة على الفعل . وقد ألف كتابه «التعليم كمنهج لتعليم الحرية» وهو في سجون ديكتاتورية العسكر البرازيليين ، ويقرّر في الكتاب أن ليس ثمة تعليم محايد ، وإنما هناك تعليم للمقهورين كي يتحرروا على النقيض من تعليم يثبت ويدعم قيم القهر داخل المجتمع . التعليم للقهر تتجلى وسائله في القهر من خلال أنماطه كافة ، وفي المناهج والمدرسة والعلاقة بين المدرّس والتلميذ وفي عمليات الامتحان وفي بيروقراطية الإدارة والكتب المدرسية ، وفي نظام توزيع الطلبة على مختلف

التخصّصات وفي تدني قيمة التربية الفنية وفي أساليب العقاب والثواب ، وبالدرجة الأولى في اقتصار التعليم على التلقين وإجهاض ملكات التفكير المبدع والخيال الحيّ . صاغ مفهوم «التعليم البنكي» ، كناية عن إبداع المعلومة كي تستردّ على ورق الامتحان ، فلا تتحوّل إلى ثقافة ترشد الممارسة العملية . قال في هذه الصدد: «مهمة التعليم البنكيّ تتركز في تقليل القدرة على الإبداع عند الطلاب أو إلغائها تماما من أجل خدمة أغراض القاهرين الذين لا يرغبون في أن يصبح العالم مكشوفاً لهؤلاء ، أو أن يصبح موضوعاً للتغيير . فالقاهرون يتصرفون بغرائزهم ضد أي محاولة في التعليم تستهدف تنمية الملكة النقدية وترفض النظرة الجزئية لحقائق العالم .»

وحيث أن الإنسان هو محور التنمية ، وهو هدف التنمية وهدف الثقافة ، وفي نفس الوقت وسيلة للتنمية ، فإن التنمية البشرية تتشابك مع العوامل الثقافية ، بدءاً من القيم المحفّزة للعمل والانتماء والهوية ، وامتداداً إلى رموز المسؤولية الاجتماعية وضوابطها ، إلى جانب القيم الدينية ومدى تأثيرها . وتحلّ الأولوية في برامج التحوّل الديمقراطي في الثقة المطلقة للطلاب في توجيهاتها السياسية ، وأن قناعاتها حصيلة تجربتها الذاتية واطلاعاتها الحرة ، ومعبرة عن الضمير والمشاعر الصادقة . اكتسبت قصائد محمود درويش مصداقيتها وطاقة تأثيرها من خلال الصدق الفني للشاعر الملهم لدفق الانفعالات الصادقة . «إن قوة قصائده كانت إلى درجة دفعت وزير التربية الإسرائيليّ للمطالبة بوضع بعض قصائده في المنهاج التعليمي - (وهو أمر رفضه يومها إيهود باراك) - حتى أن شارون بنفسه قال بعد أن قرأ لماذا تركت الحصان وحيداً إنه فهم الآن تعلق الفلسطينيين بأرضهم» .

وفي آمال جوليانو خميس نلتمس أيضاً إحياءات الثقافة الوطنية: أمل مع الجيل الجديد أن نمهد الأرض لبناء الأمل ، والمقاومة ، والهوية الجديدة ، ووضع خطط استراتيجية ، وفكر ، وبلورة مفهوم للحياة ، من نحن ، كيف نرى أنفسنا في العلاقة مع الإسرائيليين ، وما هي الحقوق التي يمكن أن نعطيها لليهود الذين جاؤوا إلى فلسطين في العام 1948 وما بعده ، كيف ننظر إلى حياتنا معاً . . .»

ويقارب المسألة من التركيز على دور المثقف في ما طرحه الدكتور إدوارد سعيد في كتيب «صور المثقف» ، الذي أصدره بالعربية ، العام 1994: مثقف مرحلة التحول «يقول الحق في وجه السلطة ، ولا يقل مبدئية عن المسيح أو سقراط ، يدافع عن المعايير الأزليّة للحق والعدل» . التقط البروفيسور ملامح الثقافة الحقّة في شجب الفساد والدفاع عن الضعيف ، وتحديّ السلطة القمعية والناقصة . إمّا أن يتكلّم المثقف بشجاعة ، وبدون تلثم ضدّ أعمال العنف والظلم السلطويين ، وضد شوفينية الدولة العظمى والقومية العمياء ، أو أن يسير كغنم في قطيع . على كلّ مثقف ، سواء كان أستاذاً جامعياً أو مؤلفاً أو شاعراً أو صحافياً ، أن ينتقد السلطة ، فبدون المثقفين لم تشتعل أيّ ثورة رئيسية في التاريخ الحديث ، ولم تقم أيّ حركة مضادة للثورة . الثقافة نشاط نقدي للواقع ولكل ما بات متخلفاً وعديم الصلاحية ، ومقحماً علينا من أعداء التحرر والديمقراطية والتنمية . النقد يفرز مظاهر التخلف في نماذج الاقتصاد والثقافة والتعليم والسياسة المتبعة في المجتمعات العربية .

ومعلم بارز آخر للثقافة الديمقراطية قدمته خبرة الجماهير بنظم الهدر . فقد احتضنت تلك النظم الشمولية العصبية القبلية والعرقية والطائفية التي اشترطت ولاء الأفراد للزعامة ، وأشاعت النعرات العشائرية والعرقية والدينية المفتتة للمجتمع والمعتلة للحقوق المدنية ، وعلى رأسها حق المواطنة . نجحت الإمبريالية وإسرائيل في استثمار النعرات ، وأشغلت المجتمعات العربية بالحروب الأهلية والصراعات الطائفية الممزقة للنسيج الاجتماعي . فالضرورة تلح على أن يتكامل أنصار الحداثة والمؤمنون بحق المواطنة للجميع ، بغض النظر عن الطائفة والعصبة الدينية أو القبلية أو العرقية ، لمواجهة هذه الآفات الاجتماعية المستنزفة للطاقات . يتوجب على قوى التغيير الديمقراطي تحسين أدائها العملي والثقافي لاجتذاب القطاعات الأوسع من الجمهور المستلب ، وتوثيق الصلات مع مختلف الشرائح الاجتماعية من الرجال والنساء ، وإشاعة مشاعر الثقة بالهيئة الاجتماعية وبالقدرة الذاتية على إحداث التغيير والحفاظ عليه من مكائد الردة والتدخلات الأجنبية . تشكل هذه العناصر ضفيرة الهوية القومية الحضارية المنفتحة على أفق التقدم والازدهار الاجتماعي .

تقتضي ملاسبات الواقع الراهن تفعيل جبهة الثقافة بمضمونها الديمقراطي في الصراع المصري المحتدم: أولا بالنظر لكثافة الكذب والتزييف في دعاية التحالف المضاد ، الأمر الذي يتوجب تحصين الجماهير من تأثيراته ، وثانيا لتفعيل الممارسة العملية بإسنادها إلى ثقافة وطنية . الثقافة لا تستقيم دون أن تشحن الممارسة العملية للأفراد والجماعات بالوعي والاستنارة . والسبب الثالث لضرورة تفعيل جبهة الثقافة يكمن في تراخي المقاومة خلال حقبة البيات المنصرمة ، وهو ما انعكس في أزمة سياسية خانقة .

### اتحاد كوفيدريالي من المنظمات الأهلية

تكافح العفوية في السلوك الاجتماعي بإشراك الجماهير في تنفيذ برامج اجتماعية متنوعة ترفع الفرد من وهدة اللاوعي والاستلاب والسلبية إلى مستوى وعي الذات والبيئة . يتم إشراك الأفراد في النشاط العام من خلال تنظيمهم في الهيئات الأهلية . وهذه أيضا وسيلة مجربة لتثقيف الجماهير سياسيا ورفع سويتها الفكرية كي تُفشل أساليب الدعاية المضادة ، الحافلة بالزيوف والاختلاقات . يتم الخلاص من عفوية السلوك وارتجال المواقف والاستجابات عبر اعتماد نهج التخطيط والتنظيم؛ تستوجب دواعي حشد تيار فاعل للمقاومة الشعبية تعبئة شعبية تتقن أساليبها القوي التي تحسن إقامة الصلات بالجماهير الشعبية والتغلغل في صفوفها والتعرف على نفسياتها واجتذابها إلى النشاط السياسي المنظم والواعي . ينبغي الحرص على إقامة النشاط النقابي داخل المنظمات الأهلية على أسس الديمقراطية والنزاهة والمعرفة ، بحيث تتعلم الجماهير حسن اختيار الممثلين المنتخبين في الأمور النقابية والسياسية ، وفي شتى مجالات النشاط الاجتماعي ، ولكي تتقن إدارة الأنشطة والفعاليات العامة . وهذا يعني نبذ أسلوب تقاسم الكوات في العمل النقابي وفرض عناصر متفطنة على العمل العام ، غير مجرّبة ولا تمتلك خبرة التعامل مع الجمهور .

تتعاضم صلابة الحركات الشعبوية ومثانتها وقدراتها في الصمد والتحويل إن هي تشكلت من اتحاد كونفيدراليّ لهيئات قاعدية للمجتمع المدنيّ تنخرط فيها الجماهير حسب موقع السكن وطبيعة العمل والاهتمامات الثقافية والسياسية. الانتظام في الهيئات الاجتماعية والنقابية والثقافية والسياسية من شأنه أن يقيم الحركة الجماهيرية على أرضية ثابتة. «فلا يمكن بناء الديمقراطية في أي مجتمع بدون إشاعة ثقافة ديمقراطية وتعمق القيم الموجهة لسلوك المواطنين في هذا الاتجاه. كما لا يمكن استكمال التحوّل إلي الديمقراطية بدون بناء المؤسسات التي تمارس من خلالها هذه الطريقة في الحياة، أو بدون توافر الآليات التي يتم من خلالها وضع هذه القيم الديمقراطية موضع التطبيق وشمولها المجتمع كله» [المناضل المصري عبد الغفار شكر: دور المجتمع المدنيّ في بناء الديمقراطية].

وبعد أن استردّت الجماهير العربية معنوياتها وثقتها بقواها ونزلت إلى الميادين، باعتبارها القوة غير المهادنة والثورية حتى النهاية في فضاء النضال المناهض للتخلف والتبعية، لم يعد سهلاً على أعدائها الاستخفاف بمشاعرهم والتطاول على قضاياها، أو إغفال تطلّعاتها للتقدم.

### آفاق رحبة لتحوّلات جذرية

المعطيات الواردة آنفاً تفتح آفاقاً واعدة في النضال المناهض للصهيونية كحليف استراتيجيّ للإمبريالية معاد لكلّ سكان المنطقة على اختلاف الديانات والقوميات. والمقاومة الفلسطينية ينبغي أن تتحوّل إلى الهجوم، من حركة مقاومة إلى حركة تحرّر قومي مندمجة ضمن الحركة الواحدة للتحرّر والديمقراطية والتنمية والتوحد القوميّ. تقتضي مرحلة التحوّلات المصيرية التي تتأهب لها المنطقة وضع وتنفيذ برنامج مهمّات متكامل على الصعد الوطنية والإقليمية والدولية. في هذا الفضاء الواعد وآفاقه غير المحدودة تتوفّر الظروف لإنجاز مهمّات أساس، تتجسّد في تعميم ثقافة الديمقراطية التي هي بالضبط ثقافة الوعي المستنير، ثقافة الحقيقة، ثم بناء المؤسسات التي تشكل عتلات بأيدي قوى التغيير التقدميّ لتحريك الجماهير وقيادة الحركة الشعبية، حيث صدق الموقف والإخلاص في التوجّه والعمل، إلى جانب الخبرة المستنيرة بدروب النضال وتعقيداته ومطباته تعزز عوامل الثقة بين القيادة السياسية والجماهير.

ونحن نستشرف مرحلة جديدة نوعياً يمكن القول كفي للممارسات الإسرائيلية الموسومة بالعنصرية وادعاء التفوق العرقي. ويمكن أيضاً تعديل الكثير من انحرافات الماضي، وتقويم المسار المعوجّ الذي أدخلت في نفقه القضية الفلسطينية بفعل الكيد والتفريط وسوء الإدارة. تساقطت كأوراق الخريف التخيّلات التوراتية المحوّرة والمؤوّلة، التي قدّمت الذرائع للغزوة الاستيطانية الاقتلعية والهيمنة الكولونيالية. تذرعت إسرائيل أنها إنما أعادت إقامة دولتها. واستلهمت «إعادة الدولة» عبر مراحلها ما ورد في التوراة من قيم تحضّر على الإبادة الجماعية والنظهير العرقي. والآن تبيّن أن تلك التخيّلات خرافات وتأويلات استشراقية لنصوص توراتية أسقطت تعسفاً على فضاء فلسطين.

الزمن ماضٍ وحاضر ومستقبل موصولة الحلقات ، تتفاعل عبرها عناصر الثقافة مع الواقع المتغيّر باضطراد ، والمستقبل لا يختم على الماضي بالشمع الأحمر .

إنّ فتح ملف القضية الفلسطينية من جديد بات قضية الساعة ، لا سيّما وأن إسرائيل تنفرد بفرض الوقائع الجديدة ، ولا تبدي الاحترام الواجب للقرارات والاتفاقات الدوليّة المستندة إلى القانون الدوليّ الإنسانيّ . وهذا يعطينا الحق في المطالبة بإعادة النظر في كلّ ما ترتب على انتهاكات القانون الدوليّ منذ العام 1947 .

كما أنّ النضال اللاحق ضدّ الائتلاف المعادي يتمحور حول المقاومة الشعبيّة . ينبغي التمسك بخبرات الماضي ودروسه؛ كي نتجنب عثراته ومنزلقاته . ينبغي عدم نسيان ما أورده المؤرّخ إيلان بايه من أن بن غوريون استحثّ العنف العربيّ كي يمارس جريمته في مناخ العنف باقتراح جرائم المجازر الجماعيّة وتهجير الفلسطينيين من الديار . ولا ننسى أن باراك وشارون استدرجا الانتفاضة الشعبيّة الثانية في خريف العام 2000 ، إلى العنف المسلح وهما يضمران تصفية المقاومة الفلسطينيّة بالعنف المسلح المتفوق . فالتركيز على المقاومة الشعبيّة المستندة إلى الحركة الجماهيريّة المنظمة يمنح المقاومة طابعاً إنسانياً يستقطب لها العطف والتضامن ، ويضعف مسوغات إسرائيل للبطش بالجماهير الشعبيّة ومقاومتها ، أو على الأقلّ يضعف ذرائع التكتّم عليها أو الدفاع عنها . رسالتنا إلى العالم أننا مقاومة شعب يتعرّض لعدوان استيطانيّ تسنده القوّة العاشمة .

وبند آخر فرضته التحوّلات الثورية الأخيرة يتجسد في تشبيك الكفاح القوميّ . أدرك الفكر الاستشراقيّ مبكراً أنّ المنطقة المترامية شرقيّ المتوسط وجنوبه تضمّ سكاناً ينتمون لقومية واحدة ذات تاريخ واحد وثقافة موحّدة؛ وتقرّر تسخير السياسات الدوليّة لإدامة حالة التشرذم والضعف والتخلف لدى شعوب المنطقة . قرّرت استراتيجية الكولونياليّة المستهلكة لمعطيات الفكر الاستشراقيّ زرع كيان غريب وسط المنطقة ، يشاغل شعوبها ويمنع توحيدهم . وتميّز المشروع الصهيونيّ بطابعه الكولونياليّ؛ فتلاحمت محن الشعب الفلسطينيّ بمحن الشعوب الشقيقة المجاورة . في هذا المناخ الواعد لا يجوز قصر الجهد الفلسطينيّ والعربيّ على استجداء التضامن والعون .

من جانب آخر شهدنا ارتباط الاستبداد السياسيّ عضويًا بالقطريّة وبالارتباط التبعية بمراكز الرأسماليّة المتقدّمة . ارتفع في كل قطر عربيّ شعار «القطر أولاً» ، وأحجمت أنظمة الطغيان عن التنازل بأدنى قدر من صلاحيّات الإدارة لصالح عمل عربيّ مشترك أو تنظيم قوميّ يضطلع بمهامّ تنطوي على مصلحة عربيّة مشتركة مثل مشاريع اقتصاديّة تنمويّة أو أنشطة ثقافيّة أو إعلاميّة مشتركة ، أو تنسيق مواقف في اللقاءات الدوليّة . سخّرت الأنظمة سياساتها مع استراتيجية الإمبرياليّة في المنطقة والعالم . شجّعت أنظمة الطغيان على «الانخلاع عن الهوية القوميّة والتصلّب من الانتماء إلى جماعة تاريخيّة - ثقافيّة ، وذلك من خلال الانتقاص من قدر الحضارة العربيّة وتشويه التاريخ وتسويد الثقافة وتفريغ الإنسان والتشكيك في تاريخ العرب ومقدرتهم العقلية على تمثّل قيم الحضارة



الحديثة أو معانقة القيم المدنيّة، وتكبيّلتهم بمشاعر الفشل والعجز واللافاعليّة، وتوجيه الدراسة التاريخيّة والاجتماعيّة نحو مبادئ لا هدف منها سوى إفقاد الفرد الثقة بنفسه ومقدرة مجتمعاته على الانخراط في العصر، مثل ما اعتدنا على قراءته عن الجروح النرجسيّة والعصاب والماضويّة والانطواء على النفس والعداء للآخر، مما حفلت به المكتبة العربيّة في العقود الثلاثة الماضية، ولم تعرفه الدراسات الاجتماعيّة عن أيّ شعب آخر خلال التاريخ. في هذا العالم الاجتماعيّ الجديد الذي ساهم في خلقه واستمراره الطغاة الكاسرون والأجهزة الأمنيّة الضاربة والمتمولون الشرحون والمتقفون والدعاة المحبطون والناقمون أو المستفيدون، انحلت جميع العرى الاجتماعيّة، وقضي على أيّ أثر للروح العموميّة، للوعي الجمعيّ والإرادة العامة» [د. برهان غليون: عهد المواطنة العربيّ الجديد - الحوار المتمدن - العدد: 3302 - 11 آذار 2011].

تجارب الكفاح الفلسطينيّ عبر مراحل المتعثّرة تملّي ضرورة ولوج مرحلة النضال القوميّ الموحد. فقد تجسدت الطليعة الكولنياليّة للمشروع الصهيونيّ بفلسطين بأشكال شتى، منها أن قدراته مركبة من عناصر أهمها دعم ومساندة القوى الكولنياليّة. وحدّت الصهيونيّة جهودها مع الكولنياليّة الإمبرياليّة في العدوان على الشعب الفلسطينيّ والشعوب العربيّة. يملك التحالف الاستراتيجيّ المضاد من أسباب القوة ما ليس بمقدور الشعب الفلسطينيّ التصديّ لها وحيدا، لا سيّما المساندة غير المتحفظة لممارسات إسرائيل من جانب الإدارات الأميركيّة المتعاقبة. إن الموقف الأمريكيّ المعادي للشعب الفلسطينيّ والشعوب العربيّة يجب أن يقابل بالردّ اللائق؛ التحالف إياه يستلهم أهدافا تستهدف مصالح الشعوب العربيّة كافة، فالنضال المشترك على الصعيد القوميّ أمر لا بد منه. إن تحرير فلسطين المغتصبة يتمّ عبر كفاح عربيّ مشترك يشكل الفلسطينيّون قوته الضاربة؛ وهو كفاح مقرون بتشكيل حركة شعبية ديمقراطيّة في كل قطر عربيّ، ضمن نهوض عربيّ ديمقراطيّ جديد يتصدّى لمظاهر التخلف والاستبداد والتبعية. لا يجوز قصر الجهد الفلسطينيّ والعربيّ على استجداء التضامن والعون؛ المطلوب هو الانفتاح على الحركات المناهضة للعولمة وللممارسات المتوحّشة للرأسمال العالميّ ودوله. يتوجّب أن تبرز الفعاليّات العربيّة كمؤسس وفاعل إيجابيّ حيويّ في هيئات العولمة المضادّة، تسند نضال الشعوب ضدّ توحّش العولمة التي تدخل من ضمنها جرائم الحرب الإسرائيليّة وسفك الدماء الفلسطينيّة كلّ يوم وعلى مدار الساعة.

ويتعارض مع معطيات التجارب الأليمة لشعوب المنطقة استنتاجات بعض معارضي اللوبي الإسرائيليّ في الولايات المتّحدة من أن السياسة الأميركيّة تدعّن للوبي؛ فذلك من شأنه التغطية على الأهداف المتوحّشة للرأسمال الاحتكاريّ الأميركيّ في الفترة الراهنة، والتي تشكل عدوانيّة إسرائيل وفاشيّة سياساتها مكملها العضوي. ربما يحتمّي بعض هؤلاء بالهجوم على اللوبي وهم يضمرون معارضة بدوات التوحّش الامبرياليّ. والحقيقة أن الاحتكارات عابرة الجنسيّة تستخدم إسرائيل واللوبي في مغامراتها بالمنطقة والعالم. جون بير كنز، عميل الاستخبارات سابقا، تراجع عن المهنة وألف

كتابه «التاريخ السري للإمبراطورية الأمريكية»، يقول فيه، «حقيقة الأمور إننا أنشأنا (إسرائيل)، هذه القاعدة العسكرية الكبيرة، أنشأنا معسكراً مسلحاً، في وسط حقول نفط الشرق الأوسط، قاعدة تحيط بها مجتمعات عربية، وخلال هذه العملية من الواضح أننا خلقنا كمّاً هائلاً من الغضب والامتعاض، ووضعاً من الصعب جداً أن نرى له ناتجاً إيجابياً، ولكن حقيقة المسألة، امتلاكنا لهذه القاعدة العسكرية في إسرائيل هو دفاع كبير عنا، إنها مكان يمكن أن نشنّ منه هجمات، وأن نعتمد عليه. إنها بالنسبة لنا المكافئ لقلع صليبية في الشرق الأوسط، وهذا أمر محزن جداً، وأعتقد أنه محزن إلى درجة بالغة بالنسبة للإسرائيليين، أن يقعوا في شرك كل هذا، وأمر بالغ الحزن بالنسبة للشعب الأمريكي، أمر بالغ الحزن بالنسبة للعالم أن يستمرّ هذا الوضع» . . .

المناخ العربي المتشكّل يطرح تجاوز تكتيك التضامن العربي إلى وحدة الكفاح العربي. والقضية الفلسطينية مكوّن عضويّ من قضايا تقدم المجتمعات العربية، وهي قضايا التحرر والديمقراطية والتنمية الاجتماعية والتوحد القومي. الديمقراطية التي تمثل دينامو التحرر والتقدم تتجاوز التعددية وصناديق الاقتراع لتشمل تصفية النزعات القطرية والعصبية الطائفية والعشائرية وسائر مخلفات العصر الوسيط في الوعي والانتماء والحياة الاجتماعية. تتجلى في المجتمعات العربية رفضاً لتهميش الجماهير الشعبية وتبخيسها وترك نشاطاتها للعفوية، والتصدي لظواهر اضطهاد الأقليات العرقية والطائفية واضطهاد المرأة. إن تصفية هذه الظواهر من شأنه أن يحزر إرادة الممانعة، وينظم حركة شعبية تستلهم القيم الإنسانيّة التقدمية. وهذه المهام ينبغي أن تكون من صلب مهام مناهضة الصهيونية والإمبريالية.

يتطلّب كسر الحصار المفروض على الشعب الفلسطينيّ الخروج من شرنقة القرار الفلسطينيّ المستقل، والشروع في التنسيق مع القوى الديمقراطية والحركات الشعبية المناضلة لتشكيل هيئات عربية وإقليمية تتخصّص كل منها في أحد جبهات المشروع المتكامل للتحرر والديمقراطية والوحدة والتنمية، حيث أنها جميعاً مدخلات أساس في حملات الصراع الدائر من أجل فلسطين عربية. ويحتلّ الموضوع الفلسطينيّ واحدة من الجبهات يكون للشعب الفلسطينيّ فيها دوره المتميز داخل الجبهة. إن مقاومة الاستيطان والتهويد وتحرير الأراضي الفلسطينية يتكامل مع نضال الجماهير العربية من أجل تحرير الإرادة الوطنية والقومية وحماية الأمن القومي العربي ومواجهة مخططات الإمبريالية، وهيئة شروط التنمية المستدامة. يقتضي ذلك مكافحة تغلغل الاحتكارات عابرة القومية في الاقتصادات الوطنية وتطهير الأرض العربية من الوجود العسكري الأجنبي واستخدام الثروات الوطنية لتنمية المجتمعات العربية ووقف تسخير المنطقة نقطة ارتكاز للمشاركة الإمبريالية وترقية أنظمة التعليم والثقافة الوطنية.

## لا يبقى في الوادي غير حجارته

انكسارات ونكسات تخللتها الكوارث فشلت في حمل الجماهير الفلسطينية على التخلّي عن وطنها . صبرت الجماهير على الصيم ، لكنّها كانت تغلي بالغضب . نكبت المجتمعات العربيّة كافة بأنظمة أنزلت بالجماهير صنوف القهر والهدر ، واجبرتها على التعايش مع الإهانات ، لكنّها لم تفقد أشواق الحرية والكرامة ، دلالة على أن الجهود المكثفة لتحطيم إنسانيّة البشر فاشلة في هذا العصر . بقيت الجماهير العربيّة متمسكة بالأمل في أن «على هذه الأرض ما يستحق الحياة» .

أما في إسرائيل فقد بينت معطيات الحياة صحة الأبحاث والدراسات العلمية خارج نطاق الفكر الاستشراقيّ؛ كلّ الزيوف والدعايات وصيحات النصر لم تنسج علاقة حميمة بين يهود قدموا من أوروبا وأميركا وبين أرض فلسطين . بالمقابل خلف الخط الأخضر يعاني الفلسطينيون العنصريّة ويجرّدون من الأرض ويضيق على مجالسهم المحلية من حيث الدعم ويمتهن التعليم بقصد طمس كيانهم القومي التاريخيّ وتجذّرهم في البلاد ، ثم تقليص الخدمات الحيوية لفرض حياة لا تطاق تضطر ضحاياها للهجرة ، ومع ذلك كله يثبتون فوق أرضهم مصرّين على أنهم وجدوا على هذه الأرض قبل قيام الدولة ، وهم أحقّ منها بالمواطنة .

الوقائع المعلنة توضح أن اليهود في إسرائيل لا يهتمهم مصير وطن وليسوا في وارد بناء وطن؛ فما يوجههم هو نمط حياة مريح ولو على أنقاض شعب آخر . الوطنية ظاهرة غريزيّة من العلاقة الحميمة بالأرض التي يأنس الكائن الحيّ إليها ويستنفر إن لاحظ وطء غريب . الظاهرة تبرز حتى لدى الحيوانات؛ ففرى الاستنفار لدى الوحوش الكواسر لو وفد غريب إلى البيئّة الجغرافية المعتبرة حيوية للوجود . وقد طور الإنسان النزعة الغريزية مع الزمن إلى قضيّة اجتماعيّة ، وباتت وطنية الجماهير الشعبيّة معلماً بارزاً في النضال الوطني التحرّري ، أو لدى ردّ التطاولات الأجنبية . ومنذ أقدم العهود الطبقيّة والسلطين الطامعون في توسيع النفوذ يضربون على وتر النزعة القوميّة العدوانيّة طلباً للحشد والتعبئة . ظهرت الرابطة القوميّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وتميّزت في أوروبا الغربيّة آنذاك بتنامي الديمقراطيّة؛ لكنّها ظهرت في تلك الأزمنة قوميّة متطرّفة عنصريّة في أوروبا الشرقيّة مثلما برهن شلومو ساند في عرض تاريخيّ رائع يبرهن فيه أن «قوميّة» الصهيونيّة ظاهرة مرّضيّة ، وارتداد عن معطيات عصر التنوير .

حشدت الصهيونية تواريخ مزورة، وعبأت قدرات عسكرية متفوقة، ونظمت برامج تعليمية وإعلامية ساوت بصورة تعسفية اليهودية بالصهيونية، واعتبرت نقد ممارسات إسرائيل عداً للسامية. تغلغت المعادلة في ثنايا السياسة الدولية، وكان ليهود إسرائيل رأي مخالف: الصهيونية غير اليهودية، بل نقيضها. عملياً أسفرت وقائع ستة عقود ومعطياتها من تجربة دولة إسرائيل وأنشطتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية والثقافية والتعليمية عن وهن الروابط بين الشعب والأرض؛ ودلالات ذلك متعددة:

قارب بؤس النهاية لتجربة الحركة الصهيونية الباحث الأميركي الشهير، أندرو ليفين. هو علامة لدى معهد الدراسات السياسية، أصدر عدة كتب منها «الإيديولوجيا الأميركية ومفاتيح مفرداتها السياسية»، عمل أستاذاً للفلسفة بجامعة ويسكونسن وأستاذاً للأبحاث الفلسفية بجامعة ماريلاند بارك. ضمن في مقال نشرته مجلة «كاونتر بانثس» حصيلة أبحاثه ومطالعته: «ينبغي القول إن عدداً كبيراً من اليهود في الولايات المتحدة وأوروبا وحتى في إسرائيل لا يدعمون إيديولوجيا الصهيونية، ويصدق هذا أكثر من أي وقت مضى (. . .) بذلت جهود دعائية ضخمة لتماهي الصهيونية باليهودية، بحيث اعتبر العدا لليهودية عداً للسامية، وتغلغت هذه الفكرة في تلافيف الثقافة السياسية. بات متوقفاً أن يدعم معظم اليهود دولة إسرائيل؛ غير أن «الحقيقة الأكبر تؤكد أن إسرائيل لا تحظى بالاهتمام الأكبر خارج دوائر الصهيونية. وأجازف إلى القول إن معظم اليهود لا يؤدون العيش فيها». تمنى الباحث لو أن أوباما «صاح تنبأه بوجوب احترام القانون الدولي ومن ثم ضرورة إزالة المستوطنات خارج حدود الخطّ الأخطر، ومعها كان جهاز الأبارتهايد الذي يحافظ عليها (. . .) لو قال ذلك بطريقة توضح أن إسرائيل سوف تتحمل عواقب وضع العراقيل بوجه هذا الحل، في تلك الحالة ستوفر لنا الفرصة لحل الإشكالية مع إيباك، والتي أبرزها الأكاديميان الأميركيان، وولت و ميرسهايمر». ثم مضى إلى القول: «نعلم أن الطبقة السياسية في الولايات المتحدة تجبن أمام اللوبي الإسرائيلي؛ غير أننا لا نعرف كم هو قوي ما لم نختبره. و لو تحدّى أوباما اللوبي الإسرائيلي أشك أننا سنندش بسرور للنتيجة. ولو تبين أن اللوبي نمر من ورق فإن مهمتنا تكمن في تغيير توازن القوى في الداخل عن طريق إسناد الحقائق على الطبيعة - من خلال المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات وطرق أخرى لا حصر لها. فما يتضح بدون شك أن اللوبي الإسرائيلي يشكل عقبة في طريق العدالة والسلام ويجب التصدي له».

في نظر الباحث تفاقمت التناقضات الداخلية للصهيونية فكراً وسياسة وتفجرت على السطح، «على خلاف اللاساميين الآخرين، فالصهيانية المسيحيون ينسّقون مع اليهود، لكن ارتباطهم بإسرائيل لا ينبع من غرام باليهود أو اليهودية؛ إنما ينبع من اعتقاد أن نهاية العالم ستشهد إلقاء غير المسيحيين، خاصة اليهود، في عذاب جهنم يوم الحساب. كيف يتمسك المسيحيون الصهيانية بتلك الأفكار ويمثلون اليهود؟ أمر لا أدره. هناك في الأمر خداع الذات. يتساءل المرء هل برز مثل هذه الكراهية من النازيين بالذات؟!».

ولدى استعراض الخط البياني لمسيرة الصهيونية صعوداً ثم بداية النزف من سمعتها ونفوذها لاحظ ليفين أن اليمين الإسرائيلي سيطر على السياسة الإسرائيلية منذ أن نجح حزب ميناخيم بيغن، وظلّ يجامل الصهاينة المسيحيين. اليسار الإسرائيلي ييدي الازدراء للصهيونية المسيحية؛ غير أن اليمين الإسرائيلي يتصرف بلا حياء ولا حدود لإجرامه.

تحدّث ليفين عن يهود العالم كله؛ غير أن الباحث الأميركي فرانكلين لامب، يتقصّى مواقف اليهود داخل إسرائيل، ويخلص إلى القول إن يهود إسرائيل يرحلون بصورة جماعية ترفّهم الخيبة وفقدان الثقة بالصهيونية التي حشدتهم في ما أسمته زوراً «أرض الآباء». أجمل نتائج استطلاعات وأبحاث علمية أن «الإسرائيليين يتدافعون للحصول على جواز سفر ثان»، وهو عنوان مقاله بمجلة «كاونتر بانث» (عدد 3-5 حزيران 2011). والحصيلة أكدتها أيضا أبحاث واستطلاعات رأي أجرتها في إسرائيل مراكز بحثية متخصصة غير معادية، منها أيباك والمندوق القومي اليهودي في ألمانيا، فأكدت أنه «خلال السنوات القليلة القادمة فإن نصف يهود إسرائيل سوف ينظرون في أمر مغادرة البلاد إذا تواصلت الاتجاهات السياسية والاجتماعية الحالية». وينقل الباحث عن الصحفي الإسرائيلي جدعون ليفي قوله: «أباؤنا الأوائل حلموا بالحصول على جواز سفر يهربون به من أوروبا، والآن يوجد الآن بيننا العديدون ممن يحلمون بجواز سفر يهربون به إلى أوروبا». ثم فصل المقال هذه النتيجة الصارخة بالأرقام: دراسة أجراها عام 2008 مركز ميناخيم بيغن للتراث ومقرّه القدس، أظهرت أن 59 بالمائة من يهود إسرائيل قد اتصلوا بسفارات أجنبية أو ينوون الاتصال يستفسرون أو يقدمون طلباً لمنحهم جواز سفر او جنسية؛ واليوم تقدر نسبة هؤلاء بسبعين بالمائة.

ويواصل الباحث الأميركي القول، «وطبقاً لأبحاث قامت بها جامعة بار إيلان ونشرت في 'مكان آخر'، فإن عدد اليهود في إسرائيل ممن يفكرون في الهجرة من فلسطين يتزايد بسرعة. وخرجت دراسة بحثية أجرتها الجامعة بخلاصة تقول أن ما يزيد على مائة ألف إسرائيلي يحملون الآن جواز سفر ألماني، ويتزايد العدد بسبعة آلاف كل عام. ويقول المسؤولون الألمان إن أكثر من سبعين ألف جواز سفر منحت بعد العام ألفين. وأن هناك مليون إسرائيلي يحملون جوازات سفر أجنبية أخرى، من بينهم نصف مليون إسرائيلي يحملون جواز سفر أميركي. يجمل فرانكلين لامب الحصيلة موضحاً أسبابها في استمرار المقاومة الفلسطينية والإدراك المتنامي لدى الإسرائيليين ممن يطلعون على الإنترنت المتمردة على دعاية الميديا الإسرائيلية، وكذلك الرواية الفلسطينية المقوّضة للزعم الصهيوني بصدد شعب بلا أرض لأرض بلا شعب».

تحظى إسرائيل بدعم فعال من جانب الدول الأوروبية والولايات المتحدة، صاحبة الدور الحاسم والمقرّر في السياسات الدولية. وفي نفس الوقت تمنى بعزلة على الصعيد الشعبية في مناطق واسعة من العالم، ومنها أوروبا الغربية. وهذا مظهر عطب في الديمقراطية البرجوازية. تواترت قرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة المنددة بسياسات إسرائيل. ويضاف لتلك القرارات ما أسفرت

عنه حملات فرض الحصار على إسرائيل ومقاطعتها أكاديميًا وثقافيًا من تأثيرات حتى على بعض الحكومات في الغرب . ونقلت صحيفة هآرتس نتيجة استطلاع للآراء أجرته الإذاعة البريطانية (بي بي سي) ونشرت نتائجه يوم الاثنين 7 مارس/ آذار 2011 ، قَدّم ما يعزّز التقديرات بعزلة إسرائيل الدولية؛ إذ لم يؤيّد موافقها سوى 21 بالمائة من المستطلعة آراؤهم . وكتب الصحفي في هآرتس ، نيف لانير ، يعقّب على نتائج الاستطلاع ، فقال: «العالم ليس معنيا بديمقراطية إسرائيل ولا بإنجازات طلبتها في الرياضيات؛ العالم يرى كيف تسلك الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط في الأراضي الفلسطينية المحتلة . إنهم يتطلعون إلى ما يجري في بلعين والشيخ جراح ، وإلى أشجار الزيتون تقتلع وإلى نقاط التفتيش . العالم ينظر إلى المستوطنين يشعلون النار ويطلقون الرصاص ، وإلى زعمائهم ، عضو الكنيست ميشيل بن آري ، وإيتمار بن غفير ، وباروخ ميرزل يعربدون في يافا وأم الفحم .»

والمكابدة القاسية في إسرائيل دفعت الشباب والشابات من اليهود الشرقيين إلى الكفر بالصهيونية . في بيان صدر بتوقيع عدد من الشباب والشابات من الجيلين الثاني والثالث من أبناء أسر مهاجرة من بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ، أعلنوا انفضاضهم عن الصهيونية سياسيًا وثقافيًا: «ونحن أيضاً نعيش في ظل نظام ، رغم ادعائه 'التنوير' و'الديمقراطية' . .) إن هذا النظام يدوس الحقوق الاجتماعية والاقتصادية لمعظم المواطنين ، ويمضي في سيرة متواصلة من تقليص الحريات الديمقراطية وقيم حواجز عنصرية ضد اليهود العرب والشعب العربي والثقافة العربية» . وأعلن بيان الشباب والشابات التحوّل «بالتحديد علينا أن ندخل في حوار وتضامن مع فضالات المواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل ، أولئك الذين يناضلون من أجل حقوق اقتصادية وسياسية متكافئة ، وتصفية القوانين العنصرية ، ومع نضال الجماهير الفلسطينية في الأراضي الخاضعة للاحتلال العسكري الإسرائيلي في الضفة وغزة ومساندة مطالبهم بإنهاء الاحتلال وإقامة دولة وطنية مستقلة» . قدم الشباب والشابات أنفسهم جيلاً يتنصّل من مظاهر ثقافية فرضت عليهم سابقاً «أولاً في إسرائيل التي تصوّر نفسها وثقافتها تعود لمكان ما في أوروبا وأميركا الشمالية ، ثم العرب الذين يتصوّر اليهود أوروبيين وفضلوا إقصاء تاريخ اليهود العرب ، باعتباره فصلاً هزلياً أو معدوماً في التاريخ العربي ، وأخيراً بين اليهود الشرقيين أنفسهم ، ممن انتابهم الخجل من ماضيهم في العالم العربي» .

ثم مضى البيان إلى القول: وهذا يعدّ خطوة هامة وأساسية للتحوّل إلى النضال الطبقي المتزامن مع الانفلات من قيود إيديولوجية وثقتها عقود من التبعية بالإيديولوجيا الصهيونية وثقافتها البرجوازية الأوروبية ، المصحوبة بعملية متواترة من غسيل الدماغ . وهي العملية التي حملها أبراهام بورغ وزر كسر حلقة يمكن أن تربط إسرائيل بمحيطها العربي . إنها صحوة لها ما بعدها من المخدّر الإيديولوجي الذي رُوّج له القيادة الأشكنازية منذ إقامة دولة إسرائيل . قالوا في بيانهم ، «نحن ننظر إلى صور الحشود في تونس وميدان التحرير في القاهرة ، معجبين بقدرتك على

حشد وتنظيم مقاومة لا عنفوية، دفعت مئات آلاف البشر إلى الشوارع والساحات، وأجبرت في النهاية الحاكمن المستبدين على ترك الحكم؛ كما أشاروا إلى «أن النضال من أجل الحقوق الاقتصادية والثقافية والاجتماعية يكمن في الإدراك أن التغيير السياسي لا يتوقف على قوى الغرب التي استغلت منطقتنا وسكانها لعدة أجيال خلت» (. . .)، «فالتغيير الحقيقي لا يمكن أن يتحقق إلا عبر حوار عابر للأديان والمناطق، حوار يرتبط بمختلف النضالات والحركات الناشطة في الوقت الراهن في العالم العربي».

في إسرائيل نسبة عالية من الهجرة المضادة، بعد أن اتضح كذب الدعاية الصهيونية. يسود الخوف من أن المستوطنين بالضفة، وعددهم ستمائة ألف، سوف يفجرون حرباً أهلية ويستولون على الضفة، ومن ثم يضمون إسرائيل وقيمون دولة فاشية في فلسطين». هذا ما أورده مقال فرانكلين لامب، الذي مضى إلى القول: «وتمارس ضغوط داخل إسرائيل، خاصة من جانب اليهود الروس الذين يرفضون الصهيونية بصورة شبه إجماعية. واليوم يشكل اليهود الروس أكبر مجموعة تهاجر من إسرائيل ويعودون إلى موطنهم الأصلي لأسباب تتراوح بين رفض الصهيونية، والتمييز ونقض العهود المتعلقة بالتوظيف، والحياة في إسرائيل. وقد عاد إلى روسيا قرابة مائتي ألف يهودي، أو ما نسبته 22 بالمائة ممن هاجروا زمن الانهيار العظيم. وهم لا يكونون أي احترام للقادة الإسرائيليين، فمعظمهم فاسدون».

علق الحاخام الأكبر لروسيا منذ العام 2000، بيريل لارزار، على ظاهرة الهجرة المعاكسة فقال «إن الناس شعروا أنهم مارسوا يهوديتهم داخل إسرائيل، إنما اقتصروا غلطة تاريخية بالنسبة لأسرهم. والآن باتوا يعرفون أن بمقدورهم العيش في روسيا جزءاً من مجتمع وهم ليسوا بحاجة لإسرائيل». ومضى إلى القول، «يسود إحساس أن الصهيونية خطفت اليهودية، وأن القيم اليهودية التقليدية قد أفسدت».

ليس الباحث فرانكلين لامب فقط، إنما يورد الصحفي الإسرائيلي كارلو سترينجر في صحيفة هآرتس نفس التنبؤات المتشائمة. كتب يحذر الإسرائيليين بأن «يتهيأوا لأيام سود»، وقال: حتى الصحف الرئيسية بالولايات المتحدة تؤكد عكس ما تدعيه الصحف الإسرائيلية (بصدد تزايد شعبية نتياهو)، ولا أحد يقبل الزعم بأن «الفلستينيين يتحملون وزر انهيار المفاوضات». ومضى المقال إلى تأكيد «ضمان الفلستينيين أصوات أغلبية ثلثي أعضاء الجمعية العمومية لصالح إقامة دولة فلسطينية بالضفة، وليس من شأن عناد نتياهو سوى التيسير على حكومات الدول الأوروبية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا تأييد إقامة الدولة الفلسطينية. . . وسوف ندفع نحن الإسرائيليين ثمناً غالياً بالمقابل. وعلينا التعايش مع حل يفرض من الخارج. ويعرف أوباما أن رفض الطلب الفلسطيني لن يعمل لمصلحة بلاده على الصعيد العالمي، وهو يعرف أنه لن يمنع اصطدام إسرائيل مع العالم».

مقارنة بسيطة بين تهافت على الرحيل والهجرة ، والمخاطر ما زالت تلوح في الأفق ، وبين تمترس فوق أرض الوطن رغم تواتر المحن والاضطهادات والمضايقات والتجويج والحصار والإهانات المنهجية . هذا داخل الوطن ، إذ يدق جزء آخر على الحدود بقوة ، ينظم المظاهرات ويحتفظ بمفاتيح الأبواب تشبثا بحق العودة بعد عقود مضيئة من اللجوء .

الأبحاث التاريخية التي أجريت خارج نفوذ الفكر الاستشراقي بينت سراية الأسس التي استندت إليها الصهيونية في فرض وطن لليهود في فلسطين ، فإقامة دولة إسرائيل واتباع نهج التطهير العرقي والإبادة الجماعية ، استنادا لخصوص توراتية لم تنجح في نسج علاقة عضوية مع الأرض ، كذلك التي تربط الفلسطينيين بأرض وطنهم ، فهي علاقة تطورت عبر التاريخ من خلال العمل المنتج ، وعبر معايشة البيئة ومناخاتها ونباتاتها ومعاناة شظف العيش في ربوعها في ظل المستبدين والطغاة المحليين والأجانب . تجلت للعبان في واقع متعين الوثائق التاريخية والأسانيد العلمية والمعطيات التي برهنت الطابع الخرافي لدولة إسرائيل القديمة وخرافة «أرض الميعاد» على أرض فلسطين ، خصوصا ما طرحه الدراسات التاريخية ، التي تقطع بجلاء عدم أحقية وراثة الأرض الفلسطينية لغير أبناء هذه الأرض ، بغض النظر عن العقائد الدينية والانتماءات الإثنية . إن ذلك يتجسد عمليا في اغتراب يهود أوروبا عن البلاد وعزوفهم عن مواصلة العيش في ربوعها . كشف المسار العملي لنشاط الدولة أن تليق الأوطان وتزييف التاريخ لا تشكل مقومات عضوية لمواطنة ملتزمة بالأرض ومعنية بمصيرها وبحياة البشر في ربوعها .

ابتكرت الحكمة اللقمانية وسيلة للتعرف على الأم الحقيقية للطفل ، حين ادعته أم كاذبة؛ وقدمت التجربة المعاشة اختبارا عمليا واقعيا ودقيقا أكد كذب ادعاء فلسطين ووطننا لغير الفلسطينيين ، أصحاب البلاد . مقارنة تلقي الأضواء على أصحاب البلاد حقا وصدقا . من هي الأم المزعومة ، مدعية الارتباط الروحي ، ومن هي «أم الولد» المتدفقة عاطفة غريزية .

اتكأت الصهيونية على خرافات وتراسنة أسلحة . وبقيام إسرائيل تشكلت ثكنة عسكرية متأهبة على الدوام للدخول في حرب ، ينتظر كل من فيها استدعاه للخدمة العسكرية . في إسرائيل تمت عسكرة مجمل جوانب الحياة كافة . وإذا سئم الشعب حالة الانتظار فهل تبقى الثكنة العسكرية؟ أم أن مصير إسرائيل رهن بإرادة من ينفقون عليها المليارات ، ويقررون لها هل تنسحب من أراض احتلتها أم تبقىها دولة محتلة تمارس الأبارتهايد . المسيحيون الأصوليون هم أول من رفع شعار عدم انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة؛ وممثلوهم في الكونغرس الأميركي يقررون بقاء الاحتلال ، فالعولمة السياسية والعسكرية باتت تجيز للهيئات الأميركية تقرير شئون كل شعوب العالم! أليس «القرن الأميركي» أحد المفاهيم المحورية لبرنامج المحافظين الجدد المهيمنين على السياسة والاقتصاد والثقافة وكل مصادر القوة في الولايات المتحدة الأميركية؟



رصد آينشتين في أخريات حياته خداعاً للذات ، هو أقرب إلى السجن ، نقيّد داخل نطاقه رغباتنا وعواطفنا حيال أشخاص قلّة محيطين بنا ، ونغفل عن سواهم . هو يقصد من ينعتون أنفسهم «شعب الله المختار» وورثة «وعد الرب» . ينصح آينشتين «علينا أن نتحرّر من هذا السجن ، عن طريق توسيع دائرة تعاطفنا كي تشمل كلّ الأحياء في هذا الكون ، والطبيعة بأكملها وفي جمالها . كثر من بين اليهود من نصّحوا شركاءهم في الديانة بنفض أغبرة التعصّب الدينيّ وتوسيع دائرة تعاطفهم كي تحتضن البشر جميعاً . ولكن ، كما وصف أوسكار ماندل التراجيديا بأنها حالة مواجهة فرد أو مجموعة مصيراً قاتلاً أو مدمراً ، نتيجة لقرارات تصدر منه أو منهم: «يموتون وليسوا سعداء من خلال جهودهم . . . كشرط متضمّن في تلك الجهود» .

أما الجماهير الفلسطينية على أرض الوطن أو في الشتات ، فإن تطلّعاتها إلى الحرّية والمساواة والعدالة فوق أرض فلسطين ظلّت تشكل مخدّة تمنع التحطّم أثناء السقوط والانكسار . ويتميّز العصر الحديث بأنّه وضع إمكانات الحرّية والعدالة والتقدّم بأيدي الشعوب .

- 1- البروفيسور كيث وايتلام: إختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني - ترجمة سحر الهندي ، عالم المعرفة عدد 249 لعام 1999 ،
- 2- البروفيسور شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي/ترجمة سعيد عياش ، تدقيق الترجمة أسعد زعبي - إصدار المدار - أيلول 2010
- 3- فاضل الربيعي: فلسطين المتخيلة - كتاب في مجلدين ، دمشق ، دار الفكر 2008 .
- 4- الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري: الإيديولوجية الصهيونية ، عالم المعرفة ، الجزء الأول عدد 60 ، 1978 .
- 5- الدكتور إميل توما: العرب والتطور التاريخي في الشرق الأوسط - معهد إميل توما للأبحاث الاجتماعية والسياسية ، حيفا 1995 .
- 6- أبراهام بورغ: لنتصهر على هتلر ، ترجمة بلال ضاهر وسليم سلامة ، مراجعة وتقديم أنطون شلحت ، إصدار مدار - مركز الدراسات الإسرائيلية ، رام الله ، نيسان 2010 .
- 7- إيلان بايه: التطهير العرقي في فلسطين ، ترجمة أحمد خليفة - إصدار مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت 2006-
- 8- الدكتور ابراهيم حجازين: علم الآثار الفلسطيني القديم ميدانا لعلاقات العرب والغرب - الحلقة الثانية / الحوار المتمدن عدد 2765 بتاريخ 2009 / 9 / 10
- 9- مركز أبحاث الأراضي - جمعية الدراسات العربية
- 10- ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية- ترجمة أحمد عبدالله عبد العزيز / عالم المعرفة عدد 96 / 1985 .
- 11- إدوارد سعيد: على درب الله: الإسلام والسلطة السياسية (1983) .
- 12- الموقع الإلكتروني الأميركي كاوتنر بانث Counterpunch .
- 13- الموقع الإلكتروني الأميركي ميديل إيست رياليتيز Middleeast Realities (MER) .
- 14- الموقع الإلكتروني الحوار المتمدن .
- 15- د . مصطفى حجازي: الإنسان المهذور- المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء 2005 .